اخرج منها

يا ملعون

بقلم: صدام حسين

(1)

تعيش الشياطين، حسب اعتقاد من يعتقد بذلك، وتفرخ بين أعمدة الخشب في البيوت العتيقة، حيث تشكل تلك الأعمدة مساند سقوفها، أو بين أعقاب النبات والحطب حيث يخزنان، أو في المغاور، والشعاب، والأكواخ المهجورة، وفي بقايا جدران إرم ذات العماد، التي غضب الله على أهلها فهلك من هلك وهجرها الناس، أو في خرائب بابل، التي هجرها أهلها بعد أن دمرها الفرس، وفق تدبير تآمر به معهم اليهود الذين جاء بهم نبوخذ نصر أسرى إليها.. أما الآن، فقد تكون موجودة في وسائل الاتصال، وفي شاشات التلفاز، وفي المقتنيات الحديثة، وما يمكن أن تغري به، أو في عيني امرأة شرهة سوتهما بأصباغ هذا الزمان وفق نزعتها، بعد أن لصقت عليهما عدستين ملونتين تحجبان لون عينيها الأساس، بحيث لا يعرف المرء من خلالهما متى ترغب أو لا ترغب بكل شيء، وأي شيء، مما هو مشروع، أو غير مشروع، ومتى تستحي.. وتستعصم بالله، فتعز نفسها وأهلها، أو تنزلق في مهاوي الشيطان، فتخزي نفسها وأهلها.. أو في نزعات الرجال عندما يصبون إلى ما لا يرضي الله، وعندما يغضبون ولا يتذكرون أي شيء مما ينبغي أو يجب، إلا ما يناسب هوى أنفسهم وغضبهم.. وهي في كل الأحوال، موجودة حيثما وجد طمع وطامعون، وظلم وظالمون، وشر وأشرار، حتى لتخالها موجودة في سدادة مدفع، أو في خزانة مترعة بمال حرام، أو محرك طائرة، أو زعنفة قنبرة طائرة، أو صاروخ مدمر، أو احتلال اجنبي مغتصب، أو في مغاليق السجون وخلف قضبانها، حيث تضم في زواياها أبرياء أو أناساً يناضلون ويجاهدون حباً بالله ضد الكفر والظلم، أو يناضلون من أجل الحرية، بل لعلها موجودة في صدور أصحابها، وفي دمائهم، وحتى في نواياهم، والأقلام التي يخطون الباطل بها على الورق، ويهيئون له، أو في ما يضمرون.

ومع كل هذا، تكيف الشيطان ليكمن في مفرداتها، أو يحرك ما يقتضي ليهيج الشر، وبذلك طور وجوده، وفعله مع تطور قدرة الإنسان ووسائله، فتحول الشيطان من الشكل التشبيهي القديم، الذي عرف به في رسومات وتخيلات الأقدمين: عينان مسحوبتان عرضا أو طولا، وشعر أشعث منتصب إلى الأعلى فوق رأسه، رافض أن ينسدل مسرّحا مع رقبته، أو متدليا من الرأس على الكتفين، أو حتى وردة الأذن، كما هو الحال في الإنسان، وصار الشيطان يتخلل الإنسان إلى الحد الذي بات الدراويش، أو المعنيون بالطب الروحي، غير قادرين على إخراجه من جسم من يتخلله عابثاً بروحه، حتى لو رددوا آلاف المرات، وهم يضربون الأرض بعصيهم على مقربة ممن دخله الشيطان، أو حتى على قفاه، وهم يصيحون، بعد أن يقرأوا ما يقرأونه: اخرج منه، أو منها، (يا ملعون).

صار الشيطان كأنه مندمج بالإنسان المناسب لوصفه، بعد أن تخلله، أو صار الإنسان المعني فعلا، من ناحية الصفات والأثر، بوصف يجعله كأنه شيطان، أو أن الشيطان هرب من المكان، بعد أن كثرت أعداد من يقوم بواجبه من البشر، فانزوى بعيداً.

وفي كل الأحوال، بقي الشيطان متخللاً ومستقراً في ضمير، وعقل، وتفكير، وفعل من يقبل ولايته عليه، إلا أنه بقي بعيداً، بعد أن اخفق مع أولئك المحصنين بدروع إيمانهم وعقيدتهم، الذين يرفضون الولاية إلا للرحمن الرحيم والمؤمنين الذين يسعون ويفكرون، ويتأملون وفق ما يرضي الله، ويتجنبون ما ينهاهم عنه، سبحانه.

قبل حوالي ألف وخمسمائة عام، أو نحو ذلك، وبعد ذلك، وإلى حين، كان الناس في العالم كله يعيشون عيشة متواضعة بوجه عام، وكان حجم الخير والشر في صدورهم وأنفسهم، ومن بعدها في تصرفاتهم وعلاقاتهم مع بعضهم، موجوداً، في المكان والمسمى المناسب له.. لكن الخير والشر كانا يعبّران عن نفسيهما وتأثيرهما طبقاً لوسائلهما وقدراتهما آنذاك، لذلك كان الشر متواضعاً أيضاً بالقياس بما هو عليه الآن، إلا أن قدرة الخير كانت أكبر، لأن حجم وعمق تأثير عدد من يحملونه كانا أكبر.. ورغم أن قدرة إقناع من يقتنع به من بني البشر، كانت متصلة بمستوى حصانة وعي وإيمان هذا أو ذاك من الناس، وقد كان الناس أميين إلا قليلا منهم، فإن جرائم وتأثير من يقنعهم بالشر، بعد أن يغويهم الشيطان، كانت محدودة أيضاً بالقياس بما عليه الأمر الآن.. لكنها كانت موجودة، وكان الشر وأهله، إلى جانب الخير وأهله، موجودين في ذلك الزمان أيضاً ..وكان الله، ربّ العالمين، فوقهما، يرصد كل فعل ويسجله له أو عليه، وعلى هذا، يسجل لكل وفق استحقاقه، ويسجل فعل الشيطان أيضاً.

كان إبراهيم يحكي جانباً من هذا لأيتام أولاده الثلاثة، الذين قتل آباؤهم في غزوات ومنازعات قبلية، وما أكثرها في ذلك الزمان في شبه الجزيرة العربية، الممتدة بين الخليج العربي والبحر الأحمر، وتضم العراق ودول الخليج العربي واليمن.

وشاءت الصدف هكذا، أن يخلّف أبناؤه المقتولون الثلاثة، ثلاثة أولاد ذكور، أي ابناً واحداً لكل منهم، وهم: حسقيل ويوسف ومحمود، وقد نشأ الأولاد الثلاثة في كنف جدهم إبراهيم، وكان الجميع ينادونه (أبتي)، وينادون جدتهم حليمة زوجة إبراهيم (أمي)، أو (أمنا).. ذلك لأن أمهاتهم عدن إلى أهلهن بعد وفاة أزواجهن.

وعندما انتهى من حديثه، كانت إلى جانبه زوجته حليمة، التي تكنى أم الخير، تغزل بمغزلها خيوطاً من الصوف لتعمل لمن اهترأ ثوبه ثوباً جديداً.. وكان البيت الذي يسكنون (يكنّون) فيه بيتاً من الشعر..

عندما كان إبراهيم يحكي، جاءت» سخلة» صغيرة من غنمهم، وحاولت أن تلحس فروة إبراهيم، ومن غير أن يقطع كلامه، كان إبراهيم يشاغلها بيده، ليصدها عن الفروة، بأن يمسح على وجهها، أو يناولها اصبعا من أصابعه، ترضعه (متلهيّة)، مثلما (يتلهّى) الصغار الآن برضاعاتهم الاصطناعية، وعندما يسأله صغيرهم محمود:

ــ هل في اصبعك حليب، يا أبتي؟

يقول:

ــ لا، الحليب في ضرع أمها، يا بني، لكنها تتلهّى مثلما تتلهّى أنت عندما تركب على حبل مقدم البيت ..فحذار من أن تنكسر رقبتك، إذا هويت إلى الأرض، لكن الفرق بينك وبين السخلة في هذا، أن السخلة تلعب بأصبعي، وهو أمين، لا يؤذيها، بينما إذا ركبت الحبل، قد تقع منه، بعد أن يختل توازنك، وعندها قد تكسر يدك أو رجلك، وربما رقبتك، وبخاصة إذا أراد حسقيل أن يتخابث معك ويهز الحبل..

كان محمود، عندما يسمع قول أبيه (وربما تكسر رقبتك)، يتحسس رقبته، وبالكاد يبلع ريقه، ويضحك أخواه، في الوقت الذي تتبسم أم الخير، حليمة، التي نسب إليها هذا الوصف والكنية، بسبب تقدير إبراهيم والناس لها.

استأذن أوسطهم وهو يوسف، والده وقال:

*أنا أيضاً، يا والدي، ألاعب الحبال أحياناً، أو ألعب عليها، ولم يحصل أن وقعت منها.!

ــ قد تقع يوماً، يا ولدي، مهما كانت مهارتك في اللعب عليها.. أبعدكم الله، يا أولادي، عن شر اللعب على الحبال ومسلكها.. ان الابتعاد عنها خير من الاقتراب منها واللعب عليها، إذ ان كثيراً من الناس ممن امتهنوا اللعب على

الحبال، بدلاً من اتخاذ مسلك آخر أكثر ثباتاً في الحركة، يجدون في نهاية المطاف ما يجعل توازنهم يختل ويقعون منها، وقد تودي بحياتهم.

قال محمود:

*وماذا لو لاعبت شجرة متنقلا بين أغصانها؟! أجابه إبراهيم:

ــ مع الانتباه إلى طريقة التصرف والمغامرة مع الشجرة، فإن التسلي مع الشجرة افضل، لأن عروق الشجرة في الأرض والشجرة عميقة الجذور، لذلك فإن صلتها بالأرض عميقة وراسخة، ومن تكون صلته بالأرض عميقة وراسخة يكون أكثر ثباتاً وأكثر حنواً، ولا يخون صاحبه، لذلك فإن الشجرة لا تخونك لو لاعبتها، أما الحبل فإنه في الهواء، وصلته بالأرض من خلال أوتاد فحسب، وليس من خلال ذاته.. لذلك لا يكون استقراره كاستقرار الشجرة، ولا يكون الأمان معه نهائياً.. وبخاصة لو اقتلعت أوتاده، وأنت تلاعبه أو تلعب عليه.

سأل حسقيل أباه:

*هل الربّ الذي تحدثنا عنه موجود قبل أن يخلق الإنسان؟ وهل هو في السماء، يا والدي؟

ــ نعم، يا بني، ان الله، سبحانه، موجود قبل أن يخلق الإنسان، وقبل أن يخلق كل ما هو حولكم مما ترونه أو تلمسونه، بل ان الله، جلّت قدرته، هو خالق كل شيء، وخالقنا، وهو محيط وموجود حيث شاء.

انبرى يوسف متسائلا:

*وهل خلق الله «السخلة» أيضاً؟

ــ نعم، يا ولدي، خلق الله السخلة أيضاً، هي وأمها وأباها، وخلق الحيوانات والأشجار والأنهار.

هكذا أجاب إبراهيم ابنه الأوسط يوسف.

كانت أعمار الثلاثة متقاربة، بفارق عام ونصف العام، أو ما يزيد أو يقل عن ذلك قليلا، بين كل واحد وآخر.. وكان عمر أكبرهم اثنتي عشرة سنة، ويأتي بعده أخواه متسلسلين وفق هذا التقدير.

عاد حسقيل ليسأل:

*ولماذا لم يخلق الله إنسانا، بدلا من السخلة، يا والدي، مثلما تفعل أنت وأمي، حيث أراكما تتعاونان معاً لتغزلا أو تحوكا ثوباً عندما يهترئ ثوب أحدنا، لكن عندما تهترئ بردعة الحمار ينشغل في تسويتها واحد منكما فحسب، غالبا ما يكون أنت لأن برذعة الحمار أقل أهمية من ثوب إنسان، أليس الإنسان أهم من السخلة، يا والدي؟ فلماذا ينشغل الله عن خلق إنسان بخلق سخلة؟! يجيبه إبراهيم:

ــ ان قدرة الله، يا ولدي، تحيط وتسع كل شيء، وأنها ليست كقدرة الإنسان، بحيث يضطر لأن يحسب لكل شيء يخلقه زمنا وزخماً قدرة بعينه، لذلك فإنه، سبحانه، في الوقت الذي يخلق إنساناً يستطيع أن يخلق إنسانا آخر أو جملا أو سخلة أو أيا من الكائنات الحية والنبات والأشجار.. ان الله قادر، يا ولدي، أن يقول لكل شيء، وأي شيء: كن، فيكون .أما نحن بني البشر، فلأن قدرتنا محدودة، فإننا نضطر، إذا ما انشغلنا بأمر أو شيء ما، أن نؤجل الآخر إلى وقت يليه، أو ان يقوم غيرنا بما لا نستطيع أن نقوم به، عدا عن أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش من غير أن يخلق الله له المخلوقات الأخرى من حيوان ونبات، بعد أن خلق الأرض والماء والهواء، بل ان واحدة من آيات الله أن خلق الإنسان في أحسن تقويم وسط المخلوقات الأخرى، وجعله أرقى منها، ليعرف دوره في الحياة الدنيا، بعد ان يشكر الله لتمييزه عليها.

وعندما يتدخل صغيرهم (محمود) سائلا:

*عندما تكبر السخلة، نشرب من ضرعها الحليب، أليس كذلك، يا والدي؟

يقول إبراهيم:

ــ نعم يا ولدي، أحسنت.

كان الجميع يتلقون، مع تلقي إبراهيم هذه الأسئلة، ريح كانون التي تخترق بيت الشعر محدثة صفيراً.. سمعوا معه رعدا يتخلله برق، يجعل الغنم تجفل مرئية، في مدخل بيت الشعر، حيث تكون جلستهم قبالته عادة.

يقول إبراهيم:

ــ اللهم اجعلها سنة خير، واحمنا من الصواعب ..وعاديات الدهر..

ويردد الجميع:

ــ آمين.

في الوقت الذي كان إبراهيم يرد على أسئلة أحفاده، كانت أم الخير، منشغلة بالغزل، وعندما كانت تصغي إلى سؤال أحدهم كانت تتبسم، وتتوقف يداها عن الغزل، أو ما يتعلق به، مؤقتا، ثم تعود لتواصل عملها، ولا تنقطع عنه، إلا عندما يطلب إبراهيم أو صغيرهم ماء، فتأتيهم به في كأس (كوز) فخار من صنع العراق، ذلك لأن أحداً آنذاك لم يكن يعرف أفضل منه كيف يصنع أدوات الطبخ والأدوات الأخرى التي يحتاجها الإنسان، أو تأتيهم بالماء في (كوز) مصنوع من القش ومطلي بالقار، وهو الآخر يصنع في العراق، إما من سعف النخيل، أو ذؤابات القصب أو البردي، ويطلى بالقار.. حيث لا قار آنذاك إلا في العراق فحسب، لذلك نجد أرضية شارع الموكب في مدينة بابل الأثرية مطلية بالقار أيضاً.. ومن الأمور التي ينبغي أن تعرف أن القار استخدم، في هذا الشارع في العصر البابلي القديم، في عام ١٩٠٠ قبل الميلاد، ومع ذلك فهو أكثر جودة من القار المستخرج بالوسائل الحديثة الآن، شأنه شأن السيراميك الذي استخدمه العراقيون في العصر الآشوري الوسيط، في حوالي عام ١٤٠٠ قبل الميلاد، والأصباغ في بابل، أو في شمال العراق، آنذاك، فإنها لم تفقد لونها رغم مضي ستة آلاف سنة على بعضها.

كان إبراهيم وزوجته يضعان الماء في قربة يعلقانها في زاوية بيت الشعر لئلا تدهمه عنزة، أو نعجة، أو كلب عندما يحسّ بالعطش، أو لمجرد العبث بها.. وكان إبراهيم يتدثر بفروته المصنوعة من جلود الغنم، ويجيب على الأسئلة، وكلما خبت النار التي كانوا يتحلقون حولها، اقترب منها الأولاد أكثر، حتى تكاد تلامس أجسادهم، وكلما أوشكت النار على أن تخبو بسبب تحول الحطب في الموقد إلى رماد بعد اشتعاله، لأَمَ إبراهيم ما تبقى من أطراف الحطب الخارجية، ووضعها في النار لتعاود الاشتعال من جديد، وكان إبراهيم قبل أن ينتهي الحطب يأمر ابنه الأكبر حسقيل بأن يأتي بكمية حطب جديدة من الزاوية البعيدة للبيت، حيث يوضع لكي لا يكون رطباً بفعل المطر أو الندى.

في هذا البيت، كان كل شيء يحتاجونه، من الرحى الحجرية اليدوية، التي يستخدمونها للطحين والجرش، إلى قربة الماء، وقربة اللبن (الشكوة (والدلو وحبله، الذي من غيره يتعذر إرواء الغنم وإرواء أنفسهم أيضاً من بئر احتفروها قرب بيتهم، وبساطين أو أكثر حاكتهما حليمة هي ومن عاونها من صوف الغنم.. وكلما تقدم الليل وخفتت النار، كان صغيرهم محمود يقترب من النار فاتحاً رجليه حتى تبان عورته، التي لم يكن يداريها بثوبه، لذلك كانت آثار اقترابه من النار تبدو كأنها دمغات أو (جزر) على جلده في بطن فخذيه، بل كان الأولاد الثلاثة يفعلون هذا، لكن محمود لصغر سنه كان أكثرهم مبالغة في فتح ساقيه والاقتراب من النار.. وعبثاً كان (أخواه) الأكبر أو الأوسط يحاولان

تنبيهه لكي يلم ساقيه، ويداري عورته بثوبه، وكلما ازداد البرد قبل النوم، ازداد اقتراب محمود من النار أكثر فأكثر.. لكن أمه كانت تنهرهما، قائلة:

ــ اتركا الصغير ولا تضايقاه، فقد كنتما تفعلان ذلك عندما كنتما بعمره ..سوف يكبر ويتعلم.

يضحك الأب والابنان الأكبر والأوسط.

في أحد الأيام، فعل أخوهم الصغير الشيء نفسه، فيما كانوا يتحلقون حول النار، لكن حسقيل قرّب جمرة بعصا صغيرة رويداً رويداً، حتى كادت تلامس قلفته، أو لامستها فعلاً، وصرخ الصغير، وهبّ واقفا، واندفع باتجاه أخيه حسقيل ضاربا إياه على صدره بيده، في الوقت الذي كان يجر شعر رأسه باليد الأخرى.. فعل الصغير هذا إزاء حسقيل وسط لوم وتعنيف الجميع: إبراهيم وحليمة، ويوسف.

وما أن مرت أيام حتى اعتلّ حسقيل بـ (وذمة) في لسانه، ورغم أن حليمة وإبراهيم حاولا ما وسعهما لإشفائه، لكن لسانه لم يشف، إلا بعد أكثر من شهرين.. ومع أنه شفي من (الوذمة) فإن احتباساً بلسانه كان واضحاً، مما جعله يلثغ في الكثير من حروف اللغة العربية، وكانت لثغته واضحة بحرف (الراء) على وجه التحديد.

قال له جده (والده) إبراهيم:

ــ آلمني تصرفك مع أخيك محمود قبل شهرين، عندما أصبت قلفته بالأذى، ولم يشف إلا بعد أن ختناه (طهرناه).. ولشدة ألمي دعوت عليك بالأذى، ولأن دعوة الأب مستجابة، فقد استجاب الله ربي، يا ولدي، لدعوتي عليك، وآمل وأدعو الله، سبحانه، أن يهديك بما يبعدك عن نزعات الشر، وما يمكن أن يصيب الناس منك من أذى.. حيث غالبا ما تتجه هذا الاتجاه خلاف أخويك، يوسف ومحمود، وكثيرا ما يكون أذاك منصباً عليهما، عدا ما يصيب الآخرين غيرهما.. وآمل أن تكف عن الطمع، حيث أراك تطمع في ما في حوزة أخويك، ومن يجاورنا.. إن الطمع يفسد الإنسان، ويجعل الناس يكرهون صاحبه، يا حسقيل، ثم انني أعرف أنك لا تعطي أحداً مما هو في حوزتك، حتى لو كان أمك حليمة، ولا تساعد أحداً، بل انك حتى (لا تبول على جرح أحد لو طلب منك ذلك)، كما يقول المثل عندنا.. قال إبراهيم هذا المثل، ذلك لأن البول غالباً ما كان وسيلة تعقيم الجرح البسيط، إذا لم يتيسر الرماد في المكان.. وقد اتخذ من البول مثلا على البخل والبخيل بأن يقال عنه (إنه لا يبول على جرح) لو احتاجه المجروح.

عاد إبراهيم ليقول:

ــ إن الصفات التي تحملها، يا ولدي حسقيل، صفات غير حميدة، وأن الله، ربّنا، لا يحبها، وإذا استمر سلوكك هذا، أخشى أن لا يوفقك الله، وتعيش منبوذاً بين أخويك والناس، ومن يخسر رضا الله والناس، لن يعيش مرتاحاً، حتى لو ملك كل ما يملكه الآخرون.. أترى، يا ولدي، أنك لو ملكت كل ما تطاله يدك في الوقت الذي لا يملك الآخرون شيئاً، هل تتصور إمكانية أن تعيش مرتاحاً وسعيداً؟، إنك حتى لو كابرت، وقلت: نعم سأعيش سعيداً، فلن تعيش آمناً، وسوف تبقى تلوح بعصاك على كل من يطمع بمالك، ذلك لأنك، وفقا لهذا الافتراض، قد حزته بسبب طمعك، وحتى عندما تقدر عصاك على واحد أو اثنين، فإنها ستعجز عن ذلك، كلما ازداد عدد الطامعين بزيادة ما تملك، وحرمان الآخرين من الملكية، أو كلما وجدوا أن من واجبهم أن يتضامنوا ويتحصنوا تجاه أطماعك فيهم وفي ما يملكون.. بل انك حتى لو استحوذت على ملكية الآخرين كلها، ستعيش معذباً في داخلك، وإذا لم يتعذب في داخله مَن يستحوذ على كل شيء، ويطمع في كل شيء، سوف يقعد له الناس المتضررون كل مقعد، ولن يجد حماية الله قريبة إليه.. وفي كل

الأحوال لن يعيش سعيداً محبوباً من أقرانه ومن الناس.. فاحفظ وصيتي، يا ولدي، لأن العمر يتقدم بي، وأخشى أن أموت، ولا تبدل طباعك فتندم.

مرت الأيام، ولم يكن المطر في ذلك العام غزيراً في منطقتهم.. حيث كانوا على مبعدة من الحافة الغربية لنهر الفرات في وسط العراق، أو الحافة الشمالية من جنوبه.. لكن بعض البدو الذين كانوا يمرون بهم في ترحالهم، ذكروا لهم أن بلاد الشام (أصابها) مطر غزير في مناطق الجزيرة المحاذية للعراق. ولأن إبراهيم كان يملك أغناماً وإبلاً كثيرة، قرر بعد أن تشاور مع أم الخير، أن يرتحل إلى هناك، بإبله وأغنامه، اضافة الى عائلته، ولأن مشي من يرتحل عادة ما يجري على قياس أقل الحيوانات قدرة على المشي، فقد تطلب وصولهم إلى هناك زمناً طويلاً.. وكلما ارتحلوا بين مثابتين باتجاه أرض الشام، حسبوا حساب الماء، بالإضافة إلى ما تأكله حيواناتهم، لتكون في وضع يمكنها من مواصلة المسير وكانت واحدة من مثاباتهم منخفض الثرثار شمال غربي تكريت وشمال الأنبار.. وعندما ارتحلوا من هناك كانت رحلتهم ليلا.

هنا قال ابراهيم موجها الكلام إلى حليمة، أم الخير:

ــ لو صادف أن سبقتكم إلى المثابة التي نحن بصدد الوصول إليها، ضعي نجم الجدي، كأنه فوق كتفك الشمال، وامشي، إذ انك لو واصلت هذا الحال، ستصلين حتماً إلى ارض الشام، ولو كان مقصدنا البو كمال في سورية، وواصلنا المشي كذلك، فسوف نصل إلى هناك من غير دليل.

وكان إبراهيم يعرف هذه الأرض جيداً، حيث سبق أن تنقل فيها على مدى عمره مقيماً ومرتحلاً.. وكلما نزلوا قرب عين ماء، أو بئر، كانوا في الغالب، يجدون من سبقهم إلى هناك، سواء من أهل المنطقة التي فيها البئر، التي يحطون قربها ليرتووا منها هم وأنعامهم، أو مناطق أبعد، وهم في طريقهم إلى ارض الشام أيضاً.

ولأن إبراهيم غالباً ما كان يعرف ممن يسبقه إلى حيث ينزل، وبالذات من سكان المكان المستقرين نسبياً فيه، فقد كان وجوه القوم يدعونه هو وأبناءه لعشاء ذلك اليوم، وينحرون له الذبائح، ويدعون على شرف إبراهيم من يدعونه ممن هم حولهم، بل إن الناس آنذاك، وبعضهم في الصحاري حتى الآن، لم يكونوا ينتظرون أن يأتيهم من يدعوهم لوليمة، وإنما يلتقون غالباً عند كبيرهم (مقدمهم) بين وجوههم لشرب القهوة أو السمر، وفي كل الأحوال، يحضرون عندما يستشعرون وجود ضيف غريب، ليحظوا بقطعة لحم مع ثريد وادام، أو ثريد وادام فحسب، إذا تعذر الحصول على قطعة لحم، أو إذا كان عدد الآكلين أكثر من قطع اللحم.

عندما أنجز طبخ الطعام، قدم المضيف الطعام لإبراهيم، وتقدم إلى الطعام من كان حاضراً معه.. وبينما كانوا يتناولون الطعام، لاحظ إبراهيم أن حسقيل، خلاف أخويه، تناول مع قطعة اللحم الموجودة أمامه، قطعة لحم من جاوره على المائدة، فتبعتها يد صاحبها، ولكن حسقيل أمسك بها وأخذها من يده ووضعها في فمه بصورة أخجلت إبراهيم وأخويه، بل أحزنتهم أمام مضيفهم ومن حضر المائدة معهم، ورغم أن المضيف وإبراهيم، والمدعوين، ضحكوا عندما علق صاحب قطعة اللحم على ذلك بقوله: حقك عليّ، يا ولدي، يبدو أن طريقكم طويل، وأن البطن كافرة عندما تجوع.. فقد تمنى إبراهيم أن تنشق الأرض وتبتلعه في تلك اللحظة، على أن يكون أمام ذلك المنظر المخزي، بل حتى يوسف خجل من تصرف حسقيل، رغم فارق العمر بينهما.. ومن يومها لم يعد إبراهيم يحضر حسقيل معه في وليمة يدعى لها، وصار يحضر معه يوسف ومحمود فقط.

كان الطقس والهواء والمرعى في الشام من الجودة بحيث أغرى ابراهيم على البقاء هناك، فاستقر في بلاد الشام الى حين، مرتحلا ومتنقلا من مكان الى آخر. وسمنت وتكاثرت اغنامه وإبله، وأتيح امامه ان يعيش في حال مميز قياسا بأقرانه، وكان الخبز والتين المجفف والزبيب وزيت الزيتون، والزيتون المنقوع بالزيت، أهم مؤونة البيت، وكانت حليمة سعيدة، بما أسعد زوجها ابراهيم، ولكنها بقيت هي والأولاد في شوق الى ديارهم القديمة، حيث يشتون في الشامية، على أرض الجزيرة غرب الفرات من جهة الفرات الأوسط، ويصيِّفُون على الكتف الأيمن لنهر الفرات.

كبر الأولاد حتى صار حسقيل في حوالي العشرين عاما من عمره، يتدرج بعده في العمر يوسف ومحمود، كل على اساس عمر معلوم بفارق اقل من سنتين بين واحد وآخر.. وكلما كبروا ازدادت مشاكل حسقيل، وازداد طمعه وعدوانيته على الآخرين، وطمعه في مالهم، وازداد اخواه، ابنا عميه، يوسف ومحمود ثقلا، وعقلا، وتسامحا، وشهامة، وكرما. وفي الوقت الذي كان يوسف ومحمود يحظيان باحترام وتقدير من يعرفهما ويخالطهما، كان الناس يبتعدون عن حسقيل، ويزدادون نفورا منه، بل صار من يقترب منه ويصيبه أذاه يمقته ويكرهه، ورغم ان ابراهيم صار محط انظار اهل الشام ممن عرفوه والتقوه، وصار من يسعى ليتزود بالحكمة ينهل من دروسه باختلاطه به أو استشارته، فقد حاول ابراهيم عبثا ان يصلح حسقيل ابن ابنه.. لكنه كان، في كل يوم يمر، ينتظر شكوى من احدهم ضد حسقيل، وحتى عندما كانوا يلعبون على ظهور الخيل في مناسبة ما، كان الشباب يختارون يوسف ومحمود، رغم انهما اصغر عمرا، ويتجنبون حسقيل، وعندما كان حسقيل يلتمس مطاردة احدهم على ظهر فرسه، أو حصانه، كان من يلتمسه يعتذر له بشتى الاعذار، لكنه من جهة أخرى يذهب الى يوسف أو محمود يرجو منه مطاردته.. وعندما يحصل ان يخطئ أحدهم التقدير، ويقبل بمطاردة حسقيل، فغالبا ما تنتهي علاقته مع من يلاعبه على ظهور الخيل الى شجار يسيل فيه دمه أو دم صاحبه، واذا سال دم حسقيل، من غير ان يموت طبعا، عفا ابراهيم عمن يفعل ذلك، لأنه يعرف الخواص السيئة لحسقيل، وإن سال دم آخر، دفع ابراهيم دية عن تصرف حسقيل، وفق ما كانت تقتضي الاعراف، خاصة ان ابراهيم كان يعيش اساسا خارج مسقط رأسه، حيث أهله واعمامه. وكان حسقيل يعمد الى ان يحمل معه حبلا بطرفه انشوطة بصورة سرية، فإذا طارده أحدهم، رمى بالحبل على رقبة فرس ذاك الخيال، ثم يسحبه لتنعقد الانشوطة عليها، فتقع الفرس والخيال على الارض، أو ان يضرب فرس نظيره بعصا أو ان يضرب قرينه خلاف العادة بعصا غليظة حتى يدميه.. الخ. وادرك ابراهيم ان حسقيل، اذا بقي في بيته، سيشكل عداوات مع الناس كلهم، قد تنعكس عليه سلبا، رغم كل تقدير الناس له، ولكنه كان في حيرة من أمره.. كان يتداول مع زوجته حليمة في أمر حسقيل، ورغم ان حليمة تعرف طباع حسقيل السيئة، فقد كانت تُصبَّر ابراهيم بالقول:

ــ قد تذهب منه طباعه السيئة عندما يكبر.

وعندما يذكرها ابراهيم بأن عمره صار عشرين عاما، وانه أكبر من ابراهيم عندما تزوجها.. تقول، بعد ان ترجوه ليصبر عليه:

ــ ربما يصير أفضل عندما يتزوج.

وتعود لتقول مع نفسها بصوت مسموع، بعد ان يسكت ابراهيم على مضض:

ــ ترى من يقبل به؟ ومن يزوجه ابنته، بعد ان شاع صيته بالسوء؟

وبعد سكوت وتأمل طويلين، يتجه ابراهيم الى ربه بالدعاء:

ــ اللهم اشفه من حال السوء، وخلصني من عبء ما يفعل، انك خير من يعلم السرائر، وتعرف الخير من السيئ، وأنك القدير العزيز.

في إحدى الليالي الربيعية، وبعد ان تناولوا طعام العشاء، سأل حسقيل أباه) جده) إبراهيم:

*هل الثروة الآن أكبر لدى الدول والناس، أم قبل الآن، يا والدي؟

ــ إنها الآن أكبر.. لأن عدد الناس الآن صار أكثر مما كانوا عليه قبل مائة عام مثلا، ولأنهم الآن أكثر فإن حجم عملهم أكبر، ولأن العمل اساس الثروة، فإن الثروة الآن أكبر ايضا.

*لماذا لا تقول ان الذهب أكثر الآن باعتباره المقياس الثابت لقيمة الثروة منذ زمن بعيد، فازداد بالتراكم؟

ــ بل اقول ان العمل الآن أكبر.. ذلك لأن العمل، كما ونوعا، أهم من الذهب..

*كيف؟

*لو كان لديك أوقية من الذهب.. وذهبت الى السوق، ولم تجد رغيف خبز، وانت جائع، وكذا عيالك، وتكرر الحال عدة ايام.. الا يعني ذلك انك ستموت، انت وعيالك، ويبقى الذهب لمن يرثه!؟

ــ نعم ..صحيح.

ــ اذن الثروة هي العمل.. وكلما ازدادت ساعات عمل شخص على آخر، وازداد علمه أو مهارته على قرينه، ازدادت الثروة في فعله بالقياس بما عليه قرينه..

ــ اذا كانت الثروة عملا فقط.. لماذا يطمع من يطمع بثروة الآخرين!؟

ثم اردف حسقيل:

*ألم تقل لي، يا أبتي، انني اطمع في ما يملكه الآخرون؟.. فهل اطمع في عملهم.. أم في مالهم؟ ولكنه اجاب بنفسه:

ــ انني اطمع في مالهم، وليس في عملهم.. اطمع في اغنامهم، وفي محصولهم الزراعي، وفي الخيول والجمال والبقر الذي يملكون.

ــ انا لم أقل ان الثروة عمل فقط.. وانما قلت ان الثروة عمل، جوابا على ما قلته وتصورته حكما قاطعا من ان الثروة ذهب فحسب.. انك لا تطمع في ملكية الآخرين فحسب، يا حسقيل، وانما في عملهم ايضا، عندما لا تدفع لهم ثمن عملهم، أو تدفعه منقوصا، أما لو أردنا الاسترسال، وان نولد من كل عنصر من العناصر الاساسية في تكوين الناس والتأثير بها، لما توقفنا عند العمل كمصدر وحيد للثروة، ولكنه المصدر الاساس فيها وفي تعريفها ..ولو نقلنا ثقل الناس والدول في الميزان، من صلتهم بالثروة تحديدا، الى صلتهم بالقيمة، فعندها نكون امام عنوان اشمل، يحوي ما هو مادي وما هو معنوي، وعند ذلك تدخل جغرافية الدول ضمن قيمتها وتاريخها، وما هو في باطن ارضها أو عليها.. وما تركته فيها ولها الاجيال السابقة، ومستوى استعداد شعبها للصبر في الملمات والمحن، ومستوى اعداد واستعداد الناس فيها، بوجه عام، يتقدمهم الرجال، للتضحية الخ.. ولكن اساس الثروة عمل في كل الاحوال.. وهي الآن أكبر، سواء على اساس ما تحوزه الدول أو يحوزه الافراد.. والعمل ايضا مقياس مهم لمستوى صلة الانسان المؤمن بالحياة، وبرب السماوات والارض، لأن الله سبحانه خلق الحياة للانسان، وخلقه ليعمل فيها.. لذلك فإن من يعبد الله، ولا يعمل كما ينبغي او يجب، لا بد ان يكون خلل ما في عبادته، ولا نعرف الى اي حد يقبلها الله أو ينقصها.. خاصة اذا قارنا المؤمن بناقص الايمان ..فكلما قلت قيمة عمله.. أي قل عمله زمنا وقيمة.. عن الحال المقارن به مما ذكرنا، كان معنى ذلك ان ناقص الايمان اكثر فائدة للحياة من المؤمن ان لم يخربها.. ولأن المؤمن لا يقبل ان يكون اقل قيمة

من ناقص الايمان، فعليه ان يتفوق على هذا الاخير، ليس في الاخلاق العامة، وتواصله مع رب السماوات والارض فحسب، وانما في العمل ايضا.. وان الاشارات التي اراد بها الله سبحانه ان يعمل الناس، وان يتقن كل عمله، كثيرة، بل لعل صلاة الفجر، وهي الصلاة المبكرة في يومها.. تعني ان الله اراد للمؤمن ان يكون يقظا عند كل فجر، ولأن صلاة الفجر اقصر صلاة، فمعنى ذلك انه، سبحانه، اراد يقظة الانسان للعمل اساسا، وجعل صلاة الفجر في هذا التوقيت سببا ودافعا ليكون المؤمن مستيقظا.

*ولكن. ألا يأكل الناس، ويلبسون افضل، مع ان عددهم الآن أكبر؟ فما الذي ازداد؟ هل ازداد الذهب أم العمل..؟

ــ ان وصف الافضل وصف نسبي.. فعندما نقول ان فلانا يأكل ويلبس الآن أفضل من جده.. فإن قياس الافضل ينبغي ان لا يقاس لفلان مع جده، وإنما مع الناس في مرحلته.. وهكذا كان حال جده يقاس من قبل.. وعلى هذا، فإن كثيرا من الناس يعيشون الآن من دون حد الفقر على مستوى العالم ككل، ومن هذه النسبة أناس من الدول التي تعتبر، أو يعتبرها أهلها أو المسؤولون فيها، من أكثر الدول ثروة.. مثلما كان أناس يعيشون في السابق، على قياس معيار الفقر والغنى آنذاك، من دون حد الفقر.. ومع ذلك اقول جوابا على تساؤلك: نعم، إن الثروة، ومنها الذهب في الدول وفي حوزة الناس، أكبر الآن مما كانت في الماضي، وإن العمل الآن أكبر حجما وأرقى نوعا.

*ولكن، كيف اصبح الذهب أكبر حجما الآن؟

ــ انه اكبر حجما، لأن عدد العاملين على استخراجه صار أكبر بالقياس النسبي.. وان وسائل استخراجه الآن افضل طبقا لقياسات التطور، فكلما تحسنت وسائل استخراجه، وصارت فعالة بصورة افضل، ازداد حجم المستخرج منه. يضاف الى ذلك ان عامل التراكم بسبب الزمن الطويل جعل حجمه أكبر، ولعل المرأة قد لعبت دورا اساسيا في تراكمه لدى الافراد والعوائل، ولولاها لكنّا أمام حجم أقل بكثير ممَّا عليه الذهب الآن لدى العوائل لأن الرجال لا يكنزون أو يستخدمون الذهب، في الغالب.

*الا يعني هذا، يا والدي، ان اثم المرأة أكبر من اثم الرجل، وفق مفهوم ديانتك، لأنها تكتنز الذهب، ولا يكتنزه الرجل؟

ــ احسنت يا ولدي.. نعم ان من يكتنزه ولا يزكيه يقع عليه اثم كبير. عاد حسقيل ليقول:

*ولكن ما أدرانا، قد تكون حصة الفرد من الذهب الآن اقل، لو وزعنا الموجود منه بالتساوي على الكل، ذلك لأن عدد الناس الآن أكبر، بينما كان عددهم في الزمن القديم اقل ..وكان الذهب ظاهرا في أماكنه ايضا، وفي مجاري الانهار، أو حيثما كان هنالك مسيل لماء المطر في ارضه في قديم الزمان مما يسهل تصفيته وجمعه..

أجاب ابراهيم على تساؤل حسقيل:

ــ لا استطيع ان اقول لك شيئا قاطعا في هذا، لأنني لا أمتلك أرقاما.. ولا اريد هنا ان اعتمد على الاستنتاج في الاجابة.

(2)

كان إبراهيم وأولاده) أحفاده) يتحدثون عن الماضي البعيد، ورغم ان هناك الكثير من الثوابت، أو ما يشبه الثوابت في الحياة، مما لا يجعل وزنها وتأثيرها يتغيران تغيرا جوهريا بصورة لافتة للنظر، الا ان الاشياء تبقى غير الثوابت أو شبه الثوابت في المعاني والاعتبارات مما يحكم سلوك الانسان ومعتقداته فتكون له أو عليه، ومع ذلك بإمكاننا ان نقول ان مظهر الناس، لو استحضرنا صورة الماضي، وبساطة وسائل الناس فيه، ينبئنا بأن الثروة كانت أقل آنذاك.. وكذا الذهب، وان دور الذهب في الثروة كان حاسما ومرجحا لقيمتها المادية أكثر مما هو الآن.. ذلك لأن عناصر الثروة الأخرى من غير الذهب.. مما يكون قيمة ما توزن عليه الثروة آنذاك، غير ما هي عليه الآن..

إذن المثل الذي قاله ابراهيم لابنائه، ومنهم حسقيل، في موضوع أوقية الذهب ورغيف الخبز حاسم في الاجابة عن تساؤلات من يتساءل عن دور الذهب وعلاقته بالثروة.. بل وكثير من عناصر الثروة الأخرى، وما يوزن عليه ثقلها وقيمتها.. فما قيمة أي ثروة، حتى لو كانت أكواما وأكواما من الذهب، اذا لم تدم الحياة؟ وما قيمة الثروة. سواء بقياسات الزمن القديم الذي تحدث عنه ابراهيم، أو حتى بقياسات هذا الزمن، إن لم تعز أهلها، وتكن في خدمة المعاني العالية، وبما يسهل مهمة انتشارها معاكسة للمعاني الواطئة أو المخربة؟ ألا تكون الثروة عبئا، إن لم تكن على اساس هذه القياسات ومعانيها؟ وماذا يعني من يملكها، حتى لو كان ثوبه وعقاله من ذهب، غير منظر قابل أن يمرغه اي من الفقراء بالوحل، عندما يتكل على الله؟ وهل سيكون منظره الا مضحكا؟ ولو مرغ احد الحفاة قدميه في وحل لأي سبب، لن يكون منظره مضحكا بالضرورة، لكن من يلبس الذهب، ويفكر في الذهب، ويعتقد ان اساس وزنه وتأثيره في الحياة هو الذهب فحسب، ينشأ ضعيف التأثير، ضعيف الارادة. ضعيف البنية والصبر والتحمل، لذلك ما ان يمرغه احد في وحل أو يهوى عليه بقبضته أو يواجهه بإرادته حتى يغدو ذلك في حالة مضحكة، وبإمكان من له هواجس عكس ما نقول ان يتمعن بمن هم في وطننا العربي الكبير الآن، ومن هم جزء غير حي في أمتنا ..بل بإمكان أي واحد من الناس ان ينظر الى نماذجها ابتداء من الحي الذي يعيش فيه في مدينة، الى قرية في الريف، أو الريف الذي عاش فيه سابقا، أو حاليا.. ان الله خلق عناصر الثروة للانسان، أو ما يمكن خلقه منها، بعد ذلك بجهد اصحابها لتعز الانسان، لا لتذله، ولتقويه، لا لتضعفه.. وانها لكي تعزه وتقويه يجب ان يكون جمعها حلالا منزها، وأن تكون في خدمة المعاني العالية وما يرضي الله.. لا ان تكون في خدمة الشيطان والانانية والاثرة المقيتتين.. واذا ما جمعت الثروة ووضعت في خدمة هذه المعاني، وكل ما يرضي الله، وأغلبية الناس الخيرين، كانت كأنها جوالة بذاتها، ومحمية بذاتها.. تتحرك من مكان الى مكان، وتظهر أو تحتجب وفق ما يحميها وينميها، ولا تكون عبئا على اصحابها لو جاءت من مصادر مشروعة.. ولا ثقلا وهما عليهم في الليل والنهار، ان قاموا، وان قعدوا، إن ناموا أو استيقظوا ومدخلا ووسيلة ذل وضعف وما يخزي أهلها بدلا من ان يقويهم ويعزهم.. ذلك لأنها تكون مطاردة من الفقراء، بعد ان يشيح الله بوجهه عن أهلها..

عندما كان ابراهيم يتحدث عن الثروة والذهب ودوره ووزنه في الحياة.. يسأله حسقيل:

*هل ان امتلاك الذهب من الرجال واكتنازهم له يجعلهم في نظر الناس كالنساء يا والدي؟

ــ لا، لن يكونوا على هذا الوصف بالضرورة، إلا عندما يتخلون عن دور وصفات جنسهم.. ولكن لماذا تسأل عن

هذا، يا حسقيل؟

ــ أقول لك يا ابتي: والله، ما ان يذكر احدهم الذهب، حتى يطير له فؤادي، بل أكاد لا أهتم بأي نوع من أنواع عناصر الثروة التي ذكرت أو أي شيء آخر.. الا عندما يكون بإمكاني ان أحولها الى ذهب.. وقد تولدت هذه الافكار لديّ، وتكون بنائي عليها منذ ان ذهبت مع والدتي الى سوق مدينة بابل ورأيت الصاغة هناك، ورأيت دكاكينهم مليئة بالذهب، ورأيت النساء الحسان يتعاملن معهم، ورأيتهم يضعون الحلي على جيد هذه أو تلك، لتنظر في المرآة الى نفسها لتقرر شراء ما يعجبها، ولم أر الا قليلا من الرجال يرصعون مقابض سيوفهم بالأحجار الكريمة، أو يغلفون (اقربة) سيوفهم بها.. ولو لم اتحسب لغضبك لذهبت الى هناك.. لأتعلم مهنة الصياغة.. وأريد ان اسألك، يا جدي ــ ولأول مرة قالها حسقيل بعد ان كان يخاطب جده بالقول (يا ابتي) كأنه أراد ان يشعر جده بصورة غير مباشرة بأنه اصبح رجلا وصار من حقه ان يقرر

*الم تقل، يا جدي، ان اساس الثروة وجوهرها عمل؟ وانا اقول ان اساس الثروة وجوهرها ذهب.. ولكي لا اتقاطع مع قولك وفي الوقت نفسه اقترب من معبودي الذهب، قل لي، يا جدي، لماذا لا نضع رمزا تشبيهيا لإلهنا، فنجعله من ذهب، ونعبده؟ وبذلك نكتنز الذهب. ونجمع برمزه قوة الدنيا ومعاني العبادة؟

عندها نهره جده..

ــ أتقول معبودي، يا ولد؟ وتريد ان تنزل الذهب الذي استعبدك بمنزلة الله؟ وان تحول الله العظيم الى صنم، لتحقق بواسطته رغباتك، يا خاسئ؟ وحمل عليه بالعصا ليضربه..

امسك حسقيل بالعصا من يد جده وهو يضحك ويقول له:

ــ صبرك عليّ، يا جدي.. ربما لم احسن القول نظرا لحماستي للذهب وحبي له، ولكن، والله يا جدي، ما ان يذكر الذهب حتى يطير له صوابي، لكن لولا حبي لله لما سخيت على نموذجه بالذهب.. ألا ينبئك سخائي هذا بمستوى ونوع محبتي لله..

قال حسقيل ذلك هو (يتمزمز) كأنه يكبت ضحكة في داخله.. لأنه يعرف أن ما أراده ليس توقير الرمز، وانما اكتناز الذهب فيه.. ثم استدار بجلسته نحو محمود ويوسف قائلا لهما:

ــ لو وافق جدي على هذا، مع معرفتي انه لا يؤمن به. لجمعت ثروة كبيرة بأسرع وقت.. أتعلمان كيف افعل ذلك؟ كنت سأدعو كل أهل بلاد الشام والعراق، مستخدما سمعة جدي ودينه، لأطلب من كل قادر مساهمة في هذا التمثال الرمزي.. وعندها ــ يقول حسقيل ــ سيكون لدينا تمثال كبير من ذهب ــ وكان من يسمعه يقول (تمثال من ذهب) يكاد يسمع صوت بلعومه، ويلاحظ انه يدور لسانه على شفتيه كأنه يتحسس عسلا بطرف لسانه ــ وسأجمع من خلال الطواف به ثروة، في الوقت الذي تكون ملكيته لي، لكنني مستعد لاعطيكما شيئا منه.

ولكن ابني عميه يرفضان، فيقول لهما هازئا:

ــ أبقيا على دينكما، وسأكون على ديني..

ثم يعود حسقيل ليقول موجها الكلام الى جده:

ــ أليس من الافضل ان يعمل الانسان بالذهب، بدلا من مباراة أو رعي اغنام وإبل وأبقار مما نفعل الان أنا وابنا عمي؟ ــ ولأول مرة يقول (انا وابنا عمي) بدلا من (اخوي) التي كان يقولها في السابق، وفق ما أراد جدهم ابراهيم ان يعودهم عليه، وكأنه قرر ايضا ان يفصل نفسه عن البيت وابني عميه بقوله لهما (ابنا عمي) بدلا من أخوي..

نظر ابراهيم اليه، وقال:
تصرف وفق ما ترى، لقد صرت الآن رجلا، وبإمكانك ان تقرر ما يتعلق بمصيرك، لكنني ظننتكم تعيشون اخوة في هذا البيت، وترعون ما تملكون، وتتقون الله بعد ان آمنتم به.. وها هي ثروتكم كبيرة، والأهم في ثروتكم هو سمعتنا بين الناس، وطاعة الناس لدعوتنا الى عبادة الرب الرحيم، الإله الواحد الصمد.. وتبركهم في طاعتنا، بعد الله، واليه يسلمون.
قال حسقيل:
*إذا لم ترغب في ان أفارقكم، يا جدي، فاترك لي أن أقرر نوع العمل الذي أعمله، ونوع الثروة التي أجمعها..
ــ لك ذلك، يا ولدي..
فهم ابراهيم ان حسقيل اراد ان يكون في بيت منفصل، وأراد ايضا ان يفصل ملكية أبيه عن الملكية المشتركة، وهي عبارة عن عدد من الإبل والأبقار والأغنام.. عزلها له جده بمساعدة الرعاة، وفق قانون ايمانه.. ومن يومها صار حسقيل يعيش في نفس المكان الذي كانوا يعيشون فيه، ولكن في بيت شعر منفصل.. وبقي ابنا عميه يوسف ومحمود مع جدهم ابراهيم وجدتهم حليمة..
وفي الوقت الذي كان يوسف ومحمود يباريان الرعاة ويوجهانهم، ويحميان المواشي اذا تعرضت الى غزو، ويكرمان ضيوفهم تحت اشراف وتوجيه جدهما، كان حسقيل يتخذ اتجاهات اخرى لحياته.. فقد باع من فوره كل ما افرزه (جنبه) له جده من أغنام وخيول وابل وابقار، وحولها الى قطع من ذهب من العملات الدارجة آنذاك، وكان العراق حينئذ أول من سن ضرب العملة، بما في ذلك العملة المعدنية باعتباره اقدم حضارة وأقدم دولة.. وبعد ان حوّل ما يملك من ذهب، كان حسقيل يأتي الى بيت جده وهو يحتضن كيس (صرة) الذهب، ويتلمسها وهي في يده كأنه يتبارك بها، بل انه كان حتى في الصلاة يضع (الصرة) أمامه كأنه يصلي لها.. وعندما يزور ابني عميه، كان يعرض عليهما الذهب قطعة قطعة كأنه يستحثهم على ان يسلكوا طريقه.. وكان عندما يعرض قطعة الذهب يشمها. ثم يفركها بأصابعه قبل ان يسلمها الى اي من ابني عميه.. وينبههما ان لا يدعا ايا من قطع الذهب تسقط على الارض وعندما يقولان له باستغراب: وماذا يصيب قطعة الذهب، وهي معدن، لو سقطت على الارض؟.. (يتمزمز) حسقيل ويقول:
ــ لو سقطت على الارض مرات عدة، أو فركت مرات عدة، قد تفقد شيئا من وزنها، ولذلك ترون انني اضعها في كيس قماش رقيق، بدلا من ان اضعها في كيس يحاك من شعر الماعز أو صوف الغنم، ذلك لأن شعر الماعز وصوف الغنم خشنان، ولكنني مع ذلك اخشى ان تفقد القطع من وزنها بسبب احتكاكها مع بعضها.. ولكن لم أجد وسيلة افضل من هذا..
وكان لا يستخرج قطعة ذهب أخرى من (الصرة) أو الكيس، الا بعد ان يعيد القطعة التي في ايديهما للكيس.. ولكنهما كانا باتجاه آخر، في الوقت الذي افترق عنهما ليأخذ طريقه..
كان حسقيل لا يستضيف أحدا في بيته.. متخذا من عدم وجود امرأة معه لتقوم بإعداد الطعام ذريعة ليتجنب الصرف على ضيوفه.. وإذا ما أحرجه أحد ..قاده وذهب معه الى بيت جده لتكون الضيافة هناك.
كان حسقيل ضئيل الجسم، مقوس الانف، دميم الخلقة.. تسترسل لحيته من غير اعاقة، وتلتحم بطرفي شاربيه، لكنها لم تكن كثة، وانما شعرها خفيف ومتفرق، وكان يترك فجوات بعينها في لحيته من دون شعر، وكان يرتدي سروالا على هيئة سكان الجبل، وليس ثوبا، ولا يضع شيئا على رأسه.. وعندما يقول له اخواه: لماذا لا تضع غطاء على رأسك، يا

حسقيل؟ يقول لهما: لا داعي لمزيد من الصرف.. وترك حسقيل رأسه مكشوفا بعد ان انتقل من بيت جده لان الصرف آنذاك كان يجري على نفقة جده ابراهيم.. لكنه عندما استقل في بيت منفرد، استغنى عن غطاء الرأس المعتاد ضمن وسطهم واستبدله بقطعة قماش صغيرة على هيئة (طاسة) (١) صغيرة مفلطحة بالكاد تثبت بصورة غير مستقرة في اعلى سمت رأسه.. وعندما يسأل: لماذا لا تجعلها تغطي كل شعر رأسك من الاعلى؟ يقول: لا داعي للتبذير، هذا يكفي.. وصارت ملابسه الرثة المتسخة من بين اهم مظهر فيها.. وكان لا يملك في بيته الا بساطا واحدا، ووسادة واحدة، وفروة يرتديها في الشتاء ويتغطى بها عند النوم، وكان كلما اكل اكلة دسمة في بيت جده ابراهيم مسح يديه بالفروة بدلا من ان يغسلهما، وعندما يسأل: لماذا لا تغسل يديك؟.. يقول: ان مسح الدسم بجلد الفروة يجعل الجلد طريا وبذلك اطيل عمر الفروة ..اضافة لكوز ماء (مثلوم) من اكثر من مكان، وقربة ماء بالكاد تكفي شربة او شربتين لشخص واحد فقط.. وكان لا يطبخ في بيته او يستأجر من يخبز له.. ذلك لانه كان يأكل في بيت ابراهيم.. وربما كان هذا واحدا من اهم الاسباب التي جعلته يسكن قرب بيت ابراهيم، بالاضافة الى ان منزله قرب بيت ابراهيم يجعله يتمتع بالحماية التي يوفرها من يعيش على خير ابراهيم وما كان يحظى به من احترام وتقدير وهيبة ومحبة بين الناس، مما جعل حسقيل يطمئن على ما يمكله من ذهب، ومع ذلك كان لا ينام الا بعد ان يشد كيس الذهب على بطنه، في الوقت الذي ينتقل معه.. حتى الى بيت جده.. بل إن بيت جده كان المكان الوحيد الذي يذهب اليه بعد ان يترك بيته.

اتجه حسقيل الى الحدادة في بادئ الامر، ذلك لان هذه الحرفة لم تكن من الحرف التي تستهوي العرب، ولذلك لم يكن منهم من ينافسه عليها، ولذلك ايضا بدأ بها، وكان اول عمل بدأ به هو انه صار يحذو الخيل، وكان كلما علم بوجود ميدان بذاته لسباق الخيل قد اتفق عليه مسبقا ليقام عليه سباق او لعبة فرسان سلمية فوق ظهور الخيل في مناسبة بعينها، ذهب بنفسه، او استعان بمن يستكريهم ليجمعوا له حصى صغيرة او يجزئوا الحصى الكبيرة نسبيا الى اجزاء صغيرة، بعضها حاد كشفرة، وذلك بضرب الحصا ببعضه.. وعندما يتجمع له منه ما يقرره، يذهب خلسة الى الميدان، لينثره في التربة هناك، بحيث تؤذي حوافر الخيل عندما تتسابق او يلعب فوقها الفرسان بالمطاردة (بالطراد) الى الحد الذي يضطر اصحابها ليستعينوا به ليحذوها.. ولانه الوحيد في منطقته، فقد كان يفرض اجره (بالعالي) وغالبا ما كان يجعل حذوة الحصان او الفرس غير ثابتة بما يكفي، بحيث يضطر اصحاب الخيول الى الاتيان بخيولهم اليه، ليعيدوا حذوها، او بفواصل زمنية قصيرة، وبذلك يزداد الطلب عليه، ويزداد اسغلاله وتكبر ثروته.

وبعد ان تحسنت اوضاعه اتجه الى صناعة السيوف والخناجر، ثم من بعدها الى صياغة الحلي.. وعندما صار يصنع السيوف والخناجر، كان يعمد الى اثارة فتن بين القبائل، ليضرب قبيلة بقبيلة، فتتجه على هذا الاساس الى شراء وحيازة المزيد من الرماح والقضبان والسهام والنبال والسيوف والخناجر والدروع والتروس.. وبعد ان وسع حسقيل قدراته في الانتاج، صار يشغل بالاجرة اعدادا من الناس، لكنه كان يعلم كلا منهم جانبا من الحرفة، بحيث لا يستطيع اي منهم ان يعمل شيئا كاملا منها من غير ان يستعين بحسقيل.. وبينما كان حسقيل ينظم شبكة من الاجراء لبث الشائعات والفتن، واغراء من يغرونه على قول شعر هجاء بحق هذا او ذاك من وجوه قوم آخرين لتنشب النزاعات والقتال ليستفيد حسقيل، كان كل من محمود ويوسف يتتلمذ على يدي جدهما في تعلم الحكمة، ورسوخ الايمان في نفسيهما وعقليهما، وكانت طاعة جدهما في كل ما يأمرهما ويكلفهما به هي المدخل الاساس وعنوان شخصيتيهما الى الايمان العظيم بالله الواحد الاحد.. وكانا يتعاملان مع جدتهما حليمة بنفس روح التقدير والاحترام والطاعة لجدهما، ولكن على وفق درجتها واستحقاقها.. وكانت محبة الناس لهما تزداد وتتسع.. وكلما جاء من يريد ان يستشير جدهما

في امر ديني، أو شأن حياتي يقتضي حله الحكمة، ويقدر جدهما ان ايا منهما على وجه التحديد قادر على حله، كان يحيل اليه من يتوجه اليه بسؤال او استفسار او يستعين به بنصيحة لحل معضلة، وهكذا كان جدهما، كأنه اراد ان يدربهما على كل شيء يعرفه، ليتوليا حفظ الرسالة وابلاغها الى من يستعين بهما ويتبعهما بعد وفاته، وكان اي منهما كلما وجه، او افتى، او نصح بشيء عاد الى جده ليشرح له اجتهاده فيقره عليه او يصحح له وفق ما يستوجب.

في احدى السنوات، وبعد ان صار حسقيل يصنع الحلي من الذهب والفضة.. كان الوقت وقت ربيع.. ومن عادة اهل البادية في ذلك الزمن، مثلما هم حتى يومنا هذا، رغم ما يحظون به من استقرار في الوطن العربي كله، انهم كانوا يرحلون من مكان الى آخر طلبا للماء والكلأ.. وبخاصة في فصل الربيع.. وحصل ان انتقل ابراهيم، ومعه حليمة وحفيداه محمود ويوسف.. وكان حسقيل يتبعهم وينزل قربهم.. وظلوا يرحلون من مكان الى آخر، حتى حطوا رحالهم في منطقة قبيلة كبيرة، كان شيخها رجلا كريما وحكيما وشجاعا وصاروا منذ ذلك اليوم يرحلون وينزلون معه، ولكنهم لا يحطون رحالهم إلا بعد ان يركز شيخ القبيلة رمحه في مكان بعينه، وكعلامة على مكان ومكانة منزل ابراهيم كان شيخ القبيلة يبني منزله على مسافة قريبة منه.. ليضمن له الحماية وحرية الجهر بافكاره والدعوة الى ما يؤمن به كرسالة التوحيد وعبادة الله الواحد الاحد.

وفي أواخر ايام ربيع احدى السنوات التي قضاها ابراهيم في بلاد الشام متنقلا بين الفرات شرقا وبلاد الشام وبحرها غربا، وباقي اراضي شبه جزيرة العرب جنوبا.. صادف ان رحل ابراهيم مع تلك القبيلة التي تآخى مع شيخها. وبينما راح ابراهيم يستطلع المكان الذي عينه لمنزله شيخ القبيلة، وجد انه ركز رمحه في (قرية نمل).. وهذا يعني بعرف القبائل انه غير مرغوب فيه.. وقد لفت زوبعة أسى ابراهيم، ذلك لانه كان يعرف ان صاحبه شيخ القبيلة لا يطلق الأحكام على عواهنها كما يقول المثل، ولانه لم يفعل هو او زوجته ما يسيء الى شيخ القبيلة، ولا الى اي احد من افرادها ولم يفعل هذا اي من ابنائه بصورة معروفة، بمن فيهم حسقيل، فلا بد ان يكون احد ابنائه (احفاده) قد عملها بصورة سرية.. ومن يكون غير المرأة والعلاقة معها مما يفعله شاب تزل قدمه عن موضعها او يخالط عفته عفن؟

ورغم انه خمن ان يكون حسقيل هو الذي اقترف هذه الفعلة، فقد اراد ان يعرف بصورة غير مباشرة، ولان من عادة كبير العائلة ان يتقدم الضعن قبل وصوله المكان المقرر، فقد عاد ابراهيم أدراجه ليلتقي بعائلته المضعنة، وعندما رأى ابناؤه وزوجته جدتهم ان ابراهيم عاد اليهم بخلاف ما اعتادوا عليه، توقفوا واجتمعوا اليه يسألونه:

ــ خير، يا والدي؟

وقالت حليمة:

ــ خير ان شاء الله يا ابراهيم؟

ولكن حسقيل قال:

ــ ماذا حصل، يا جدي؟

اجاب ابراهيم:

ــ إن شاء الله خير، يا رب.. لقد فكرت في ان نغير اتجاهنا ونعود ادراجنا وفي مكان ما في منتصف الطريق، نقيم ريثما نقرر اتجاهنا الجديد، وقد نعود الى حافة نهر الفرات في وسطه حيث العراق واهلنا هناك، او نتجه الى الحجاز.

حاول حسقيل ان يخالف توجيه جده، لكن الاشارات التي فهمها من محمود ويوسف لم تنبئ بان باستطاعته ان يقرر منفردا برأيه خلافا لما يريده ابراهيم.. ذلك لان الجميع فهموا ان ابراهيم ما كان ينفصل عن قبيلة صاحبه وحيث نزلوا

الا لامر جلل.. لم يفهم حسقيل ذلك، او انه اراد ان لا يفهم، جريا خلف ما درت عليه مهنته في كنف تلك القبيلة الكبيرة، وانجرارا خلف ما صار عليه طمعه، بعد ان بنوا بيوت الشعر بما في ذلك البيت المخصص لحسقيل وبيوت الرعاة.

استدعى ابراهيم اولاد ابنائه الثلاثة ..وانفرد بهم واحدا واحدا، مبتدئا بالصغير، محمود، وقال له:

ــ ان لــ (خوينا) مصعب ــ اي اخينا ــ شيخ القبيلة بنتا حلوة تغري كل رجل.. هل دنوت منها؟ ألم تستطع ان تغريها، يا ولدي؟ انها جميلة وتستحقك.. وانت تستحقها اكثر من غيرك..

جفل محمود واحمرت عيناه.. بل كادت تخرجان من محجريهما.. وكاد يسحب سيفه من جنبه، بعد ان نسي من شدة ما غشيه من غضب، ان من يخاطبه هو جده ابراهيم.. وعندها قال لابراهيم:

ــ يا للعار، لو فعلنا سوءا كهذا! كيف تقول هذا، يا والدي، وابو البنت (خويك) وقد انزلنا في كنفه، وضمن لنا حرية التبشير بآرائنا، وحمانا؟ والله، يا والدي لو لم تكن ابي، ولو خمنت انك مستقر على رأيك هذا، لكنت اتخذت موقفا لا ارضاه لنفسي ولا ترضاه عني، ولفارقتك من يومنا هذا، وربنا الغفور الرحيم.

قال ابراهيم:

ــ (عفية)، يا ولدي.. اكتمها عن اخويك.. وإذا سألاك بعد خروجك افتعل لهما اي شيء ولا تقل ما قتله لك.

وعده محمود بذلك، وهدأ روعه، ثم خرج، ودخل يوسف وكان موقفه وجوابه كموقف محمود وجوابه لابيه، الذي قال له ما قاله لمحمود.. بعدها جاء دور حسقيل.. وقبل ان يدخل، كان ابراهيم يداور الأمر مع نفسه: اتراه فعل الفعلة المخزية، هذا اللعين حسقيل؟ اتراه هو الذي سوّد وجوهنا وموقفنا امام ابن الحلال، (خوينا) شيخ القبيلة مصعب!؟ ثم يعود ليقول في نفسه: ان أمه عفيفة وابنة رجل شريف وان اباه ابني، وانا واثق من امه.. وواثق من نفسي، ومن طهارة حليمة.. ولكن من اين جاءه هذا العرق النجس؟ ربما جاءه من اي من اخواله.. وربما من اي من اعمامنا..

وعندما قال الجملة الاخيرة، بدا كأنه يقولها من غير قناعة مستقرة.. ولكن هل يمكن ان يتصور شيخ القبيلة خطأ ينسبه الينا متوهما؟ ثم يعود ليقول: انه رجل حصيف بل حكيم حقا، ويعرف حقوق الله عليه، وحقوق الناس، ويعرف واجباته ازاء ربه، وازاء الناس.. وهو رجل يكن لي تقديرا ومحبة خاصين، ولا يمكن ان يلقي التهم جزافا، او يفرط بي من غير ان يكون مضطرا لذلك.. فلأدع هذا الملعون، وسيكون كل شيء واضحا ومفهوما بعد ذلك.

استدعى ابراهيم حسقيل، عندما لم يجد في تصرف اي من محمود او يوسف ما يعيب وكرر عليه ما قاله لهما ..وقد ظن حسقيل انه امر يدل على كفاءة خاصة، ان هو افضى لجده بحقيقة ما فعله.

قال حسقيل:

ــ اتعرف، يا جدي، لماذا عاكستكم في الرغبة، عندما عدت من مرافقة والدها، وابلغتنا بأن نغير اتجاهنا ونعود ادراجنا الى حيث نحن الآن!؟

قال ابراهيم:

ــ لا اعرف، ولا استطيع ان اخمن.

قال حسقيل:

ــ كانت بنت مضيفنا ذاك تمر عليّ، لتعرف ماذا لديّ من حلي، وعندما ارادت يوما ان تعرف ما اذا كانت احدى القلادات على قياسها ام لا، امسكت بها من ثديها، لكنها جفلت مني، في الوقت الذي كانت خادمتها خارج البيت، وقد

لحقتها وامسكت بها قبل ان تخرج من بيت الشعر، ووضعت كف يدي اليسرى على فمها، وطوقتها بيدي اليمنى، وسحبتها الى الركن البعيد في البيت وهممت بها، وكدت ان افعلها، لانني اعرف انها يتعذر عليها ان تصرخ وتستنجد خشية ان يلحقها عار الفضيحة، لكنها امهلتني لليوم التالي، وحلفت انها ستفي بوعدها، ورغم ان هذا ليس هو الذي منعني منها، وانما صوت خادمتها وهي تصيح باسمها، وتستعجلها لتعودا للبيت، فإني قبلت من جانبي تأجيل ما كنت انوي فعله، بأمل ان افعله معها اليوم، ولكن اليوم كان يوم رحيلنا ولذلك كنت اعاكسكم في الاتجاه. وفي نيتي ان الحق بها الى هناك، لاحصل على بغيتي.

عندما كان حسقيل يسرد قصته مع ابنة مضيفهم، شيخ القبيلة كانت الارض كأنها تميد بابراهيم فقام من فوره وصفعه بأقوى ما يستطيع حتى ادمى انفه، وصاح بيوسف ومحمود ان يحضرا وامرهما بأن يربطا يدي حسقيل خلف ظهره، وقال بحزم:

ــ اقتلاه، اذا قاومكما.

عرف حسقيل الامر وصرامته فاستسلم من غير مقاومة، وعندما اكمل محمود ويوسف تكتيفه، امرهما باحضار فرسه واحضار حمار ليضع فوقه الخاسئ حسقيل، وان يأتيا له بسيف وقوس، وبعد ان تقلد سيفه ووضع جعبة السهام خلف ظهره، وامسك بالقوس بيده، وهو امر لم يفعله ابراهيم منذ وقت طويل، ذلك انه لم يكن بحاجة اليه وهو حكيم الامة ومرشدها لكنه هذه المرة كان بحاجة اليه ليتدبر امر حسقيل، خشية ان يهرب منه وهما في الطريق الى شيخ القبيلة المقصود.

ما ان استوى حسقيل على ظهر الحمار، واتجه به معقبا اثر قافلة الشيخ الجليل، حتى امتطى ابراهيم فرسه، وصار خلف الحمار ليلكزه بعصاه عندما (يحرن)، ليستمر في سيره. وما ان لاحت مواقع بيوت شيخ القبيلة من بعيد، تحيط بها بيوت الشعر لعشيرته، حتى لاحظ ابراهيم ان احدهم خرج من البيوت على ظهر فرسه.. التي جاءت (تهذب) باتجاهه.

عرف ابراهيم الفرس من لونها الاشهب، وعرف من وضعية فارسها انه صاحبه لا محالة، وخمن ان هناك من قال له «انني جئت معقبا اثرهم ــ هكذا قال ابراهيم في نفسه ــ وان معي احدهم فوق ظهر الحمار، وانني اهتديت الى السبب الذي جعله يرحل هذا اليوم، ويفصل منزلنا عنهم، عندما وضع رمحه في عين (قرية) نمل، بمعنى انعدام الرغبة في المجاورة، وان الشيخ جاء خارج منزل القبيلة لكي لا تعرف شيئا عن وصول ابراهيم الى مضيف الشيخ، لانها عندما تعرف يتعقد الامر على الشيخ، وتكون المرونة لديه محدودة خارج ما اعتادت عليه هذه القبيلة وكل قبائل العرب، وهو القتل لمن يتحرش بامرأة بخلاف رضاها، وقتل المرأة والرجل اذا كان برضاها.«

عندما وصل شيخ القبيلة وصار على مقربة من ابراهيم، قفز من على ظهر فرسه الى الارض، مما جعل ابراهيم ينزل عن ظهر فرسه ايضا، وبدلا من ان يسلم على ابراهيم باليد، او يقول اي شيء احتضنه من فوره، وصار يقبله على وجهه وجبينه ورقبته، وهو ينتحب ويقول: ــ) عفية اخوي) انت قدوتنا في الحكمة، وقد تأكدت اليوم بصورة اعمق انك قدوتنا في احقاق الحق ايضا، بعد ان كنت تدعونا اليه وترشدنا لان نحكم ونؤسس علاقتنا عليه.. لقد عرفت انك ستهتدي الى السبب الذي جعلني انفصل عنك، وعرفت بيقين انك سترضيني وتنصفني، لانني متيقن من انك تعمل لارضاء الله.. وبعد ان صار كل العرب يسيرون على سنتك ومنهجك، فانك في الوقت الذي تتمسك بحقك على الناس، من حق الناس ان يتمسكوا بحقهم عليك، ولقد تصرفت وفق ما رأيت لانني واثق من انك افضل من يأخذ لي حقي

بالعدل، ويبيض وجهي، ولكن ارجوك، يا اخي وقدوتي، بل قدوتنا جميعا، دعنا نعالج الموضوع هنا أنا وأنت فقط، وان لا نذهب الى هناك، حيث تجمع القبيلة، لنكتم عنها ما حصل..

قال له ابراهيم:

ــ لقد عرفت كل شيء، وجئتك بهذا الخاسئ حيا لتقتله بنفسك وبسيفي هذا.

واستل ابراهيم سيفه من قرابه، وناوله الى شيخ القبيلة وبعد ان هزه شيخ القبيلة بيده عدة مرات وهو يحدق في الخاسئ حسقيل، قال موجها الكلام لابراهيم:

ــ لقد وصلني حقي، يا اخي، وقدوتي، وانني افك رقبته، ولن اقتله تاركا معاقبته لربك، يا ابراهيم، ولكن لي رجاء ان احتفظ بسيفك هذا، وان تنبذ حسقيل، انت واخواه، محمود ويوسف.. وسوف اقتله، اذا وجدته مصادفة بعد افتراقنا هذا، وله فترة سماح من يوم وليلة.

قبل ابراهيم كل شيء اراده شيخ القبيلة، وتعانق شيخ القبيلة وابراهيم، وهما ينتحبان وافترقا.

طرد ابراهيم حسقيل الخاسئ من فوره بعد ان اعطاه بعيرا واحدا ليحمل عليه بيت الشعر الصغير العائد له، وبعض اغراض العمل، مع كيس او صرة الذهب التي يمتلكها، وحذره من ان يكون في مكان قريب يجعل عينيه او عيون يوسف او محمود تقع عليه، ذلك انهم سيقتلونه ان ظفروا به، بعد فترة السماح التي أمدها يوم وليلة وسيفعل الشيء نفسه غريمه شيخ القبيلة وابناؤه، وربما قبيلته ايضا.. ولقد اشاع ابراهيم واولاده بين القبائل انهم تبرأوا من حسقيل وانفصلوا عنه بسبب اختلافهم معه في منهج الحياة والايمان وسوء اخلاقه.

عاش ابراهيم وعائلته: ام الخير وحفيداه يوسف ومحمود في استقرار بل سعادة غامرة بعد رحيل حسقيل.. ومع الزمن اتسعت وتعمقت محبة الناس لهم.. وازداد عدد المترددين عليهم طلبا للعلم والحكمة، يسألونهم في شؤون الايمان والدين او في شؤون الحياة مما يتصل بهم.

في احدى ليالي شهر تشرين الاول، حيث الخريف، وحيث تبدأ اشجار الصيف تنفض جزءا من اوراقها، ويكون العشب يابسا لتعتاش عليه المواشي، هو وما يخلفه من بذور، ومن ذلك نبتة صحراوية تسمى (الزريجة) نسبة للونها (الاملح) الذي يخالطه اللون الاخضر ممزوجا بما هو شبه (ماوي)، والعرب لا يبحثون عن الالوان المختلطة (بين بين)، في الغالب، وانما يبحثون عن الالوان الاساسية بعد الابيض والاسود، وهي الاحمر، والاصفر، والاخضر، والازرق، و(الجوزي) ــ من لون الجوز.. وهكذا كانوا يسمون تلك النبتة: (زريجة)، بل إن الالوان التي بين الابيض والاسود لم تكن مما يهتمون به سابقا، وانما هذان اللونان فقط، اما الالوان الاخرى فقد دخلت حياة العرب متأخرة، ليتعاملوا معها، او يرتديها كلباس من يريد التخلص من حرج اللون الابيض، اذا كان رجلا، ذلك ان اللون الابيض لا يتحمل الوسخ، وهو حساس في العمل مثلما هو حساس للون الدم عندما يصاب من يصاب بجروح في الحروب، اما من يضعف (ويعملها على نفسه) في الحروب، فالافضل له ان يرتدي اللون الاسود، او الالوان الاخرى، لانه لن يقدر على حماية اللون الابيض من الاتساخ او ان يباهي به عندما يتضرج بالندى (الدم الطهور) الذي يعز اهله عندما يندى في الحق..

غالبا ما كان الرعاة يجمعون بذور نبتة (الزريجة) ويضعون عليها ملحا بعد ان يرطبوها، ويقلوها في مقلاة من غير دهن، ثم يتناولونها بمفردها او مع التمر، الذي يتزودون به من العراق على ان لا تكون البذور في هذه الحالة مملحة أو يطبخونها مع الماء، فتترك في القدر حليبا ابيض، هو عبارة عن الزيت المخزون داخل البذور، وعندما ينضج

يثردون به ويأكلونه، ومن الطبيعي ان لا تكون هذه الاكلة هي الحالة السائدة في بيت ابراهيم، حيث الاغنام والابقار والابل بأعداد كبيرة.

هطلت الامطار مدرارا بعد رحيل المنبوذ، وصارت الاغنام تلد مرتين في العام الواحد.

قال محمود مخاطبا جده:

ــ اتعرف، يا والدي، منذ ان غادرنا المنبوذ حسقيل، صارت الدنيا كأنها تمطر خيرا علينا، بعد ان واجهنا احتباس الامطار سنوات بعينها او اشهرا كثيرة من سنين بعينها.. بل حتى اغنامنا صارت تلد مرتين في السنة؟! ويجيبه ابراهيم:

ــ نعم، يا ولدي، انه خير من الله لدنيانا، لكن خير الآخرة لمن يعملون صالحا افضل، واكثر ديمومة، حيث ضيافة الرب الرحيم.

ويجيب محمود ويوسف وأم الخير:

ــ آمنا بالله، ولا اله الا الله والله اكبر..

ثم يقول يوسف موجها كلامه الى جده:

ــ لاحظت ان حسقيل ازداد سوءا بعد سفرته الطويلة التي ذهب فيها الى بابل، حيث سمع قصصا كثيرة من بقايا من سباهم البابليون الى هناك، كما افضى لي، ومنهم عدد من الكهنة، قال انهم من سلالة من حجزوا كأسرى، وحرم عليهم في حينه الخروج خارج اسوار المدينة، وقال حسقيل انهم يفهمون في شؤون الدين وانهم تعلموا السحر هناك، وهم من بقايا سلالة اولئك الذين جاء بهم اسرى قائد البلاد نبوخذ نصر.. اي ان اجدادهم، وفق ما اوضح لي حسقيل، كانوا يسكنون ارضا مجاورة لارضنا هذه، هي في الاصل من اراضي بلاد الشام، كانوا قد اغتصبوها من اهلها الاصليين او انهم وسعوا ديارهم على حساب جيرانهم، حيث عندما غزاهم نبوخذ نصر ودمر معابدهم واسر دهاقنتهم، لم يهب لنصرتهم احد من المجاورين، بل ان حسقيل قال لي، وفق ما سمع منهم في مدينة بابل العظيمة، ان السكان المجاورين في بلاد الشام، رحبوا بما قام به نبوخذ نصر ضدهم.

قال ذلك يوسف، وفي نفس الوقت كأنه اراد ان يوجه سؤالا الى ابراهيم:

ــ ولكن لماذا تصرف سكان البلاد المجاورة بعدم مبالاة ازاء احتلالهم من نبوخذ نصر؟ بل لماذا ناصروه في حقيقة الامر عليهم؟

اجابه ابراهيم:

ــ ان اولئك القوم، مثلما اعرف عنهم، قوم انانيون، ودورهم استغلالي استئثاري ازاء من يجاورهم او يخالطهم، بل غالبا ما كان عدوانيا استحواذيا، لذلك غالبا ما كانت الشعوب التي كانت تخالطهم او تجاورهم، تكرههم او تمقتهم، فضلا عن ان شعوب بلاد الشام شعوب عربية، يا ولدي.. وان شعب بلاد بابل عربي، وعندما يكون الدم واحدا ويجري في مجرى واحد، يكون شعوره واحدا ايضا.

عاد يوسف ليقول:

ــ كنت قبل ذلك الوقت اختلف مع حسقيل في امور كثيرة قبل سفره الى بابل، لكن بعد سفره وعودته منها، لم اجد مجالا او شيئا يمكن ان اتفق معه عليه، بل لعلي وجدته على دين آخر واجتهادات ما انزل الله بها من سلطان، وهي في كل احوالها، وفي الحال التي توصف بأقل ما يمكن من السوء، ليست الدين الذي علمتنا اياه، وصار اجتهاد حسقيل

يتم بعيدا عن المنطلقات والمرتكزات التي علمتنا اياها وامرتنا بها وفقا لدينك الحنيف.. وقد لاحظت ذلك ليس اثناء حوارنا على امور بعينها، وانما لاحظته عندما كان يرشد من تحيلهم الينا لنوجههم في الايمان والحكمة، وعندما كنت اصحح له، كان ينهرني ولا يصغي لملاحظاتي، وكنت اسكت على مضض، باعتباره الاكبر سنا وقد اخطأت لانني لم افض بذلك اليك، لانني خشيت ان اخلق مشكلة بينكما، بأمل ان يرعوي ويعود الى رشده، ولكنه بدلا من أن يعود إلى رشده ارتكب جريمته القبيحة مع ابنة شيخ القبيلة، الرجل الكريم، الطيب الشجاع.

ثم يعود ليقول بعد ان يسكت برهة:

ــ سوّد الله وجهه في الدنيا قبل الآخرة، بعد ان اخزانا بفعله السيئ.

ويقول الجميع ابراهيم وحليمة ومحمود:

ــ آمين يا رب العالمين..

ثم يتساءل محمود: لقد لاحظت انني اختلف مع يوسف ايضا في اجتهادي وما افتي به في شؤون الدين والدنيا.. فهل هذا صحيح؟ ام لك وجهة نظر اخرى، يا والدي؟

1ــ الطاسة، آنية من النحاس لشرب الماء.

(3)

راح ابراهيم يتأمل في النجوم وهم يجلسون خارج بيت الشعر في بداية الليل، ورغم ان تلك الايام كانت الايام الاولى من الشهر العاشر (تشرين الاول) فقد كانوا جميعا يرتدون كنزات (فروات) (١ (صوفية من غير اكمام، تصل الى ما تحت الخصر بقليل، عكس فروة الشتاء التي تكون بأكمام وتكاد تلامس الارض عندما يرتدونها، وغالبا ما تستخدم غطاء في النوم المنفرد، الا حليمة فإنها تبقى على هذا النوع من الفروات القصيرة من غير كم، لتسهل لها مهمة العمل والحركة داخل البيت، ولأنها بحكم استقرارها في البيت يكون تعرضها للبرد اقل منهم.
كان الجميع يرتدون فروات قصيرة.. اتقاء لنفحات برد الشهر العاشر، لكنهم كانوا يتمتعون بطراوته ولا يدخلون بيت الشعر الا عندما ينامون، ومن ينام خارج البيت لا بد ان يحتاج الى دثار.

كانت نفحات البرد تأتي معلنة تغير الطقس، بعد ان عبر الشهر الاول من الخريف وصاروا في شهره الاوسط: العاشر.. كانت عينا ابراهيم تتقلبان في السماء بعد ان سمع سؤال محمود، كأنه يستنجد بالله ان يهديه الى الجواب الصحيح، في الوقت الذي يتأمل عظمة شريعته وقانونه، وهو ينظر الى السماء التي رفعها رب السموات من غير عمد، وزينها بالنجوم هادية ورجوما للشياطين.. ثم ينتقل ابراهيم بنظره الى الابل والماشية.. يتأملها ويتأمل ما فيها من تسهيلات خلقها الله للانسان.. ثم يقول بلغة مليئة بالثقة مع الايمان:
ان الاساس، يا ولدي، ان نؤمن بإله واحد، هو الله، سبحانه وجلت قدرته.. انه ربنا وخالقنا، ولا اله آخر غيره ..واننا له مسلمون مشيئتنا وفعلنا وعبادتنا له سبحانه وليس لغيره.. وان اقامة العدل والانصاف وقول الحق والعمل به ورفض الباطل والسعي في الارض في علاقاتنا الانسانية، معمرين لها لا مفسدين، هو سبيلنا، ولذلك عليكم ان تتذكروا شريعتي وما علمتكم اياه قولا وفعلا، وبعد ذلك، لكم ان تجتهدوا، على ان تراعوا وانتم تجتهدون، ان يكون اجتهادكم، اذا اضطررتم، منزها من الهوى وعلى اساس الضرورة الملجئة لما تقتضيه الحياة ويستوجبه الدين، وليس محض بناء طريق مختلف بين طرق مطروقة، ليعرف صاحبه فيه، وان لا يرتب الاجتهاد او ينشئ حقا من باطل او يلغي ويزور حقا ثابتا، وان لا يكون تعبيرا عن ضجر او خوف او مراءاة ونفاق او تعبيرا عن غضب او رغبة في الحاق اذى بآخرين وان يكون اتكالكم بعد ذلك وقبل ذلك، على الواحد الاحد.. وان النية والهدف الصادقين حالة فاصلة وان الامانة والدعوة لها والعمل بها واقامة العدل والحج الى بيت الله لمن استطاع اليه سبيلا، ضرورية كلها وان التوفيق بعد ذلك من الله القادر الحكيم.
عاود ابراهيم التأمل في الطبيعة.. ثم قام وصلى.. ودعا حليمة وولديه لأن يصلوا ايضا..
بعد ان انجزوا صلاتهم، جاءتهم حليمة بما قسمه الله من المطبوخ من طير (الحبر) الذي اصطاده محمود بعصاه او سهامه، وهو يباري رعاة الإبل والغنم في المرعى.
بعد انتهائهم من العشاء وجدوا انهم بحاجة الى ان يوقدوا نارا.. كانت السماء صافية، تسطع فيها النجوم التي تستطيع عين الانسان ان تكتشفها وتمتد اليها ..وراح محمود ويوسف يتباريان في ذكر اسمائها، وراح ابراهيم يصحح لهما ما يخطئان فيه او يضيف الى معلوماتهما ما لم يهتديا اليه.
قال محمود.. بعد ان استأذن جده:

ــ أليس من الافضل ان توزع الاتجاهات بيننا بصورة اسمية، يا والدي؟.. توزعها بيني وبين يوسف، لكي يعرف كل منا حدود مسؤوليته في ما يدعو اليه الناس، مبتدئين بالعرب، حيث هناك العراق، الى الشرق منا، وعلى مقربة منا بلاد الشام، وبعدها الحجاز ونجد واليمن.. أليس من الافضل، ومنعا للتداخل ان تقول لكل واحد منا اين يتجه في نشاطه، ليعرف كل منا سبيله؟

قال ابراهيم:

ــ نعم، اقول ابتداء ان اهل نجد والحجاز واليمن والعراق، عدا نينوى، من حصتك يا محمود، اما اهل نينوى في العراق، وكل بلاد الشام، عدا ارض الجزيرة الملاصقة للعراق، فهي من حصة يوسف، واعود لأكرر، ان هذا التقسيم اسمي وليس مطلقا، وهو الى حين وليس دائما، ولاغراض النشاط وتوجيهه وليس لاغراض الاختلاف وفي كل الاحوال، فأي اختلاف بينكما، يجب ان يكون الحكم الفاصل فيه شريعتي وما يرضي الرب الرحيم، وان تتذكرا انكما ابنا عم، وان تبعدا عنكما الشر وحكمه والطمع ومهاويه وان تبقيا الشيطان بعيدا عن صدريكما وعقليكما وان تتنزها عن الهوى وان تبعدا فتن الاجنبي عنكما وطريقة فهمه للدين.. وان تحذرا حسقيل لئلا يلوث دينكما بالهوى والطمع ويحرف طريقكما.

هنا سأل محمود جده ابراهيم:

ــ قلت ان نبتعد عن فتن الاجنبي بيننا.. وهذا مفهوم، لكنك قلت (وفهمه للدين وطريقة او طرق التعبير عن الدين، على اساس هوى الاجنبي او فهمه).. أليس دينك وشريعتك انسانيين يتعديان امتنا ويتوجهان الى أمم الارض كلها ام انهما قوميان فحسب؟

تأمل ابراهيم في وجه محمود وهو يبتسم بحبور واضح، وقال:

ــ نعم، يا ولدي، ان ديننا وشريعتنا انسانيان، لكن امتنا هي قاعدتهما الاساس.. وهذا ما اراده الله سبحانه ولذلك فان ما يختمر في القاعدة، يا ولدي، في روحه وبنائه، هو الاساس وان توجهنا في دعوتنا الى الانسانية ككل يقتضي، مع ضرورة التنبه الى اننا حيثما تشعبت امامنا الطرق بعد ذلك، ومن بعدنا الاجيال التي نورثها العقيدة، نعود الى الاساس والمنطلق وما اختمر في وعاء الامة وضميرها وعقلها، ليكون بوصلة حركتنا الى الامام والقاعدة والحكم الفصل في ما يختلف عليه او يقال فيه من اجتهاد، ذلك لأن الامم الاخرى، ستتلقى الدين منا وسنكون نحن مستودع اسراره ونبضه وروح انطلاقته ونماذجه الحية في منبعه الاساس وان اتسع الافق امامنا ليمتد الى البعيد البعيد، ذلك لان الأمم الاخرى متكونة على اعتقادات ليست بديانات الهية، وانما عبادات قومية صيرتها رغبة او عبقرية اصحابها في تلك الامم، لتلتم عبر التاريخ على ما يوحدها ويحقق لها الاهداف التي اختارتها في مراحل متعاقبة من الزمن، لذلك ما ان يؤمنوا بأساسيات ما ندعوهم اليه وينفصلوا عن توجيهنا المباشر، حتى تخالط عقائدهم السابقة الدين الجديد.. ومع تعدد الاجيال واحتمالات انتشار البدع على اساس الهوى او التسهيلات التي تنادي بها حياتهم او تفرضها عليهم هي وملوكهم، تصير اساسيات ما عرفوه عن تقاليدهم القومية من عبادات، كأنها اساس لدينهم وشعائرهم وتكون اساسيات الدين الجديد كأنها جزء من ذلك، وليس القاعدة والجوهر الذي يلغي ما عداه او يصححه بموجبها والخطير، يا ولدي، ان تتوافق مع هوى النفس الرغبة في الانعزال عن التوجيه المباشر للعرب المؤمنين على الوصف الذي ذكرناها عنهم.. وعندها تكون كأنها اديان جديدة وان سميت باسم ديننا.

قال محمود:

ــ شكرا، يا والدي.. لقد فهمت.
قال يوسف لابراهيم:
ــ التقيت قبل زمن بأناس من بلاد الروم.. التقيتهم بادئ الامر مقبلين بقوافلهم الى نينوى من بلاد الشام، وعرضت عليهم ديننا، مع انهم اجانب ومن قوميات اخرى، فهل ما فعلته صحيح ام خطأ؟
ــ بل، صحيح، يا يوسف، ذلك لأن ديننا موجه الى الناس كلهم، عربا واعاجم، سواء كانت بشرتهم بيضاء او سوداء او سمراء او من اللون الاصفر، كما في الصين وما جاورها، لكن عليكما الانتباه الى ما قلته لمحمود الآن، لأنه يعنيكما، وان كان لكل منكما اجتهاده وطريقه الآخر بعد ان انطلقتم من طريق التوحيد الاساس.
ــ نعم يا والدي، سوف انتبه الى ما قلته لنا الآن، لانك تقوله لأول مرة.
ــ نعم، يا ولدي، قلته لأول مرة، ليس لأن محمود سألني عنه الآن، ذلك انني كنت سأقوله.. ولو لم اقله اليوم، لقلته غدا او بعد غد، لان دعوتنا كانت محصورة في بلاد العرب فقط، اما الآن فصارت تمتد الى اقوام وشعوب اخرى.

***

منذ ذلك اليوم عرف كل حدود واجباته، وصار كل منهما يستقبل من يستقبله ويوجه من يوجهه، على اساس ما امر به ابراهيم مثلما كانا يفعلان قبل ذلك او يخرج كل منهما الى مواطن القبائل والقرى او مسارات رحلات الشتاء والصيف، بين بلاد الشام وهذه الاصقاع من ارض الله.

***

كان حسقيل قد استقر في قبيلة مناوئة لقبيلة غريمه: ذلك الشيخ الجليل، وجعل البحر الميت بينه وبين الاماكن التي تسكنها قبيلة الشيخ او مرابعه ومشاتيه، حيث يستقر جده ومرابعه ومشاتيه، وما ان حل في تلك القبيلة البعيدة ولنسمها (القبيلة المضطرة)، فيما نطلق على قبيلة الشيخ الطيب اسم (القبيلة المختارة)، حتى بدأت المشاكل تنشب وتزداد احتداما بين القبيلتين، وكان اساس التحرش هو تحريض حسقيل لتلك القبيلة، ليروج بضاعته من الاسلحة وليدفع ابناءها الى كسب غنائم ليبيع الذهب والفضة لنسائهم ولمن يرغب في شرائهما ولا يملك اموالا تعينه على ذلك.
كانت دسائس حسقيل تزداد، بعد ان رتب اشعارا وقصائد عن طريق من اغراهم ودفع لهم، تسيئ للقبيلة المضطرة وشيخها، وبناته وبنات العشيرة ويدعي من ينقلها بأنه سمعها من شيخ القبيلة المختارة مباشرة او من شعراء قبيلته في اي من رحلات الشتاء والصيف او في مرابع العشيرة ومشاتيها، وكان يفعل الشيء نفسه مع شيخ القبيلة المختارة عن طريق آخرين او عن طريق نفس الاوساط، ناقلا اليه والى قبيلته ما هو معاكس عن شيخ القبيلة المضطرة وافراد قبيلته، لكن شيخ القبيلة المختارة كان غالبا ما يأخذ رأي ابراهيم في ما يصله من الطرف الآخر، فيهدئه ابراهيم، ويقول له ان ذلك من فعل وتدبير حسقيل، وهما فعل وتدبير غير نزيهين، ويحذره من ان يوقع بينهما، لكن شيخ القبيلة المضطرة لم يكن امامه من يحذره من حسقيل، الذي صار يتصرف مع شيخها وكأنه صاحب فضل عليه وعلى قبيلته، ذلك انه قال لشيخ القبيلة انه على استعداد ليصنع له ولقبيلته السلاح الذي يحتاجونه، وانه لن يستوفي ثمنه الى ان يغزو شيخ القبيلة المضطرة القبيلة المختارة وشيخها، لقاء فائدة اتفقوا عليها.. وصار حسقيل من يومها يتردد كصديق حميم لشيخ القبيلة المضطرة ومستشارا في الاغلب الاعم، لا يتجاوز رأيه في ما يشير به او يقوله.. وصارت القبيلة

المضطرة تكثر الغارات على القبيلة المختارة وتنصب الكمائن وتستولي على الماشية وتقتل من تنفرد به خارج الجماعة، وغالبا ما كانت القبيلة المضطرة، عندما تقوم برد فعل على القبيلة المختارة برد فعل على اعمالها واعتداءاتها، تتملص من المواجهة المباشرة، وتتحصن في حصون اعدت لهذا الغرض او تنسحب الى الجبال، متخذة من المغاور والكهوف البعيدة التي يعرفونها مأوى لهم، خاصة عندما تقرر القبيلة المختارة مواجهتهم بحشود منظمة، اما اذا رأوا ان المجموعة التي تواجههم ليست حشودا منظمة وانما محض مجاميع من غير عمق، كانوا ينقضون عليها ويقتلون رجالها ويروعون اطفالهم او يقتلونهم ويستولون على متاعهم ومواشيهم واذا ما ظفروا بأي من نسائهم اتخذوها سبية.

عندما حل الربيع في السنة الثانية، نصح حسقيل شيخ القبيلة المضطرة بأن يرتحل، ويتجاوز الارض التي كانت محرمة عرفا بين القبيلتين، كمسافة امان لتجنب الاحتكاك والتهيؤ عند اعتراض القبيلة المختارة للانقضاض عليها والاستيلاء على مواشيها (حلالها)، وقتل رجالها وسبي نسائها، وسحقها سحقا كاملا، بدلا من اسلوب الغارات والمهارشة، لكنه التمس او اشترط امرا على شيخ القبيلة ان هم غلبوا غريمهم:

ــ ان شرطي الاساس، يا شيخ، هو ان تجعل ابنة شيخ القبيلة من نصيبي، اذا غلبتم.

ورغم ان ذلك كان شرطا قاسيا، حيث كان شيخ القبيلة المضطرة طامعا بها لنفسه، على اساس عرف ذلك الزمان، فقد قبل شرط حسقيل على مضض.

في أواخر شهر فبراير (شباط) من تلك السنة، أمر شيخ القبيلة المضطرة ان يشد عدد قليل من الرجال الرحال من غير نساء واطفال، ليجاوروا، متجاوزين الارض الحرام، القبيلة المختارة، وقال إنه سيختار الوقت المناسب ليأمرهم بالهجوم على القبيلة المختارة.. بعد الوصول، كان حسقيل قد أقنع شيخ القبيلة المضطرة بأن بقاءه في الديار ضروري لتدبير شؤون بيت الشيخ، والاستجابة لطلبات الحريم، والأهم ــ هكذا قال حسقيل ــ ان اواصل صناعة النبال والسيوف والخناجر، والرماح، لأن القتال قد يمتد إلى زمن طويل قبل أن يتحقق النصر ..ولأن صاحب العادة السيئة الذي يكون الشيطان رفيقه بدلا من معاني الرحمن، لا يغير عادته، فما أن خلت له الدار بعد رحيل شيخ القبيلة، حتى بدأ يغازل زوجة الشيخ، ويقدم لها الحلي بسخاء لاستدراجها إلى بيته، وعندما كانت تنهره بادئ ذي بدء، وتقول له :أنا زوجة شيخ القبيلة يا ولد، وان من ابسط معاني إخلاص المرأة لزوجها أن تحفظ غيبته وشرفه فيها..

يقول لها حسقيل متضاحكا:

ــ إنك لست بنت عمه، بل لست بالأساس من قبيلته وقومه، إنما غريبة عن قومه، وان عادات أهلك ليس من عاداتهم وتقاليدهم، ومع هذا، وفوق هذا، ما ادراك، فقد لا يعود شيخ المضطرة، حيث قد يقع في الأسر، أو يقتل، وعندها لن يبقى لك وأنت غريبة من تلوذين به غيري.. مع ما يردف هذا من كلام معسول يقوله.. وما ان تمكن منها، حتى بدأ يساومها على بنتها الوحيدة، خاصة بعد أن رأتهما متلبسين بالجريمة النكراء، وعندما كان يقترب من ابنة الشيخ تنهره، لكنه يقول لها :انه حاول مع أمها لأنها الوسيلة الوحيدة التي يمكن من خلالها وبعدها ان يصل إليها، ومع ان الابنة كانت تشمئز من قوله، مثلما اشمأزت من فعلته مع أمها وفعل أمها معه، لكن مع مرور الأيام، واطلاعها على فعل والدتها معه، بدأت تغير أسلوبها جزئيا، وتناقش نفسها لمواجهة المصيبة بأسلوب آخر.. ذلك ان هذه الأم كانت تنسل مع زوال الشمس في افقها، ومجيء الرعاة بالغنم، وانصرافهم إلى بيوتهم، إلى بيت حسقيل، ولا تعود إلى بيتها إلا قبل بزوغ الشمس بقليل، وعندما كانت الابنة تعاتب أمها، وتلومها، تقول لها الأم:

ــ دعيني لحالي، انك لم تتزوجي بعد، ولا تعرفين شعور المرأة الغريبة عندما يغيب عنها زوجها الذي لا تحبه.. ثم انني، تقول الأم، لست منكم ولا على تقاليدكم، وان أباك كان يعرف عندما تزوجني بأنني عاشرت رجالا آخرين قبله، وعليه ما دامت غيبة ابيك غير معروف أمدها، فدعيني لحالي مع حسقيل، وليتحمل كل وزره ..الخ.. من الكلام الأعمى النزق.

ثم تقول: ان حسقيل رجل قوي، ويعرف كيف يعامل المرأة في السرير وخارج السرير، وهو الآن من يتولى أمر عائلتنا في غياب فرسان الديرة.. كما انه فوق ذلك اغرقنا بالذهب.. أُنظري.. هذه القلادة منه، وتلك الاقراط، وهذا السوار منه ايضا.. وهو بصدد أن يحوك لي حزاما من الذهب، مطعما بالفضة، وعندما اقول له إن هذا كثير، يقول لي (ابديلك) نفس حسقيل، أي نفس حسقيل فداء لك.

ورغم ان كلام امها هذا لم يدفعها الى تصرف مضاد، فإنها مع الزمن راحت تداور مع نفسها كل شيء تسمعه منها: الحلي.. ولا تملك شيئاً منها، ذلك ان أباها يملك، لكنه بخيل ولا يستهويه الصرف على عائلته، لذلك أبقى زوجته وابنته في حرمان إزاء رغبات الحد الأدنى، رغم تمكنه مادياً من ذلك.. أليس المثل القائل (اكسر البصلة وشمها تأتي البنت على أمها)، صحيحاً؟، ثم ماذا يمكن أن يتوقع من بنت لا تنظر أمها لأبيها بتقدير ومحبة واحترام، وتحكي لابنتها ما يشوقها للفاحشة، غير ان تهوي البنت في قعرها إذا استسلمت لمهاوي الشيطان، ولم يكن فيها ومن حولها ما يحصّنها؟، لكن بنت الشيخ لم تهو إلى قعر البئر الآسن السحيق التي سبقتها أمها إليها، رغم انها كانت قد قدرت هي وأمها أن شيخ القبيلة المضطرة اضعف من أن يعاقبهما عقابا صارما، إذا عرف.

نعم، ان الاعداد الجيد، والتربية الجيدة على المبادئ، وفي مقدمتها مبادئ الدين والالتزام بحقوق الله، وحقوق الناس، مثلما هي حقوق الإنسان نفسه، في الأقل، مهمة لحصانة الإنسان إزاء مزالق الشيطان، سواء من رجل أو امرأة، أو في علاقة الرجل بالمرأة، أو في الحقوق والأمور الأخرى، لكن يبقى ثمة شيئان حاسمان أمام انهيار أي خط دفاعي مما ذكرنا.. أولهما الوسط الاجتماعي القريب (العائلة).. او الوسط الاجتماعي الأبعد (المدرسة، الدائرة، السكن، الاصدقاء، والمعارف).. الخ.

والثاني هو العقاب، على قاعدة المثل العربي المشهور (من أمِن العقاب أساءَ الأدب).. و(آخر الدواء الكي.(ان العقاب، سواء كان عقاب القانون أو عقاب العائلة نفسها، هو الخط الدفاعي الأخير والحاسم، إذا ما انهارت الخطوط الدفاعية الأخرى، ذلك ان أي إنسان عندما يعرف أن هناك رادعاً ينتظره، وقد يكون الرادع قاسياً، يفكر ويفكر ويفكر، قبل أن يُقدم، وبخاصة عندما يكون الإقدام على فعل ليس مما يعزّه، أو يعز أهله بين الناس، إنما يخزيهم أمام الله والناس، وقد لا تفضي نتائج التفكير والتأمل في سوء العاقبة الى التردد فحسب، إنما إلى الامتناع والسعي إلى تحصين النفس، بما يقنعها ويحول بينها وبين الرغبات غير المشروعة، لذلك فإن الله، سبحانه، وهو يعد عباده الصالحين والمتقين بالجنة وطيباتها، يحذرهم من النار، ويعد الكافرين والضالين بها، والعياذ بالله من حرّها وما يخزي النفس فيها أمام الله.

***

افتعل حسقيل العفّة ذات ليلة، مدعياً أنه منشغل بأفكار كلها خطيرة، وعندما سألته زوجة الشيخ:

ــ ماذا بك، يا حسقيل؟

ــ قال:
ــ ان فكري منشغل باحتمال أن تخبر ابنتك أباها الشيخ، عندما يعود، وعندها سنكون، أنا وأنت، أمام وضع خطر.. بل سيكون حكمنا معروفاً مسبقاً، ومصيرنا إلى موت محتّم.
وعندما تحاول أن تثنيه عن هذه الهواجس وتقول له.. إن ابنتها لن تقول شيئاً لأبيها.. يقول لها: بل ستقول له، وحتى لو تغاضى عن هذه الحال، فإن أعمامه لن يتركونا سالمين.
وعندما تسأله: ما الحل؟ يقول لها: إن الحل الوحيد الذي يجعلنا في أمان هو أن أغويها وأراودها عن نفسها.
وعندما تجفل زوجة الشيخ لوقاحته وخروجه عن المألوف، يقول لها: هوّني عليك، أنا لا اقصد أن أفعل معها ما أفعله معك، إنما قصدي أن تتعلق بي، وأن أقبّلها، وأن تنام معي في الفراش من غير أن أنال منها، وضمن توقيت بعينه نتفق أنا وإياك عليه، تداهمينا لتريها وهي معي في الفراش، وعند ذلك تعنّفينني وتعنّفينها، لكي تستمر علاقتنا، أنا وأنت، مثلما هي عليه الآن، وتكون عين ابنتك قد (كسرت)، ولا تكون بعد ذلك قادرة على إفشاء سر علاقتنا لوالدها.. أليس الاشتراك في الجرم يقود إلى الحرص على عدم كشفه؟.!
وعندما قال (الاشتراك في الجرم) ادرك غلطته.. لكن ليس كاللسان مما لا يمكن تفاديه عندما ينفلت.

***

وصل شيخ قبيلة المضطرة إلى مكان قريب من الحافة القريبة لمكان انتشار القبيلة المختارة، وحيثما نبهه أحد رجاله إلى ذلك، أمرهم بالمسير، حتى صاروا ملاصقين لمسرح ابل القبيلة المختارة..
أمرهم الشيخ أن ينزلوا من فوق ظهور الجمال، بعد ان تبرك كل في المكان المخصص لبناء البيت الذي يعود لصاحبه، لكن بدلاً من أن تكون هناك عائلة في كل بيت جعل في كل بيت مجموعة من الرجال حيث لم ترافقهم نساء ولا أطفال، إنما فرسان قادرون على حمل السلاح والقتال فحسب.
فعل الرجال ما أمروا به، بعد ان حدد شيخ القبيلة مكان بيته وأماكن بيوت قومه ووجودهم على يمين ويسار بيته، وأمرهم بأن لا ينسوا، وهم يبنون بيت الشعر، أن يجعلوا) الربعة) (٢)، أو الديوان من جهة شروق الشمس، في الوقت الذي يكون الطرف الآخر للبيت باتجاه مغيبها، سواء كانت قبلة البيت شمالا أو جنوبا.. وعندما يعترض احدهم بالقول إن ليس معنا عوائل، يا شيخ، ينهره الشيخ ويقول له:
ــ أتريد أن تغير عاداتنا وعادات العرب، يا حمار، لمجرد أننا وضعنا أنفسنا ضمن خطة جديدة لمداهمة العدو؟، ثم لو غيرت طريقة بناء بيت الشعر، فإن أي عابر سبيل سيكتشف حالتنا الشاذة، وعندها قد يقول إنهم ليسوا من أهل الديرة، أو دخلاء عليها، مما ينبه شيخ القبيلة المختارة وجماعته، ويجعل من الصعب علينا مفاجأته.
حط الرجال الأثقال عن إبلهم، وباشروا في بناء بيوت الشعر، وما أن تم بناء بيت شيخ القبيلة، وعدد من بيوت شيوخ القبيلة الأدنى مرتبة منه، حتى لاح لهم من بعيد خيال قافلة قادمة، ليس فيها خيول ولا جمال، إنما عدد من الحمير، قال ذلك من استطاع أن يراها من مسافة أبعد فحسب، وقد استنتجوا ان عدد العوائل في القافلة ربما لا يزيد على عشر.. وأراد بعض الشباب أن يستقبلوا القافلة على مسافة من ديارهم، ليبعدوا مسارها عن المكان الذي حطوا فيه، بعد ان امرهم شيخ القبيلة بذلك، إلا أنه انثنى بعد أن قال أحد الشيوخ:
ــ لو فعلتم ذلك، ربما ستثيرون اهتمامهم بنا أكثر، وربما حتى شكوكهم وهواجسهم إزاءنا.

بعد دقائق جاء مقدمهم، وسلم على شيخ القبيلة، قائلا:
ــ تشرفنا يا شيخ القبيلة المضطرة.
كان شيخ المضطرة يعرف هذا الرجل، ويعرف أنه وجه لناس من الغجر، الذين غالباً ما كانوا يتنقلون بين القبائل، لترقص نساؤهم عند من يستدعيهن لذلك، وغالبا ما يكون بيت أكبر شيخ في القبيلة مكانا للرقص، ثم يتناوب من بعده شيوخ القبيلة على استدعائهم لحفلات في بيوتهم، بعد ان يستأذنوا الشيخ الكبير. وهكذا حتى ينتهوا من ذلك، وبعدها يتحولون الى قبيلة ومنازل اخرى، ومن هذا يعيش الغجر ولا يعملون أبداً بأي نوع من أنواع العمل، إنما يمتهنون الرقص فقط، يرافق الرجال النساء إلى حيث يستدعين.. وعندما يبدأن الرقص، تكون شعورهن مغطاة بـــ) الفوط) (٤)، ولا تنزع أي منهن فوطتها، إلا عندما تترك إحداهن فوطتها لدى شيخ القبيلة، تقديرا له، ولإشعاره بأنها عائدة إليه بعد فاصلة الرقص، أو ينهض من ينهض إلى أي منهن ليطلب فوطتها، أو يؤشر لها بيده لتفعل ذلك، ومن تكون فوطتها عنده يعني انها ستجلس قربه بعد انتهاء فاصلة الغناء والرقص، ويتكرر الحال مع تكرار فواصل الغناء والرقص حتى مطلع الفجر.. ويرتاح الغجر وينامون في النهار، ويسهرون في الليل، ويتنقلون في البادية أو الريف، أو يحطون على اطراف المدن، ولا احد يؤذيهم، أو يغزوهم، أو يجبرهم على عمل لا يرغبون فيه، أو يجبر نساءهم على امر لا يرغبن فيه، هذا ما كان عليه حالهم، في تلك الايام والى وقت ليس ببعيد، اما الآن فقد اختلف حالهم، حيث صارت حفلاتهم الاساس في المدن، في بيوت من يستطيعون دفع المال لهم، وبالذات من يملكون مالا حراما يشوي البطون في الآخرة، ويخزي اهله في الدنيا، بعد ان جمعه من يأكلون السحت بعمليات مضاربة، أو بصفقات مريبة، أو تجارة لا تكتفي بحدود الله من الربح، أو أكل مال يتيم أو فقير، أو جراء سرقة ينتظرهم عقابها في الدنيا بقطع اليد أو العنق، عندما يكتشف امر السراق، أو الحبس الثقيل في الاقل، وصارت بعض نساء الغجر لا يتعففن عن الانحدار مع من ينحدر الى الفواحش على اساس عوامل دوافعها واغراءاتها، وصار ما يعد عيبا وعارا وشنارا على من يعتدي على غجري، يجري احيانا ولا يحس اصحابه بتعذيب ضمير أو برادع من المجتمع، على نفس ما كان يحصل ايام زمان، باعتبار ان الرجل ينتقص أو يذم ان هو نازل أو اعتدى على من هو ليس بكفء له.. وقد ساهم في اضعاف هذا الحاجز النفسي لدى الرجال ان الغجر، مثلما ترتبت لهم التزامات وفق القانون، بعد ان استقروا وتخلوا عن حياتهم السابقة، ومنها حياة الترحال والتنقل المستمر من غير ان يستقروا في مكان بعينه، صارت لهم الآن حقوق وواجبات مساوية لحقوق وواجبات الآخرين، طبقا للقانون، ومنها الخدمة العسكرية التي كانوا معفيين منها، ولكنهم في العراق، مثلا قلما تكون لهم واجبات قتالية، وفق ما نعرف، وانما يقومون في الغالب، وعلى اساس تشبثهم بأعمال الخدمة في مقرات بعض الآمرين، وربما حابى بعضهم الآمرين خفيفي الوزن باحياء حفلة رقص له، عند تمتعه بالاجازة.. الخ، ونساؤهم في العادة لا يسمحن للرجال بما يخزي اكثر، في تلك الايام، غير ما يقمن به من غناء ورقص.. وعندما نقول ان احدا لا يؤذيهم في الزمن القديم ولا يغزوهم، ذلك ان العرب لا يعدون الغجر قرناء صالحين أو اكفاء لهم، ولذلك كانوا يعيبون من يتزوج منهم، أو يغزوهم، ومن هذا كانت حريتهم في التنقل ليلا ونهارا، وبين قبيلة وأخرى، أكثر من حرية اي شخص وأي قبيلة من قبائل العرب..
ورغم ان كل الشيوخ الذين كانوا مع الشيخ الكبير ارتابوا من الغجر، وان شيخ القبيلة اظهر انه يرتاب منهم ايضا، ولكنه في حقيقة امره سر بوجودهم.. وكان سبب الارتياب ان الغجر عندما يكونون اليوم معهم فانهم قد يرحلون غدا الى القبيلة المختارة، و(من طباع الغجر انهم ينقلون ما يرونه، الزين والشين، والجيد والسيء، على حد سواء) ــ هكذا

قال احدهم وهو يعلن عدم ارتياحه لمجيء الغجر اليهم، ولكن الشيخ قال لمقدم الغجر:
ــ حطوا هناك ــ واشار عليه بمكان على مسافة قريبة من بيته من جهة مغيب الشمس ــ لتكونوا الطرف الغربي لمنزل القبيلة، ولا يكون لأي من القبيلة بيت متداخل معكم أو بعدكم من جهة المغيب.. وخذوا شاة، فاذبحوها وتعشوا بها، واعفونا من مهمة تضييفكم، ذلك لأننا في حالة رحيل..
سأله الغجري:
ــ اترحلون ليلا، يا عم؟
فأجاب الشيخ:
ــ لا، لقد وصلنا قبلكم بقليل، وعندما نكمل نصب البيوت سوف نستدعيكم الى حفلة رقص..
ما ان أخذ مقدم الغجر الشاة من بين عدد من الشياه تعود الى شيخ القبيلة، وقادها الى حيث نزل جماعته، وفق ما أمرهم الشيخ، حتى عنَّ له ان يذهب على الفور الى شيخ القبيلة المختارة تحت غطاء جلب خبز من هناك لتناوله ثريدا مع لحم الشاة، حيث لم يزودهم به شيخ القبيلة المضطرة، وهناك من يفضي الى شيخ القبيلة المختارة بما رآه واستنتجه لينال رضاه وكرمه..
قال مقدم الغجر في نفسه وهو يخاطبها بصوت مسموع:
ــ ان شيخ القبيلة المختارة افضل من هذا الشيخ، وهو وقبيلته اكرم من هؤلاء، واذا كان هذا قد اكرمنا اليوم لأمر اراده في نفسه، فانه سبق ان طردنا من دياره اكثر من مرة، ولم يعطنا ما نأكله، حتى عندما نرقص ونغني له لا يعطينا شيئا ذا قيمة، ثم ان هذا الشيخ جاء هو ورجال قبيلته ليغدروا بالقبيلة المختارة، وليس ادل على هذا مما رأيته، حيث لا نساء ولا اطفال برفقتهم، وانما رجال وسيوف ونبال.. الخ. انهم ينوون ان يأخذوا القبيلة المختارة على حين غرة وغفلة، لذلك عندما ابلغ شيخها، سيكرمنا، وستكون لنا دالة عليه.. وسأقولها له بمفرده، واشدد عليه ان يكتمها لكي لا يؤذينا شيخ القبيلة المضطرة فيما بعد..
ثم يعود ليقول:
ــ نعم، علي ان اقوم بهذا على الفور، لكي لا تفوتني الفرصة، وقد تفوت القبيلة المختارة فرصة الاعداد والتهيؤ لمواجهة العدوان..
ذهب من فوره الى هناك، واختلى بشيخ القبيلة المختارة، وابلغه بما رأى، وقال له استنتاجاته.
شكره شيخ القبيلة، واكرمه بكيس صغير فيه قطع ذهب، ووعده بما هو اكثر، وهيأ له كمية من الخبز، امر بجمعها من البيوت المجاورة لهم، كغطاء لعودته الى حيث مكان تجمع رجال القبيلة المضطرة، فيما لو رآه احد رجال القبيلة بعد عودته الى هناك.

***

اعد رجال القبيلة المختارة انفسهم لمواجهة نوايا المضطرة، وأمر شيخ القبيلة المختارة رجاله بأن يتجنبوا الاحتكاك برجال القبيلة المضطرة.. ولا يعطوهم بأي شكل من الاشكال فرصة ايجاد غطاء لعدوانهم، لاقامة الحجة عليهم، وقاموا بسلسلة من الاجراءات أهمها ان الشيخ أوعز للنساء بأن يسرحن بالاغنام والابل بدلا من الرجال في الاتجاه المضاد للاتجاه الذي اعتادوا ان تسرح مواشيهم فيه، وان يكون دونهن الرجال على ان يخلى الصف الامامي القريب

من القبيلة المضطرة من بيوت الشعر من ساكنيها، ويحتشد الرجال حاملو النبال معززين بالرماح في بيوت الشعر في الصف الذي يلي الصف الامامي، والصف الآخر الذي يليه، فيما يحتشد الفرسان على خيولهم خلف ذلك المنزل في الوديان الكائنة الى الخلف وعلى يمين ويسار أماكن (بيوتنا هذه) واشار بيده الى ما قصده.. وما ان حل الصباح، وقد تعمد مقدم الغجر ان يجعل كل رجال القبيلة المضطرة يسهرون مع فرقته وهم يستمعون الى غنائها، ويحتسون الخمر، ويتمتعون بمنظر الرقص والحركات البهلوانية لمن يقوم بها حتى الصباح، وكان آخر بيتي) نايل) رددهما مقدم الغجر على الربابة:

احوف من حبني مثل ما يحوف الذيب واجيب) اجلب) علم الصدك (الصدق) بلكي الجروح تطيب..

وقال ايضا:

الدرب ما كلفس المجبل على حبابو سلام زين الوصف ريح الهوى جابو وبعدها خرج مقدم الغجر من دار شيخ القبيلة الذي من فوره امر اصحابه بأن يمتطوا خيولهم، ويغيروا على ديار القبيلة المختارة..

لم يواجه رجال المضطرة في طريقهم الى القبيلة المختارة، ابلا ولا اغناما، فاستمروا يغيرون باتجاه بيوت الشعر، وعندما لم يجدوا احدا في الصفوف الامامية لبيوت الشعر، بما في ذلك بيت الشيخ وهو أكبر البيوت، تصوروا ان القبيلة خافت منهم، عندما علمت بوجودهم قربها، وهرب رجالها هائمين على وجوههم بمواشيهم، تاركين البيوت على حالها هي وما فيها من غنائم. ولأن اساس غزوهم وفي المقدمة شيخهم هو السلب والنهب والاستيلاء على الاسلاب، فقد نزلوا من فوق ظهور جيادهم، بمن في ذلك شيخهم، وكل منهم يسابق الآخر في الاستيلاء على بساط هنا أو فراش هناك، أو كيس تمر أو طحين، أو كمية ضئيلة من شعير أو ذرة، أو (عكة) زيت أو زيتون، وكل يضع على ظهر فرسه ما يستولي عليه، الا ثلة قليلة من الفرسان الذين رأوا غبار الماشية في الافق البعيد، فانطلقوا باتجاهها، وما هي الا لحظات، بعد ان قدر شيخ القبيلة المختارة ان القسم الاكبر من القبيلة المضطرة قد ثقل عليه حمله، حتى امر فرسانه المختبئين في الوديان ان انطلقوا. وبدأ رجال النبال والرماح ينقضون عليهم من كل ناحية، كل منهم حسب واجبه ونوع سلاحه.. وعمل السيف والاسلحة الأخرى في رقابهم، وفي الوقت نفسه، عزلوا الفرسان الذين انطلقوا معقبين الماشية والابل، وافرزوا لهم مجموعة من الخيالة لتعقبهم، وتستولي عليهم اسرى هم وخيولهم، فاعملوا السيف في رقاب الآخرين، وقتلوا منهم خلقا كثيرا، واستولوا على ما يملكون، واسروا اعدادا منهم، لم يطلق سراح اي منهم، الا بفدية مغرية لصاحبه الذي اوقعه في حبائل الاسر، مع حصة معلومة للشيخ في كل ذلك.

وهكذا نصر الله، اصحاب الحق المعتدى عليهم على اصحاب الطمع والضغينة والغدر، ولم ينج منهم الا ما يعادل ثلث العدد، ولوا هاربين، بعد ان رأوا شيخ القبيلة المضطرة يرمي ما حمل فرسه به من غنائم وقد هرب فوق ظهر فرسه قبل ان يجرب سيفه، عندما وجد نفسه في ذلك الموقف الشائك..

نعم، هرب شيخ المضطرة، وهل من مفر غير الهرب من الموت حتى لو كان ذلا لمن يفكر بالحياة على قاعدة ما هو ضعيف وخاسئ، وليس من بين اهدافه ما يعز ليعلي النفس والاعتبار!؟

1ــ الفروات، مفردها (فروة)، كنزة على شكل سترة، تخاط من جلود الأغنام بأصوافها، منها الطويل والقصير، يرتديها البدو وسكان المناطق الباردة في فصل الشتاء.

2ــ الربعة: مشتقة من الربع وتعني مكان جلوس الجماعة في عرف البادية.

3ــ الفوط: على وزن نقط، وهي غطاء اسود في الغالب كانت النساء، خاصة الغجريات يلففن شعورهن به.

4ــ الشف: دثار من الغزل يحاك يدويا ويستخدم كغطاء مثل البطانية.

(4)

في غياب شيخ القبيلة، وبمعاونة زوجة الشيخ، وباستخدامه اسلوب الاغراء، والفراغ الذي تركه غياب وجوه القوم في رحلة الغزو، نظم حسقيل شبكة من المستفيدين، واصحاب النفوس الضعيفة... وما ان خلا الجو لحسقيل، وباشر يمارس بعض الواجبات التي كان يمارسها الشيخ أو أبناء عمومته في القبيلة، حتى امالتهم مصالحهم ونفوسهم الضعيفة إليه..

نعم، هكذا ينساب الماء الضعيف إلى المنحدر، ولا يصعد العاليات، وتجد الجرذان فرصتها في أي فراغ بين جدران البناء لتنفذ إلى داخله، وتفرخ الافاعي في السقوف الهشة، أو بين الانقاض، وكذا تفرخ الشياطين، مثلما تفرخ العقارب في الجحور المظلمة وهوائها الفاسد، أو في غرف ودهاليز البيوت المقفلة التي لا يدخلها النور، ولا يتبدل فيها الهواء.. ثم أليس كثر من الناس، حتى يومنا هذا، يؤثر فيهم الحضور، ويردعهم الخوف من السطوة، وتراهم ينافقون بحضور مسؤول لا يقتنع أي منهم به وبدوره، وما أن يحتجب عن الظهور، أو يغيب عن كرسيه، أو يضعف ساعده على سيفه أو سوطه، حتى تسلقه ألسنتهم سلقاً، وما أن يستبدل بغيره حتى كأن القسم الذي أدوه بحضوره شيء لم يكن، أما صاحب الحضور في إدارة مسؤولية بعينها. أو عنوان قيادي على أساس تميزه بالخواص، لأداء واجباته على قاعدة مبادئ وعمق تضحية تقتنع بها الجماعة، فرغم ان حضوره ضروري لممارسة الدور القيادي بخواص القيادة وتأثيرها، واشهاد الجماعة على النموذج الحي الذي يكونه ليقتدوا به بعد ان يتعلموا منه، فإن غيابه لا ينهي تأثيره، حتى لو كان غيابه بالموت، أو الشهادة. وعلى اساس هذا يفهم لماذا وكيف اندثر الذكر الحسن لعناوين وعناوين، وعلى أساس ما هو نقيض، يفهم الموقف من سيدنا علي وسيدنا الحسين وسيدنا الحسن، رضي الله عنهم وارضاهم، هم والصالحين من ذريتهم وكل من عمل صالحا إلى يوم الدين.. نجد ان شجرة النسب لعائلة سيدنا علي محفوظة حتما بحفظ الله، سبحانه، وباعتزاز من ينتمي إليها ومحبة الناس لها.. وفي الوقت الذي كان اتباع السيد المسيح، هم والحواريون بأعداد قليلة في فترة حياته، ازدادت اعدادهم بعد موته، أو رفعه إلى السماء، إلا الديانة اليهودية، فإن عدد المنتمين إليها لم يزدد، إلا قليلا، ذلك لأن الدين اليهودي الآن ليس صحائف موسى عليه السلام، ولم يبن عليها، إنما على أساس ما اخترعه أو صوّره أو نسبه إلى ذلك دهاقنة اليهود وأحبارهم عند أسرهم في مدينة بابل التاريخية، وما اضافوا إليه بعد ذلك وفق النظرية الصهيونية العالمية ودورها التخريبي التآمري الاستغلالي في العالم، وعلى أساس ما تم وضعه وفق هذا لم يكن مقنعاً لأصحاب الحجا من الناس، فبقي المنتمون إليه يتناقصون ولا يزدادون، رغم ان دينهم اقدم الأديان بعد دين التوحيد لإبراهيم، خليل الله، وأبي الأنبياء.. أما الدين الإسلامي، فإنه بعد أن كان بالعدد القليل الذي كان عليه من أسلم في الحجاز قبل وبعد فتح مكة، فقد توسع وازداد عدد المنتمين إليه اضعاف اضعاف ذلك العدد بعد وفاة الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم.. حتى وصل إلى جنوب فرنسا من جهة الغرب، وأسوار الصين من جهة الشرق، على عهد الدولة الأموية.

لكن هل يكون لأصحاب الخواص الضعيفة، الذين لا يصلحون قدوة جمعهم، حضور في نفوس وعقول جمعهم، وتأثير في حالة غيابهم؟!، وعلى أساس هذا التساؤل، هل يصلح شيخ القبيلة المضطرة، الذي اضطر أهله وقبيلته للقبول به بعد موت أبيه فجأة من غير أن يسبقه مرض ينبئ بموته، مع معرفتهم بأنه لا يستحق المشيخة، وانه غير مؤهل لها..

بينما اختارت القبيلة المختارة، بتشاور اصحاب الحل والعقد، شيخها باقتناع وحماس، لأنه يحمل صفات القيادة لقبيلتهم؟.. وقد يكون هذا واحداً من أهم الأسباب التي جعلت النزاع محتدماً بين القبيلة المختارة والقبيلة المضطرة، بالاضافة الى عواملها وأسبابها الأخرى.

وعلى هذا وجد أصحاب الخواص الضعيفة، وفي المقدمة منهم حسقيل، ان الجو مهيأ ليصطاد في ماء عكرته دماء سالت من قبل، وخيول وجمال خاضت به في منازعات مستمرة، ولكن لم تصل الحال بينهما الى حد ان تغزو القبيلة كلها القبيلة الاخرى كلها، مثلما غزت القبيلة المضطرة هي وشيخها، بل وشيوخها بالمواقع الأخرى داخل القبيلة، القبيلة المختارة.

في هذا الجو، والحالة الهشة داخل القبيلة المضطرة التي تبدو فيها رؤوس أهلها كأنها ملتقية، لكن في إقفاص الصدور قلوب شتى، وبعد ان وجد ضالته في زوجة شيخ القبيلة، وبعدها بمن استضافهم وانزلهم على مقربة من ديارهم وهم مجموعة من الروم تضاعف عدد افراد القبيلة المضطرة او زاد عن ذلك لطمعه في تصريف بضاعته عليهم.

وفي هذا الجو ايضا سمعوا بالنكسة التي اصابت شيخ العشيرة ومن معه في غزوهم للقبيلة المختارة، قبل ان يصل شيخ القبيلة عائدا الى ديار عشيرته..

***

رغم ان زوجة شيخ العشيرة المضطرة نفرت من حسقيل باديء الامر، وهو يشرح لها خطته لاستدراج ابنتها الى فراشه، وذهبت تاركة اياه في بيته في بداية تلك الليلة.. ورغم انها لم تذهب الى بيت حسقيل في اليوم التالي، لكن ما ان حل منتصف الليلة التالية حتى وجدت نفسها غير قادرة على الاستغناء عن علاقتها به، لذلك راحت تذرع البيت جيئة وذهابا..

رفعت ابنتها رأسها من على الوسادة لتقول لها:

ــ اراك لم تنامي حتى الآن، يا امي.. ولم تذهبي الى حيث ينبغي.

قالت ذلك بصورة واثقة من انها تعرف كل شيء، وأي شيء، قالته وهي) تتمزمز) وتكاد تكتم ضحكة استهزاء خلفها ألم دفين في نفسها، واردفت تقول:

ــ حتى انني لاحظت انك عدت يوم امس في وقت مبكر، وانك لم تستطيعي ان تنامي وفق ما لاحظته الى الفجر.

عندما سمعت امها ذلك من ابنتها لذة، لاحظت انها كانت تقول ذلك وتكتم ضحكتها، لكن ليس بصيغة المتشفي او اللائم على عمل قبيح، وانما قالته بخلاف ما كانت تتصرف على اساسه في السابق، اي بلهجة اقرب الى التعاطف، مثلما صديقة تعرف عن صديقتها ما يعبر عن هوى نفسها وان لم تحزه او هكذا توهمت الأم.. لذلك قالت لها امها:

ــ أتذهبين معي لو ذهبت؟

اجابتها ابنتها لذة:

ــ وماذا افعل معك وما هو دوري؟

لاحظت امها انها قالت ذلك بصيغة المستفهم وليس المستنكر.. قالت الأم لابنتها لذة انها تخاصمت مع حسقيل في اليوم السابق وانها غادرت بيته محتجة.

لم تشأ لذة ان تسألها عن السبب، لانها قدرت ان أمها قد لا تريد ان تفصح عنه.

بعد تردد كان التمنع فيه اكثر من الامتناع والتمثيل فيه اكثر من الحقيقة، قالت لذة:

ــ لا بأس، لكن عليَّ ان لا ادخل البيت معكما!؟

قالت الأم:

ــ لماذا لا تدخلين البيت ونحن الآن في وقت متأخر من الليل؟ سوف يؤذيك البرد ان بقيت في الخارج..

قالت لذة:

ــ بيت حسقيل صغير (مكورن)، اي بعمودين ووجودي في الداخل يحرجكما.

واصرت على موقفها هذا، رغم محاولة امها لاقناعها..

قالت الأم:

ــ لا بأس، لكن عندما تبردين وتحسين بذلك، عليك ان تدخلي الى الربعة) الديوان..(

قالت الابنة:

ــ لا بأس.

عندها ذهبتا الى حسقيل وعندما دخلت زوجة الشيخ قالت له:

ــ لم آت اليك، وانما جئت اختار للذة هدية.

ــ الدكان امامك.. وفتح لها صندوق خشب كبيرا لتختار منه.

اختارت قلادة.. وقالت:

ــ احضر لي المرآة.. وكان حسقيل قد علقها امامها على عمود بيت الشعر، عندما علقت القلادة لصيق رقبتها، لتلاحظ ما اذا كانت تلائمها ام لا او هكذا تظاهرت، طلبت من حسقيل ان يربط لها ذؤابتي او نهايتي القلادة على رقبتها من الخلف.. وقالت بعد ان ادعت انها حاولت فأخفقت:

ــ لم استطع ربطها.. هلا عاونتني، يا حسقيل؟

قال حسقيل وهو) يتمزمز:(

ــ (ابدالك)، اي فداء لك.

امسك حسقيل طرفي القلادة من الخلف، وقرب جسمه منها وقبل ان يربط القلادة، استدارت نحوه وطوقته بكلتا يديها، وهكذا فعل هو الآخر وكل يعبر عن الشوق الذي يوسوس به الشيطان واستمر في هذا الحال وبعد حين ..وبعد ان انجزا العتاب بينهما.. قالت له:

ــ اتدري ان لذة خارج البيت الآن؟

سألها باستغراب:

ــ الى اين ذهبت؟ وفي ظنه انها خرجت من بيت ابيها.

قالت له: ــ لا، انا لا قصد خارج بيتنا، وانما جاءت معي.. وهي الآن في الخارج قريبة من بيتك، بانتظاري، لتعود معي عندما اخرج منك..

ــ ولماذا لم تقولي ذلك؟ ايجوز ان تكون خارج البيت في هذا الجو البارد؟ قال ذلك كأنه اراد ان يتظاهر بالحرص عليها اكثر من امها..

قالت وهي تسحبه اليها:

ــ لا عليك، اتركها فانها تتحمل البرد، وتعال اليَّ..

ولكنه قال لها بحزم:

ــ كيف يا أم لذة؟ كيف تقبلين هذا لنفسك؟ وكيف تقبلين عليَّ ان يكون ضيفي خارج بيتي..!؟

قال كل هذا بصورة مفتعلة، لانه ليس جزءا من عادته المعروفة، ثم اردف ليقول، وهو يلبس ثوبه ويسحب فروته المرمية على الفراش: ــ هاك خذي (الشف) (١) بدلا عنها وسوف اذهب بالفروة الى لذة لادثرها بها، ان لم تقبل الدخول الى (الربعة)، اما انت فلا تلحقي بي، لانني عائد اليك..

ــ لا بأس، لكن لا تتأخر.

خرج حسقيل ووجد لذة جالسة القرفصاء امام) مقادم) بيت الشعر.

سلم عليها، واقترب منها ليضع عليها الفروة..

قالت له:

ــ اشكرك، لا احتاجها.

ورغم انه كرر ذلك عدة مرات، فقد رفضت ذلك..

سألها:

ــ لماذا؟

ــ قالت وهي تضحك بما يشبه الغنج او هكذا ارادت ان توحي له:

ــ يقال ان في فروتك الكثير من القمل، لانك لا تغتسل! ثم قالت بليونة:

ــ حسقيل! ــ ها..

ــ لماذا لا تغتسل؟ اذا لم يكن لديك (شنان) لدينا الكثير منه وبامكاني ان اتيك به غدا، لو اردت او ابعثه اليك بيد واحدة من العبيد..

قال بشوق: ــ بل تأتين به بدلا من العبدة..

ــ لا بأس، وفي نفس الوقت، انا بحاجة الى قلادة ورغم انني كلفت امي بان تختارها، فانني افضل ان اتيك غدا لاختارها بنفسي، خاصة ان الاختيار في النهار غيره في الليل.. وارجو ان تقول لوالدتي ان ترجئ موضوع القلادة الى الغد..

وضع حسقيل يده على عينيه، ناقلا اياها من العين اليمنى الى العين اليسرى:

ــ بعيني هاتين.. وسوف اضع فروتي هذه على مقربة من فوهة تنور، وبعد ان اجد ان النار قد ضايقت القمل ودوخته، سوف انفضها للتخلص من القمل، وبعدها اضعها في الشمس اذا صادف ان يكون يوم غد مشمسا.. وعندها ستجدينني انا وفروتي في احسن حال.. قال ذلك تملقا بصورة مكشوفة.

وفي الوقت الذي كان شعاع السراج يتسرب اليهما ضعيفا من داخل بيت الشعر، كان كل منهما لا يرى من وجه صاحبه الا شيئا من بريق العينين.

سمعا صوت أم لذة تنادي:

ــ حسقيل! قالت لذة:

ــ اتركني، يا حسقيل، واذهب اليها.

لاحظ حسقيل انها قالت (اذهب اليها) ولم تقل) اذهب الى أمي..(
وهل تستحق هذه الداعرة صفة الأم من ابنتها؟ أليست حالة داعرة، بصورة مشددة، ان تكون الأم على هذا الوصف في علاقتها بأجنبي، وعلى معرفة من ابنتها؟ ان حالها يستحق هذا الوصف لانها تمارس الحالة الداعرة امام ابنتها!! قال حسقيل للذة، بعد ان امسك بمقدمة لحيته من الحنك:
ــ اعمليها (لخاطري) وادخلي البيت من جهة الربعة، وسأكون معها من جهة (الحرم).. قال ذلك كأنه اراد ان يشوقها الى ما يضمره ازاءها، وما يمكن ان تتهيأ عليه نفسها، عندما تحس بهما وهما في حال السوء وتسمع صوتيهما.
قالت البنت:
ــ لا بأس، ونهضت من مكانها ودخلت القسم المخصص للرجال من البيت، بينما دخل الى حيث زوجة الشيخ، امها، لا يفصل بينهم سوى رواق من الصوف.. ممزوج بغزول شعر الماعز، يردفه حصير محاك من قصب الزل او البردي.. وبعد ان استدار حسقيل الى الشيخة، سألته:
ــ ها، ماذا فعلت!؟..
ــ لم افعل شيئا..
ــ على اي حال، ان ما اردته وما طلبته مني فعلته، وعليك الباقي، رغم انني غير مقتنعة به تماما، اضافت (تماما) كأنها ارادت ان تخفف على حسقيل وقع انها لم تكن مقتنعة بالفكرة لكي لا يزعل منها.. وقد لاحظ حسقيل ذلك..
ــ المهم ان تساعديني في ذلك..
قالت مستفسرة:
ــ كيف!؟
ــ انت تعرفين كيف.. وفي كل الاحوال، تذكري ما اقنعك فيَّ وضيفي اليه ما اكتشفته في بعد المعاشرة.. قال ذلك وهو يضحك.
اجابته وهي تضحك ايضا:
ــ يا غبي، ان شعور البنت التي لم تجرب رجلا غير شعور المرأة التي جربت الرجل، ثم اتدري يا حسقيل، انني ربما لم اخترك، لو اتيح امامي غير الرعاة ممن يدخل الينا وندخل اليه من غير ان نتهم من القبيلة ابتداء؟ الا تختار غير المقتنعة بزوجها او زوجة شيخ مثلي، لمعاشرتها من لا يلفت الانتباه، ومن يظنه الناس مستبعدا عن الظن!؟.. وعلى هذا فقد لا ترى لذة ضالتها فيك..
قال حسقيل:
ــ لكن الانسان ابن محيطه والصغير يتبع الكبير وعندما ترى معاشرتنا بعينها، قد يغريها هذا.. كما انها شابة ولم يبق في الديار الا كبار السن من الرجال او الذين لا يجيدون استخدام السلاح.. وكل هذا قد يغير نظرتها واعود لاقول ان الاهم هو ان تحكي لها جانبا من تفاصيل علاقتنا، لتشويقها.. ان بعض البنات والاولاد يسعون في هذه السن لتجربة ما لم يجربوه، لو زل بهم الشيطان من باب حب الاطلاع او اقناع الذات بانهم صاروا في حال كامل..
وعندما لاحظ حسقيل انه قال (لو زل بهم الشيطان).. استدرك ليقول:
ــ انه لأمر طبيعي، كما علاقة النعاج بالكباش عندما تكبر النعاج.. هنا علقت أم لذة لتقول له:
ــ الحق معك في هذا التشبيه، بل الاصح ان تقول: كما علاقة العنزة بالتيس، لينطبق التشبيه عليَّ وعليك فحسب..

ثم اردفت:

ــ النساء لسن كلهن مثلي، يا حسقيل، والبنات لسن كلهن وفق ما تتمنى، وفي كل الاحوال، يعتمد الامر على مستوى الحصانة الذاتية والخوف من العقاب.. قالت الجملة الاخيرة كأنها ارادت ان تقرع نفسها، او هي فلتة لسان ما ارادتها ان تكون، لكن ما يخرج من اللسان يصعب لمه..

عاد حسقيل ليقول:

ــ اعول على ان تحكي لها تفاصيل علاقتنا بما يشوقها، وربما نسمعها شيئا عندما تأتي لتجلس هنا في البيت، خلف الستارة.. وفي كل الاحوال، لا اظن انها تخشى عقوبة الشيخ، ذلك لانني اعرف ان هذا الشيخ غالبا ما (يشوف بعينه ويغطي بذيله..(

قالت أم لذة، بعد ان ضربته بقفا يدها على وجهه:

ــ يا غبي، الشيخ ليس هو المهم، انما عمامه.. القبيلة كبيرة يا غبي، واذا أمنا عقاب الشيخ، فمن يعطينا ضمانة بان نأمن عقاب القبيلة وشيوخ آخرين فيها غيره!؟

ــ على اي حال، سوف اعاونك، فعاونيني لنكون بعد ذلك مطمئنين كلنا.. ثم تساءل بخبث:

ــ هل كل الشيوخ مثل ابي لذة؟

قالت له:

ــ لا، ليسوا كلهم، انما القسم الذي يكون مثله فهو مثله.. لاحظ مثلا شيخ القبيلة المختارة، فرغم انه خصمنا، لكن كل ما نسمعه عنه طيب، وبالمناسبة ــ قالت ــ انا لست مقتنعة بضرورة ان تغزوه قبيلتنا ولا ارى لذلك سببا سوى الغيرة التي في قلب شيخنا ازاء شيخ القبيلة المختارة وقد زدتها انت ولا اعرف لذلك سببا غير ان الطمع المشترك جمعكما وربما كان هناك ما هو اضافي لا اعرفه..

ضحك حسقيل.. وقال بنشوة:

ــ هل تقبلونني شيخا عليكم لو قتل الشيخ في هذه الغزوة؟

ورغم انها قالت: (ابعد الله الشر عنه)، فقد لاحظ حسقيل انها لم تقل ما قالته بحماسة، انها لم تقله بورع، في كل الاحوال..

وقال:

ــ انه محض تساؤل، فأنا ايضا اتمنى له العودة سالما..

ــ على اي حال، لا داعي لتستبق الاحداث.

قالت ذلك وهي ترتدي ملابسها وتقول:

ــ لقد تأخرنا.. وربما (رص) البرد ضلوع لذة.. كأنها ارادت بقولها الاخير ان لا تسد الباب عن مواصلة الحديث في الفكرة او في الاقل التأمل فيها..

في اليوم التالي جاءته لذة، بعد ان قالت لامها انها ذاهبة الى حسقيل لتختار قلادة، وفق ما اشارت الى ذلك في الليلة الماضية، وقد لاحظت امها انها قالت ذلك، في الوقت الذي كانت امها منشغلة بعدد من (شيخات) القبيلة اللائي جئن لزيارتها، وعندما لاحظت ان ابنتها مصرة على الذهاب، وانها لن تنتظرها ..قالت لها:

ــ خذي معك العبدة فلانة.

ــ بل العبدة فلانة، قالت لذة، وقصدت ان تأخذ العبدة التي كان عمرها لا يزيد عن عشر سنين، بينما ارادت زوجة الشيخ من ابنتها لذة ان تأخذ ام العبدة الصغيرة.

عرفت الأم قصد ابنتها عندما اختارت العبدة الصغيرة، او هكذا تصورت، ومع ذلك لم تستطع ان تجادل ابنتها، او تمنعها بسبب وجود ضيوفها.. لكنها قالت في نفسها: لماذا أمنعها مما رأتني فيه؟.. وعندما تقول: اذا كانت ابنتي لم تمنعني مما قمت به لانها غير قادرة على ان تقوم بهذا علي، أليس من واجبي ان أمنعها عن عمل اميزه عقليا بأنه خاطئ ومنحرف ومشين، بغض النظر عن نوع مشاعري الشخصية ازاء ما هو مثله لو تعلق الامر بي؟ وهل يكون تورط ابنتي كأنه في حكم الحال الحتمية، لانني تورطت؟ ثم تعاود، بعد ان انشغلت عن ضيوفها بأمر كأنها تتابعه، مع انها في حقيقة الامر لم تفعل الا متابعة تساؤلاتها مع نفسها: ولكن ماذا يحصل، كرد فعل من حسقيل، لو منعتها عنه؟ ترى الا يعاقبني؟ وماذا لو هجرني؟ الا تكون حالي حال من يجرد من ملابسه ممن يسلبها منه، ولا يدافع عن نفسه وعن ملابسه، ويولي هاربا وهو يقول لمن سلبوه ملابسه: اراهن على انكم غير قادرين على اللحاق بي فيضحكون عليه، ويقولون له: لم يبق لديك ما يغرينا على الركض وراءك.. فاذهب راشدا.!؟ ثم تعود لتقول: سأخسر المتعة، بعد ان خسرت الشرف.

وبعدها تقول: أليس الافضل ان اقبل بهذا الاحتمال لاحافظ على السمعة، حتى رغم علمي بأن شرفي قد ضاع؟ أليست السمعة المعروفة بقياسات حسنة في الشكل العام غطاء للشرف المهدور، من غير ان يعرف صاحبه ويسمى عليه؟ وعندما لا يعرف احد انه قد هدر.. أليس الافضل ان احافظ على شرف ابنتي وسمعتها، واحافظ على سمعتي بين الناس، رغم انني اعرف ان شرفي قد هدر، وان حسقيل وابنتي يعرفان هذا؟ ثم تظهر مترددة امام نفسها، لا تعرف اي قرار تتخذ.. ومع ذلك تقول :لأترك هذه الهواجس الآن، ريثما تعود لذة.. ولكن ما ادراني، فقد يتمكن حسقيل منها في هذه الزيارة!! ثم تقول: كان علي ان اصر على ان ترافقها العبدة الكبيرة.. وعندها تعلق: وماذا يمكن ان يفعله مملوك غير ان يغطي على عيوب سيده؟ وحتى لو اوصيها بما اوصيها به.. هل تستطيع ان تمنعها عندما تريد؟ ثم تعود لتقول: لن تستطيع ذلك، لانها في الاقل لن تنسى انها عبدة، وان ابناءها عبيد، وحتى لو ماتت سيبقون عبيدا للشيخ، وانها عند ذلك ستحسب الحساب حتى لعلاقة ابنائها مع لذة، لو صارت في يوم من الايام بموقع الشيخة الذي انا عليه، لذلك حتى لو ذهبت العبدة الكبيرة معها، لن تستطيع ان تفعل شيئا امام رغبة حسقيل وضعف لذة. ثم تعاود القول: اذا كنت، انا كبيرتهم لم اصمد امام شراك والاعيب حسقيل، فكيف يمكن ان تصمد ابنة غرة امامه، بعد ان بدأت قبلها طريق الانحراف، ووصلت الى حضيضه؟ ثم تنهمر دموعها، وبعد ان تكفكفها تبدو كالمحطمة، وعندما تعود الى نساء القبيلة، ويلاحظن انها بكت يهوِّنّ عليها بقولهن:

ــ لا تبكي، ان فلانا ــ ويقصدن شيخ القبيلة ــ سيعود هو واصحابه وقد غنموا مالا كثيرا، بعد ان يقهروا القبيلة المختارة.. وفي ظنهن انها كانت تبكي تنفيسا لحسرة في صدرها على غياب زوجها.

عندها تبتسم وتقول:

ــ لا عليكن، ان شؤون الدنيا كثيرة، والوانها متعددة.

***

ذهبت لذة الى بيت حسقيل، ووجدت انه اعد نفسه بانتظارها ودخلت ومعها شنان وضعته في صرة.

تناول حسقيل الشنان، وشكرها عليه، ثم اندفع بصورة مرتبكة، وانتزع فروته من على القاطع بين مكان الرجال حيث جلست العبدة الصغيرة، وفق ما امرتها سيدتها، ومكان الحريم حيث يقفان ــ حسقيل ولذة ــ وقال لها وهو يفتح الفروة ليريها اياها:

ــ الآن هي خالية من القمل.. لقد نفضتها فوق نار التنور، وابقيتها طيلة النهار مفتوحة ومنشورة، تضربها الشمس على الحبل الوسط لبيت الشعر.. انظري هنا حيث ظهر الفروة من الداخل.. وانظري هنا تحت الابط والاكمام ..انها خالية من القمل تماما، وسوف اغتسل بالشنان الذي جئتني به وفق ما امرتني.

كان حسقيل يقول ذلك بارتباك واضح، وبدا كأنه مهووس.. ثم فتح صندوق الخشب الكبير الموضوع في صدر البيت، اقرب ما يكون الى قاطع وسط البيت او ملاصقا له ..وقال: ــ هذا الصندوق وما فيه من ذهب وانا في خدمتك، فخذي اي شيء مما فيه، واتركي ما تشائين.

كان الصندوق مصنوعا من الخشب الهندي، ومزخرفا بزخرفة الهند، تتوسط الطبقة العلوية من الصندوق قطعة حديد تتعشق مع نتوء من الحديد مثبت في وسط الصندوق في القسم الاسفل منه، وعندما يتعشقان مع بعضهما ويربطان بقفل، يكون الصندوق مقفولا في الوقت الذي ثبتت على غطائه الاعلى من الداخل مرآة يحلق لحيته امامها، او يرى شكله بها، هو ومن تشتري منه الذهب.. وكان هذا الصندوق مثل او قريبا من الصناديق التي كانت جداتنا وامهاتنا قبل سبعين او مائة عام، يضعن ملابسهن فيه، ويضعن معها صابونة افرنجي (ام الريحة)، وفق ماكُن يسمينها، لتتعطر بها ملابسهن، ويبعدن العث عنها بصورة او بأخرى.

فتح حسقيل الصندوق وعرض ما فيه من ذهب.. وتناولت لذة قلادة منه، وعندما ثبتتها لصيق رقبتها من غير ان تربطها، قالت لحسقيل بغنج، ومن غير ان تستدير ناحيته، حيث كان يقف خلفها قريبا منها:

ــ حسقيل، هل تعجبك هذه!؟

اصفر وجه حسقيل، واضطربت شفتاه، وصار بالكاد يبلع ريقه، وهو يقول (فديلك).. كل شيء تلبسينه يصير حلوا.

اقترب حسقيل منها اكثر وهو يقول: ــ هل اربط لك القلادة؟ لكنه قالها هذه المرة بثقة اكبر رغم انه لم يتخلص من اضطرابه، مع انه هذه المرة لم يكن اضطراب تحسب من النوع الذي يسبق المحاولة، ولا تعرف على وجه اليقين عواقبها، ورد فعل المرأة عليها، وانما اضطراب الرغبة الجامحة التي اجتاحته حين قالت له «حسقيل هل تعجبك!؟.« ألا يكفي الرجل هذا كاشارة دالة على رغبة المرأة فيه، او ايهامه بهذا، في الاقل؟ بل هل ينتظر رجل غريب من امرأة ما هو اوضح من هذا ليعرف رغبتها فيه، او يتوهم في ذلك، وبخاصة عندما ينفردان في مكان واحد؟

كرر حسقيل تساؤله:

هل اربط لك القلادة من الخلف؟

ــ نعم، لو سمحت.. ورفعت طرف ملفعها المتدلي على ظهرها من الخلف، واظهرت له رقبتها، ثم انحنت برأسها للامام قليلا، في الوقت الذي ابقت يديها مرتفعتين ممسكتين بطرفي القلادة وهي تشير اليه ان امسك بطرفي القلادة مني.

وجد حسقيل فرصته ليقترب منها، منها الحد الذي اقترب جسمه من جسمها من الخلف، حتى كاد يلتصق بها، ولكن يديه كادتا، وهو يفعل ذلك، تعجزان من شدة ارتعاشهما عن الاحتفاظ بالقلادة من طرفيها، بل تعذر عليه ان يعقد طرفي القلادة..

ــ حسقيل، ماذا حصل لك؟
ــ صبرك علي، يا من فداك روح حسقيل.. قالها ايضا بصورة متلجلجة من شدة ارتعاشه، ولكن ما ان استدارت بوجهها اليه، حتى حاول ان يلثمها، فدفعته بقوة عنها، وخرجت والقلادة بيدها بعد ان قالت له:
ــ اذا كنت لا تستطيع ربطها، اتركها لي سوف احاول ربطها.
ــ بل استطيع ربطها!! ان صبرك علي كان قليلا..
قالت جوابا على ما غمزها به:
ــ ولكن صبرك قليل ايضا.. اترك هذا الآن حتى اعتاد عليك، اترك هذا، لئلا اتأخر عن والدتي التي تنتظرني في بيتنا، وسوف آتيك مساء اليوم، بعد ان تغتسل... ولا تضع الفروة على جسمك حتى تغتسل تماما بالشنان الذي جئتك به.
قال حسقيل وهي تهم بأن تخرج من البيت: ــ ولكن، ماذا عن والدتك..
ــ سأقول لها ان هذه الليلة ليلتي.. او اجد العذر الذي يصلح غطاء.. الا يعجبك ذلك؟
ــ ثم عادت لتقول مع نفسها: وهل يعجز من يقرر، ويقدم على انحراف او غطاء، او حتى ذريعة لفعله!؟
ــ بل اموت في ما تقولينه، وروحي (فداك.(
عندما مرت هي وحسقيل على عبدتها الصغيرة وجداها لمت جسمها، وضمت ركبتيها الى بطنها، لتتقي برد آذار في بلاد الشام ونامت فوق برذعة حمار، بعد ان لمت يديها ايضا، ووضعتهما بين فخذيها، ذلك ان الانسان كلما قلص المساحة السطحية لجسمه صار البرد اقل عليه..

***

خرجت لذة وعبدتها الصغيرة تمشي خلفها.. كان ربيع آذار (يدفن) قدميها، وهي تسير باتجاه بيتها.. وثغاء البهائم الصغيرة يأتي من كل بيت شعر في اشارة الى حاجتها الى امهاتها في الوقت الذي كانت الحمير ومنها حمار حسقيل، تنهق كعلامة على رغبتها في ان تقوم بدورها الطبيعي في ادامة الحياة، بعد ان تخلصت من برد الشتاء وجوعه.
بينما كانت لذة تمشي مختالة وهي تردد مع نفسها: يا كلب، وتقصد بذلك حسقيل، سوف اكشف كل غاطسك واعلمك ان بنات العرب غير بنات العجم. وقد غمزت في هذا من امها باعتبارها لم تكن من اعمامهم وانما هي اعجمية..
وبينما هي تسير في الربيع باتجاه بيتهم.. انزلقت احدى قدميها في حفرة عميقة نسبيا، لم تكن قد تبينتها بسبب كثافة العشب، ووجود احجار قريبة منها، فالتوت ساقها، وكسرت قدمها من الكاحل، وبعد عدة صيحات ألم، أغمي عليها في المكان ولم تفق الا بعد ان نقلتها امها بمساعدة نساء الحي الى البيت.

1ــ نبات كان هو الوسيلة الاساسية لاغتسال البدو والحضر.. بعد ان يطحن او ينقع.. ثم يغتسل به وبمائه.. ويقابل الصابون في عصرنا.

(5)

كان الطب شعبيا آنذاك، يعتمد على الاعشاب والمتمرسين فيه من اصحاب الخبرة فحسب، حيث لا مدارس ولا كليات ولا من يعلمه لغيره، الا من خلال المعايشة والممارسة التي تفرضها حاجة المريض، وحاجة من يمارس الطب.

كانت الكسور تجبّر عادة بربط عيدان حول الرجل، او الساق، او اليد من كل الجهات.. ولفها بخرقة بعد تنقيعها بصفار البيض، او (النورة(، وتثبيتها كلها بخيوط حول المفصل او العظم المكسور، والتوصية بعدم الحركة اذا كان الكسر في القدم او الساقين او الفخذين او ان تكون الحركة محدودة اذا كان الكسر في الايدي. واذا ما اكتشف المجبر ان الربط ليس صحيحا بعد عدة أيام، وأراد أن يعيد الكسر إلى ما كان عليه ليعاود ربطه من جديد، لف منطقة الكسر بسمكة ليوم واحد او من المغرب حتى ضحى اليوم التالي وعندها يجد الكسر قد عاد الى خط البداية، وقد تكون اسهل على المريض من العملية الجراحية في العصر الحديث، حيث يعاد العظم الى ما كان عليه عند خط البداية بدلا من التئامه المخطوء.. وفي كل الاحوال، فإن التوصية بإطعام المصاب لحما لا يتنازل عنها من يمتهن هذه المهنة ولا المريض، بسبب قلة من يتناولون اللحم ايام زمان، في غير مناسبات متباعدة بعينها في السنة الواحدة غالبا ما لا تتجاوز اصابع اليد الواحدة او اصابع اليدين.. هكذا كان حال الناس في الوطن العربي كله، وهكذا على سبيل المثال كان الحال في العراق حتى اواسط السبعينات من القرن العشرين.. اذ ان اكل اللحم في الريف العراقي حتى السبعينات من القرن العشرين، انما كان يحصل في مناسبات بعينها عندما يتوفى الله من يتوفاه او عندما يحصل زواج او ختان او دعوة لمناسبة بعينها، ومن ذلك ان يكون الضيف على القبيلة رجلا معروفا من قبيلة اخرى، جاءهم من مسافة تجعل ضيافته واجبة، واذا كان هذا يجري في العراق على هذا المجرى حتى السبعينات، فبإمكان من يتصور ان يقدر الوضع في بلاد الشام قبل ألف وخمسمائة عام او نحو ذلك!! بدت نصيحة الطبيب الشعبي كأنها نزلت من السماء، وامرت الشيخة، أم لذة، بذبح شاة على الفور، وبقيت تفعل ذلك بين يوم ويوم طيلة الفترة التي غاب فيها زوجها عن الديار، لتعالج ما كانوا فيه من حرمان تحت غطاء الضرورات الظرفية، وليس استجابة لحاجة لذة مكسورة القدم اليه فحسب.
كان حسقيل يزورهم في البيت ليطمئن على لذة، وفي الوقت نفسه ليطمئن على شؤون البيت، وصار يأمر الخدم والعبيد، وصار ابناء العشيرة لا يخرجون عن اوامره مع غياب الشيخ، وكان الكثير من رغباته ينفذ، بل راح بعضهم ينفذها بحماسة، وعندما ينتقد احد حماستهم لتنفيذ اوامر حسقيل، يقولون له ان القوة الآن بيد حسقيل ونحن لا قوة لنا في مواجهته، لذلك فإن طاعته اصبحت واجبة.
ــ وهل تطيعونه لانكم ترغبون في هذا أم لانكم لا تعرفون مواطن ومصادر قدرتكم لو رفضتم طاعته وهو غريب وانتم ابناء القبيلة؟
يقولون له:
ــ ان مصلحتنا تقتضي ان نلثم اليد التي لا نستطيع ان نلويها في مواجهة، وان نفعل الشيء نفسه لو كانت تنفعنا بشيء..
ــ حتى لو كان هذا على حساب مصلحة القبيلة، واخلالا بتقاليدها وتراثها ودينها؟
عندها يقولون:
ــ دعك من هذا، ان من يتزوج أمنا يصير عمنا.. يقولون هذا منساقين خلف مثل شعبي يعبر عن مرحلته ومرحلة

ضعف الناس فيها او غامزين من علاقة حسقيل بزوجة الشيخ.. وكانوا مبهورين بقدرة حسقيل على ادارة شؤون القبيلة في غياب شيخها ومتمتعين بثنائه عليهم وما يخصهم به من دريهمات او فتات، بل ان قسما منهم مقتنعون بأن اوامر وتوجيهات حسقيل ادق من تلك التي كان شيخ العشيرة يصدرها لهم، عدا عن ان بعض ابناء العشيرة صاروا يستفيدون من (خبرات) حسقيل، بعد ان باتوا ضمن شبكة الدعاية والعيون التي نشرها على القبيلة.

كانت أم لذة تتردد على حسقيل في كل ليلة، وكان حسقيل يزور بيت الشيخ في النهار او بالاحرى يرابط في) الربعة)، وكلما وجد فرصة استدار الى قسم الحريم او وقف ليغازل لذة او أمها، من خلف القاطع الوسطي. ولكن يبدو ان كسر كاحل لذة مع الاسباب الذاتية جعلها تصحو على نفسها وجعلها تتردد ازاء رغبات الحد الادنى لحسقيل، ومن ذلك كانت تستثقل كلام الغزل الذي كان يغمزها به من خلف القاطع، كلما وجد الى ذلك فرصة، لكن وضع قدمها ورقودها في الفراش جعلها غير قادرة على ان تفعل ما خططت له.. بالضد من رغباته.

***

ــ حسقيل؟ سألت لذة..

ــ نعم.. أجاب حسقيل..

ــ لماذا امتهنت الحدادة ومن بعدها صياغة الفضة والذهب الآن؟

ــ وأي مهنة تريدينني ان امتهنها غير هذه المهنة.. أأرعى الاغنام أم الجمال أم ماذا؟

فقاطعته قائلة:

ــ بل تمتلك الخيول والجمال والاغنام والبغال وهناك من يرعاها لك.. على حد علمي، فإن جدك كبير قومه، صار بعد الدعوة التي يتحدث عنها وبعد ان أمن بها كثير من الناس، كأنه كبير كل الاقوام، بفضل حكمته وورعه وعدله.

ــ لم أشأ ان املك الخيول والبغال والجمال والغنم.. ان عبئها كبير وقيمتها أقل من الذهب، قال حسقيل.

ــ لكنها، هي والزراعة، القياس العام للثروة في حياة الناس الآن.. وقلة ضئيلة، بل بعض النساء فقط هن اللائي يجرين خلف ملكية الذهب والفضة.. اجابته لذة. ــ وما ادراني، يا لذة، لو ملكت الخيول والاغنام والابل.. ربما كنت الآن قد مت قتلا، حيث سيطمع الناس في ما أملك؟

ــ ولكنك الآن تمتلك الذهب والفضة ولم تمت قتيلا..

ــ نعم، الآن املك الذهب والفضة.. ولا أحد يغزوني.. لان الصائغ لا يكون علم قومه، رغم قيمة ما يملك، انما شيخ العشيرة.. ثم ان العرب لا يغزون اصحاب الحرف، ويعتبرونهم ضعفاء ولا يشاركون قومهم في غزو، انما يصنعون لهم عدة الغزو مثلما افعل الآن ونمارس الغزو بطريق آخر.. نحن نستولي على ملكية الآخرين برضاهم.. بل برغبتهم مع رضاهم من غير ان يسيل دمنا.

ــ وكيف؟! ــ نبيعهم ونستولي على ما في جيوبهم.

ــ ولكنك الآن، تتمنطق بسيف وخنجر.

ــ نعم، اتمنطق بسيف وخنجر، لكي اشعر الآخرين بضرورته في الحياة.. ولكي اناول أيا منهما لمن يتشاجر قربي، اذا كان سيفه او خنجره بعيدين عنه في اللحظة التي يقرر ان يجعل الدم يسيل من صاحبه.

ــ ولكنك، على هذا تكون شريكا في الجريمة امام الله، على وفق مبادئ جدك ابراهيم، وعلى وفق مبادئ محمود

ويوسف من بعده.. قالت لذة.

ــ ولكن ليس على مبادئ شريعتي وما أؤمن به، بل لا يهمني حتى ان اكون شريكا في الجريمة على وفق ما اشرت اليه، وانما ان يرتكبها غيري بيده، من غير ان ارتكبها بيدي.. الا لو اضطررت اضطرارا لكي لا تكون لي عداوات شخصية مباشرة تؤثر سلبيا على تجارتي بالحلي والسيوف والخناجر والرماح والنبال، لكن كلما ساد الوئام بين الناس، افتعلت بينهم ما يشغلهم ببعضهم ويوفر لي فرصة افضل في جني الارباح.

ــ ولكن، لو ساد الوئام بين الناس واستقرت نفوسهم على الأمن والسلام، لاشترت النساء منك ذهبا وفضة اكثر، بعد ان يوفر الرجال ما يملكون، ولا يصرفونه على الرماح والخناجر والسيوف والنبال.

ــ عند ذلك سأربح من بضاعة واحدة، وعندها سيكون ربحي منها، مهما بلغ، اقل مما لو تعددت وتنوعت مصادره.. ثم ان الاستقرار قد يجعل لي منافسين آخرين كثرا في مهنتي، بينما يشغلهم القتال فيما بينهم بتنمية عوامل الفرقة والغدر والثأر، وعلى هذا الاساس اشجع الغزو، لكن لا اشارك فيه مباشرة، انما بصورة غير مباشرة واشجع الاحتراب بين الناس بسيوفي واروج لحسن صفاتها، لكن لا أستخدم سيفي بصورة مباشرة الا مضطرا..

ــ وعلى هذا الاساس افسر سبب عدم مشاركتك ابي في الغزو.

ــ لا.. ليس لهذا السبب وحده، انما لاسباب اخرى ايضا، لا مجال لان اقولها لك الآن يا لذة.. لاسباب اخرى.. كرر الجملة الاخيرة، وسكت.

عاد شيخ القبيلة المضطرة بمفرده اولا، وجاء بعده من نجا من الاسر او الموت.. وكانوا يصلون في غير انتظام وبمعنويات محطمة تماما مثل جيش ينكسر، ليس بسبب تفوق عدوه عليه في الكثرة او السلاح، انما في الروح المعنوية ويتضاعف الشعور الذي يخزي النفس، اذا كان الجيش المكسور بلا هدف مشرف استدعاه للقتال او ان يكون الاعتداء منه على غيره واضحا وبينا، فكيف اذا كان شيخ القبيلة، مع هذا كله، اول من دعا الى الغزو والعدوان واول من هرب من المعركة من غير ان يجرب سيفه؟! لقد انطبق كل ما في هذه المفارقات من سلبيات، وما يخزي اهلها ويضعفهم، على حال شيخ القبيلة المضطرة اولا، وعلى الهاربين معه من ساحة المعركة.. جاءوا مكسورين نفسيا، بل محطمين تماما.. ومثلما هو معروف في الظروف التي تنكسر فيها الجيوش والزمر والمجموعات، يكثر تبادل الاتهامات واللوم والتعنيف والتنصل من كل واي شيء كان سببا في الهزيمة، لكن الجمرات المحرقة وكل ما هو مخز كان يرمى بها على شيخ القبيلة المضطرة.. أليس الاسم العالي بيرقا لجماعته في المواقف المشرفة والاسم البين والاظهر في الشهرة من غير تاريخ مشرف، مزبلة للنفايات اذا اخزى نفسه وجماعته في المواقف؟ وهل هناك ما هو اخزى من ان ينهزم القائد او اي عنوان متقدم ويترك جماعته نهبا لاسلحة العدو؟ وهل يستحق، بعد ذلك صفة القيادة؟ او بالاحرى هل يستحق غير ان يرجم ويجلل بالعار؟

وجد حسقيل والبطانة التي كونها قبل وفي غياب الشيخ وفرسان القبيلة، ضالتهم في هذه الهزيمة وصاروا بعد ان جمعوا المعلومات التفصيلية عن سير الاحداث وطبيعة المواقف، يمعنون تجريحا او يوسعون جراح من اصابه مشرط الحقيقة على موقفه، فأصابت سهامهم شيخ القبيلة بوصفه الهدف الاسهل لان يصاب.. كان حسقيل يقول، وهو يحدث شيخ القبيلة:

ــ لقد استعجلت في الهجوم، سلمك الله، بخلاف ما اوصيتك ونصحتك به، فقد قلت لك: جاور خصمك واستطلعه واتخذ عليه حجة، عند وقوع خصمك في اي خطأ تجاهكم او ان تفتعل ما يجعلك تصوره خطأ وتحرشا منه بكم لتقيموا عليه

الحجة وتضعفوا موقفه في علاقته مع جمعه وقد فعلت العكس، حيث اقام عليك الحجة امام جماعتك.. وفي الوقت الذي قاتل في مقدمة جمعه، هربت، كما علمنا، قبل ان تجرب سيفك.

ثم يعود حسقيل ليقول بخبث:

ــ يا جماعة، لقد امضيت في صناعة سيف طويل العمر وقتا اطول بكثير مما امضيته في صناعة سيوف الآخرين الذين قاتلوا.. بأمل ان يفي طويل العمر حق السيف وصنعته وكان اثمن عشرة سيوف مماثلة او اكثر لكثرة ما حوى من جواهر رصعت بها قبضته ليدل على عنوان صاحبه..

ثم يلتفت الى الشيخ، ويقول:

ــ لقد اوصيتك بأن لا تهاجم الا وفق تدبير تعده سلفا وان توزع الواجبات الى حد الرجل الواحد، حيث يعرف واجبه، لكنك هاجمت عدوك من غير خطة.. واوصيتك بان تهاجم في ظلام، حتى لو جاء هجومك آخر الليل، فالليل ثقله على اهله اذا ما اقترنت معه المباغتة والتدبير.. ولكنك هاجمت عدوك بعد طلوع الشمس، وبعد ان انهكك وانهك فرسان القبيلة سهر الليل، واحتساء الخمر مع الغجر ــ ثم يقول حسقيل ويكرر كلامه ــ اقول لك يا شيخ: الصحيح ان فرسان قبيلتنا رجال طيبون وفرسان جيدون لو كان الرأس فيهم شجاعا ومدبرا.. قائلا هذه المرة (فرسان قبيلتنا) بدلا من (فرسان قبيلتك)، وكأنه منهم نسبا، وموقفا وشعورا وليس رغبة في انجاح خطته وتوفير الغطاء لها فحسب.. فعل ذلك ليكون كلامه مؤثرا برجال العشيرة تماما، ولكي ينتقل كلامه من الرجال الى النساء عندما يحكون لهن.

***

استغل حسقيل الفرصة ليحطم شيخ القبيلة وفق تدبير مسبق، ليكون هو شيخها وفق ما فعل في وطننا العربي الكبير بعض الاعاجم الذين لم ينسبوا انفسهم الى بطون العرب المعروفة، وانما حتى الى ساداتهم، لولا حماية الله لشجرة آل البيت.

كان حسقيل قد اتفق مع الشيخة على الكثير مما يضمره، بما في ذلك ان يحل شيخا محل شيخ القبيلة المضطرة، واعدا اياها بالزواج بعد ذلك، لتقوم هي بدورها بين النساء، بينما يقوم هو وشبكته بما يقومون به بين الرجال.. ولقد اتفق معها، بعد ان سمعوا بالهزيمة (الكسيرة) التي حلت بالقبيلة، وهروب الشيخ من ساحة المعركة، على ان يقيم فور وصول الشيخ مأدبة كبيرة في بيت الشيخ على نفقة حسقيل، ويدعو لها كل من في العشيرة من الرجال تحت غطاء تكريم من وصلوا بسلامة، وفي مقدمتهم الشيخ، وأوصى الشيخة بأن تقيم مثلها للنساء لتقوم بما يقوم به مع الرجال، مع تكييف كل حالة وفق جنس مستمعيها..

كان رجال القبيلة ينصتون الى حسقيل وهو يتكلم، ووجد كل منهم غطاءه في هزيمته، بعد ان انصب لوم وتجريح حسقيل على شيخ المضطرة فحسب، أو وجد أولئك الذين اصابهم جرح نازف بموت ابنائهم، أو ذويهم، أو اسر الآخرين، متكأ ليحاسبوا شيخ القبيلة، وهكذا اقترح احدهم ان يعودوا، بإشراف حسقيل، ليجتمعوا في بيت حسقيل، وعندما قال احدهم ان بيت حسقيل لا يستوعب العدد، قال حسقيل:

ــ بل يستوعب.. وانا منذ الغد سأشتري بيتا كبيرا يستوعب رجال العشيرة من أهل الحل والعقد، بالاضافة الى فرسانها، ثم اننا الآن في بداية شهر نيسان، وليس في شهر نيسان برد مفاجئ، ولذلك تصلح هذه الارض كلها مضيفا للفرش وموائد الطعام، ثم قال:

ــ ابشروا، ابشروا، يا اعمامي، اي، نعم في بيتي، في بيت ابن اخيكم، والقلب أوسع لكم محبة وضيافة، تردفه العيون، يا ولد العم، يا اهلا وسهلا بكم.

قال أحدهم:

نعم، نجتمع في بيت حسقيل، بعد ان نعرف من سيأتي الينا حيا بعدنا، ونتعرف تفصيليا على من مات، أو وقع في الأسر.

قال ابن شيخ قتل ابوه في المعركة:

ــ بل نلتقي بعد اسبوع من الآن، لكي لا يبقى هذا الموضوع معلقا، وتبقى القبيلة من غير شيخ.

قال شيخ القبيلة المضطرة، بعد ان كان يستمع اليهم مطرقا:

ــ اتقول، يا ولد، ان القبيلة من غير شيخ، كأنك تقرر ذلك؟. وهمَّ بأن ينهض ليضربه، لولا ان اجلسه حسقيل في مكانه..

وعاد ابن الشيخ يقول..

ــ نعم، ان القبيلة من غير شيخ، لأن من لا يقاتل مع القبيلة، ويحمي من يحتمي بسيفه، لا يصلح ان يكون شيخا على القبيلة، وبدلا من ان تهم بأن تضربني، كان يفترض بك ان تضرب عدونا.. أم ان همتك لا تكتشف، ولا تستخدم، الا على ابناء جلدتك؟

واراد ان يسترسل بعد ان غير جلسته، ليكون في وضعية طوى بها رجليه تحته، واتكأ على ركبتيه وسيفه في حضنه، كأنه يتأهب ليفعل شيئا، لولا ان حجز حسقيل بينهما، بعد ان اجلس الشيخ في مكانه، واشار بيده الى ابن الشيخ الآخر ليسكت، فسكت..

عاد ابن الشيخ ليقول:

ــ بعد اسبوع من الآن في بيت حسقيل.

نبهه احدهم الى ان ذلك اليوم سيكون يوم سبت، فقال:

ــ بعد ستة ايام من الآن نكون على الغداء في بيت حسقيل، لنناقش أمورنا ونتخذ تدابيرنا، ومن لا يوافق يرفع يده.. ولم يرفع أحد يده غير الشيخ.. رفع يده كأنه سلم ضمنا بأن من يدير جلسة القبيلة هو ابن ذلك الشيخ باشراف من حسقيل.. وبذلك انفضوا بأمل ان يلتقوا بعد ستة ايام على الغداء في بيت حسقيل.

***

كانت زوجة شيخ القبيلة المضطرة قد استغلت تقليدا عند نساء العرب هو ان يقسمن بأن لا يستقبلن الرجال في مخادعهن عندما يكونون، فرادى أو جماعات، في موقف غير مشرف، ولذلك التقت بنساء القبيلة، وحرضتهن على ازواجهن ليهجرنهم في المخادع، واعلنت انها لن تستقبل زوجها في مخدعها منذ ذلك اليوم، وانها ستطرده من البيت الكبير الى بيت يبنونه له بعيدا عن البيت الكبير، ليكون فيه ريثما تقرر القبيلة مصيره، فإن جردته القبيلة من صفة المشيخة، طردته نهائيا من حياتها، وقالت: «هذا هو عهدي امامكن.«

اثار قرار الشيخة حماس النسوة، لانهن لم يكن يعرفن نواياها الحقيقية، وفي كل الاحوال، كان قرار الامتناع عن قبول الرجال في المخادع تقليدا للعربيات في علاقتهن بازواجهن ان اصابهم ما ينتقصهم ..ولأن صفة النقيصة تنطبق على

من يهرب من جبهات القتال، فقد انطبق القانون على أولئك الهاربين من المعركة، وهو اجراء يحض على الموقف العالي، والتصرف الذي يستلزم التضحية من الرجال حتما، وقد اتخذنه فعلا.. ولكن زوجة الشيخ استغلت ذلك لمآربها ..فهل يمكن ان يعاب تقليد اصيل، يقوي ويعمق جذور الجماعة، وثوابتها الاصيلة، بما يعز قومها، حتى لو استغل هذا ضعيف نفس هنا أو هناك لمآرب خاصة!؟ ان العيب لا يكون في استغلال التقليد الاصيل والتمسك به من أهله، حتى لو استغل من قلة باتجاهات غير الاتجاهات الصحيحة، وعكسه، التمسك بالتقليد الاصيل، والبناء عليه من غير تفريط أو تساهل فيه بما يسمح بدخول الهواء الفاسد، والفعل الذي يعيب من الثغرات.. وقد طردت الشيخة زوجها، بعد ان عزلته في بيت (مكورن) اي بعمودين بدلا من البيت (المثومن)، اي بثمانية اعمدة.. وصار حسقيل يتصرف في البيت الكبير، ليس بصفة مشرف عليه فحسب، وانما بصفة صاحب الامر والنهي، تسنده زوجة الشيخ في كل هذا، وتقف ابنته كأنها في موقف محرج بين حال ابيها وموقف امها منه، وما جعلها على هذا الحال هو ان موقف ابيها كان غير مشرف بل مخزيا، عدا مجاملتها لحسقيل، الذي عرفت ان هواه مضاد لهوى ابيها، وموقف امها التي لم تتبين بعد نواياها الخفية لتعرف كيف تتصرف.

***

خلال الايام الستة التي سبقت اجتماعهم المقرر، عقد حسقيل سلسلة من الاجتماعات واللقاءات في بيته الذي استأجره من اقرب تاجر، بدلا من ان يشتريه، ولكنه كان بيتا كبيرا بستة أعمدة، وليس كبيته القديم ذي العمودين، وكانت شقق البيت الجديدة كلها محاكة حديثا من شعر الماعز، بدلا من ذلك القديم الذي غالبا ما كانت شققه مهترئة.
كان حسقيل يعقد الاجتماعات بصيغة دعوات ينظمها، ويقدم الطعام فيها بسخاء، رغم بخله، بل كأنه في الدعوات التي اقامها، غادر ما هو معروف عنه من بخل ينتقل بالعدوى حتى لمن يجاوره ويتأثر بطباعه.. الا يغطي من لديه غرض سيئ غرضه بما يضحي به، اذا اقتضى الوصول اليه صرف الاموال؟ ثم ان حسقيل، الذي يحسب لكل فلس حسابه، رسم لما بعد الوصول الى هدفه، ان يسترجع الفلس بأضعافه، بل كأنه اراد، وهو يصرف على الدعوات، أو اعد ليكون كل فلس يصرفه مدخلا الى فرصة صممها لتحقيق مآربه.. وكان حسقيل، عندما يحضر الرجال دعوته، يفتح موضوعات ديونه عليهم بصورة غير مباشرة، أو يتفق مع احد افراد الشبكة، رغم انه مدين له، ليقول له:
ــ والله، يا حسقيل، يا طويل العمر، انت تعرف الحال، وان ما حصل لنا كبير، فنرجو ان تضع هذا في اعتبارك، فاصبر علينا بضعة أشهر اضافية، وبعدها نسدد لك الدين مع فوائده.
ويقول حسقيل:
ــ الأمر هين، انا اعرف الــظروف، واعرف كل شيء، وسأتصرف.
ويسكت من غير ان يقطع بشيء حاسم..
ثم يقول آخر:
ــ يا طويل العمر، يا شيخنا..
وعندما يقول (يا شيخنا) تنتفخ اوداج حسقيل فرحا، ويجفل ابناء عمومة الشيخ المهزوم.
ثم يقول حسقيل:
ــ ما زال فلان هو الشيخ، شيخ القبيلة المضطرة، الا اذا قررتم شيئا جديدا.. فالمهم عندنا ان تتفق القبيلة على من

ترى انه صالح لقيادتها.. ثم يردف:

ــ كان الله بعون من يكون شيخا للقبيلة، فهو يحتاج الى مال لكي يطفئ نسبة الفائدة في الاقل نيابة عن المدينين بثمن السلاح، اذا لم اقل نسبة من قيمة ديون السلاح ايضا، ثم ان القبيلة اذا ارادت ان تأخذ بثأرها لما اصابها فهي بحاجة الى مدبر، لا ليعرف كيف يدبر امور القبيلة فحسب، وانما لينشيء تحالفات بعينها مع القبائل القريبة والبعيدة، ومن ذلك قبيلة الروم التي صارت منا وصرنا منها. ثم انه بحاجة لأن يتمعن في الكيفية التي يساعد بها الارامل واليتامى بعد هذه النكبة.. و.. و.

كان حسقيل يقول كل هذا كأنه ينسج صورة لا تنطبق الا عليه، او انه يوحي، ويجعل شبكته تنشط لتروج قول ان مثل هكذا مواصفات تنطبق على حسقيل وحده، حتى ان بعض الشعراء صاروا يصفونه بغير صفاته، وصار البعض الآخر، وهم يتحدثون فيما بينهم عمن (يرْهَمٌ) يصلح شيخا للقبيلة، يقولون: ان حسقيل منا.. يا اخي، ان القول المأثور (من عاشر القوم اربعين يوما صار منهم) ينطبق على حسقيل، وقد مضى على حسقيل معنا زمن طويل، الا يكفي هذا لأن نجعله منا، أو كأنه منا، لنختبر كفاءته في القيادة؟

ويقول آخر:

ــ ماذا يحصل لو اعطيناه فرصة لنعرف كفاءته ونواياه؟.. وماذا نخسر ان لم يعجبنا؟ يا اخي ــ يقول لمن يعترض ــ فعندها نستبدله بشيخ جديد..

ثم يردف قوله:

ــ الم نختر قبله ذلك الشيخ الفاشل في كل شيء.. فلا هو بكريم، ولا هو بحليم، ولا هو بمقتدر!؟ لماذا لا نعطي حسقيل فرصته؟ ثم ان حسقيل ثري، وهو الذي يصنع لنا السلاح، فماذا نعمل لو طلب منا اداء اثمان الاسلحة مع فائدتها الآن؟ في الوقت الذي يكون عدد كبير منا منشغلا بالتفكير في ما يعمله، وكيف يدبر فدية رقاب الأسرى.

وعندما يسأل آخر:

ــ ولماذا لا نختار ابن عمنا فلانا؟

يقول من يعترض عليه:

ــ وماذا نأمله في ابن عمنا؟ لقد جربنا الشيخ الذي نحن بصدد خلعه، ولم ينفعنا بشيء رغم انه ابن عمنا.. ثم ان حسقيل رتب تحالف القبيلة مع قبيلة الروم الكبيرة، ومن تكون قبيلة الروم معه لا يغلب، عدا انه سيطور الوضع الاقتصادي لقبيلتنا، ويحسن سلاحنا.. ويجعل من يعترض على ولايتنا غير قادر على تغييرنا بعد ان نحظى بوعد، وحماية شيخ قبيلة الروم لنا بأن يقاوم اي رغبة بهذا الاتجاه.

ــ وعندما يتساءل احدهم بالقول:

ــ اذا كانت قبيلة الروم حليفة حسقيل، وستكون حليفتنا، فما هي حاجتنا للاسلحة!؟

يجيبه احد ازلام حسقيل:

ــ لنواجه بها قبائل العرب، اعداء حسقيل، واعداء الروم.

واذ ذاك يتبادل اثنان من الشباب النظر فيما بينهما، ثم ينهضان تاركين مكان النقاش.

وعندما يقول له أحدهم:

ــ كان اختيارنا لأبي لذة خاطئا بالاساس، ثم، الا تتذكر ان القبيلة الفلانية التي غلبتنا فرضته علينا في ذلك الوقت، بعد

ان قتل شيخنا ذاك الشهم في المعركة، عندما قالوا لنا انهم لا يطمئنون على علاقتهم معنا، ولا يقيمون معنا الصلح ما لم نقبل بهذا شيخا، وقد قبلنا به على هذا الاساس، ولم نختره نحن، بل كأنهم قد تعمدوا آنذاك ان يختاروا الاردأ من بين رجال القبيلة، فلنختر واحداً من الفرسان الجيدين من أبناء عمومتنا.. بديلاً له، وليس حسقيل..

عندها يصيح به آخر:

ــ دعنا، يا أخي، من تكرار قولك.. أبناء عمومتنا.. أبناء عمومتنا.. لنترك عمومتنا جانباً، ولنجرب اختيار أجنبي، حتى لو لم تعتبروا حسقيل منا، ماذا به حسقيل؟

ثم يصيح عدد من الحضور بصوت واحد ليرهبوا الحاضرين:

ــ بل حسقيل منا..

ويصيح آخرون:

ــ نريد حسقيل شيخاً لنا.

ويقول أحدهم ضاحكا:

ــ بل أنا على استعداد لأن أزوجه ابنتي فوراً.

ويقول آخر:

ــ وأنا أيضاً، أعطيه أختي من غير متأخر الصداق.. يكفيني ما يقدمه لي مقدماً بما يجود به! كانت هذه الاتجاهات بوجه عام، وكل ضمن تفاصيل يومه، هي الاتجاهات الأساسية التي كانت تدور حولها اللقاءات التي يجريها حسقيل مع من يحضر إلى بيته.

لاحظ الرجال أنهم ما أن يعودوا إلى بيوتهم حتى يواجهوا تساؤلات ومفردات أحاديث من زوجاتهم، أو أمهاتهم، أو اخواتهم، وكأنهن كن يحضرن الاجتماعات، وقسم كبير منها لصالح حسقيل، مع تمنيات تتعلق بالنساء المعنيات بأن يجود حسقيل على من يجود عليها (بمحبس) خاتم من ذهب أو فضة، أو بسوار، أو قلادة، لو فاز بالمشيخة، وكل منهن ترسم الخيال المناسب لثقل وزنها في القبيلة، أو لمستوى جمالها.. وعلى طرف الرجال المعنيين يمنّي كل نفسه بما يمكن أن يجود عليه حسقيل، ورضاه عنه بمال أو جاه، أو ما يثبته شيخاً على قبيلته، أو يمكّنه من كرسي مشيخة يناوئ عليه أباه أو ابن عمه أو أحد شيوخ عشائر القبيلة..

وما أن حان الموعد الذي حدّدوه، حتى التقى رجال القبيلة في ذلك اليوم، لكن حسقيل، بدلا من جعلهم يلتقون في بيته ذي الأعمدة الستة، فقد جمع شيوخ العشائر التابعين لهذه القبيلة في اليوم الذي سبق يوم اللقاء، ورجاهم أن يكون اللقاء الأول في بيت شيخ المضطرة بوصفه البيت الأكبر.. وأنه سوف يضمن لهم عدم حضوره، لكي لا يقول أهله وأبناء عمه إن اللقاء حصل في بيت حسقيل ذي الأعمدة الستة، بدلا من البيت ذي الأعمدة الثمانية (وبذلك يجدون مدخلا للطعن بقراراتكم).. هكذا قال حسقيل.

ثم أردف قائلا:

ــ ثم ان البيت صار الآن بيت أم لذة، بعد أن طردته منه.

وقال آخر:

ــ يا أخي، إذا كان الاعتراض على عدد أعمدة البيت، لنجعل عدد الأعمدة في بيت حسقيل سبعة بدلا من ستة، لنجعله ذا أعمدة ثمانية، بإضافة عمودين على الأعمدة الستة من غير مقطع اضافي في البيت.

ثم يعترض شاب لم يهرب من المعركة، وقاتل ببسالة:

ــ يا اخوان، ان الموضوع ليس موضوع عدد الأعمدة وإنما الفكرة، هل نلتقي في بيت شيخ العشيرة وتحت إشراف عدد منا، أم نلتقي في بيت حسقيل وتحت إشرافه؟

ثم يقول آخر:

ــ لديّ فكرة: لماذا لا نلتقي في بيت شيخ قبيلة الروم، وبذلك نحل الموضوع، ولكي لا نترك لدى أحد حساسية من الذين يتحسسون من حسقيل وبيته..

يعترض أحدهم ليقول:

ــ ليس المهم التسميات، إنما الفكرة، هل نقبل بأن يشرف أجنبي على مناقشاتنا ويوجه اختيارنا لشيخنا، أم نحل شأننا بأنفسنا، وبإشراف واحد من أبناء عمومتنا؟

ينفض حسقيل عباءته بحركة تمثيلية واضحة ويقول:

ــ إذا كان حضوري هو المشكلة، سأترك المكان.

صاح العدد الأكبر من شيوخ العشيرة بصوت واحد:

ــ بل يبقى حسقيل والروم الموجودون بيننا، فكلهم اخواننا، ولا فرق بيننا وبينهم.

وافق شيوخ العشائر المنتسبون لتلك القبيلة، ومعهم أغلبية الحضور.. رغم اعتراض أحد الشيوخ بقوة على هذا، وسحب صلاح سيفه وهو يصيح بقوة:

ــ ان هذا غدر.. ان هذا خيانة لتاريخنا وتراثنا، وتضحيات أجدادنا وآبائنا، حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه، قبل أن يصير أبو لذة شيخا علينا والآن تسعون لأن يصير حسقيل شيخا علينا مع كلب الروم، بل ان تصرفا هكذا وصفه يعتبر خيانة حتى لدين من هو على دين حقيقي منا.. خيانة للحاضر وللأجيال من بعدنا.. فوالله لن ارضخ لأمر يسيئ لكل هذا، ولن يرهبني ويجعلني لا أقرر طريقي واختياري بنفسي، أنا وعشيرتي، ولن أخشى حسقيل ولا الروم، ولا أخشى من يرضخ صاغراً مخزياً لهما.

وعندما يعترض أحد الشيوخ يصيح به بقوة.. وعندما يهم أن يهوي عليه بسيفه يسقط على ظهره حتى تظهر عورته.. فيضحك قسم من الشباب، بعد أن يخرج الشيخ الشهم، على منظر جُبن مَن جَبُن.. عندما واجه ذلك الشهم الضعفاء.

من جانبه، كان حسقيل قد رتب الأمور مع زوجة الشيخ، لذلك كان الاجتماع في بيت الشيخ، واختيار وجهاء وشيوخ العشائر أن يكون حسقيل هو الذي يدير الاجتماع، وعندما حاول أن يظهر شيئاً من التمنع التمثيلي، قام كثر منهم إليه، ملحفين الرجاء، هذا يقبّل كتفه، وذاك أنفه، والآخر جبينه، أو كتفه، وصغار السن يقبّلون يديه، وكلهم يرجون حسقيل أن يقبل الإشراف على مناقشة مصير القبيلة، إلا واحداً من الحضور، كان رجلاً مهيباً، قاتل قتالاً مشهوداً عند المنازلة مع القبيلة المختارة، رغم أنه أساساً لم يكن مقتنعاً بضرورة شن الغارة على تلك القبيلة، ولا بأسبابها ودوافعها.

لذلك عندما نزل رجال المضطرة من على صهوات جيادهم لينهبوا حاجيات بيوت المختارة قبل أن تبدأ المنازلة، بقي هو على ظهر جواده، ولم يشترك في جمع الأسلاب، وجعلته حصانته الذاتية وروحه العالية، وشجاعته، من بين القلة النادرة، بل في مقدمتهم، مع ما سجل من علامات متقدمة على من قاتل فعلا، لذلك كان آخر من انسحب من المعركة، ولكثرة ما سال على قبضة سيفه من دماء، جفت على كفه اليمنى بسبب الإمساك بالسيف لمدة طويلة، وهو يهجم بأمل أن يخلص أكبر عدد ممكن من الوقوع في الأسر.. ولأن الدماء جفت وجمدت على كفه وهي ممسكة بالسيف، فإنه لم يتمكن من فتح قبضة يده ويخليها من قبضة السيف، إلا بعد أن نقعها في ماء دافئ عند أعرابي استضافهم وهم في طريق العودة إلى ديارهم بشهادة من كانوا عائدين معه، إلى قبيلتهم بعد الغزو الفاشل.

قال صلاح، بعد أن نهض ليتكلم وقوفاً:

ــ إننا أبناء قبيلة واحدة، نحن الحضور هنا في دار الشيخ الذي خزينا به قبل أن يخزي نفسه، ذلك لأن من لا يستحي من العار لا تخزيه نفسه إذا ما ارتكب ما يعيب، أقول، نحن الموجودين في هذا البيت، كلنا أبناء قبيلة واحدة، إلا حسقيل، ومن احضرهم معه، فهو رجل غريب، والذين معه غرباء ايضا، بل جاءنا دخيلاً، وقبلنا أن يعيش بيننا كمستضعف، ويعمل وفق مصلحته صائغاً أو حذّاء للخيل، أو حداداً وصانعاً للأسلحة، لكن لا يجوز أن نبحث شؤوننا بحضوره، خاصة في شأن مصيري كهذا.. وفي كل الأحوال، لا يجوز أن يكون حسقيل مشرفاً على حوارنا هنا، أو شيخاً علينا..

وفي الوقت الذي كان يقول ذلك، كان كثر من الجالسين يشوشون عليه، وبعضهم يحصبه بالنوى أو الحصى الصغير، بعد أن كان حسقيل قد قدم لهم تمراً، قبل الغداء، وقد أراد بهذا لا أن يظهر لهم كرمه، إنما يجعلهم يتناولون التمر،

وينكبون على شرب الماء، بما يجعلهم مقلين في تناول الطعام الذي أوصى أم لذة أن تزيد سمناً لكي لا يبالغ الشرهون في تناول الطعام.. هكذا قال حسقيل للشيخة أم لذة.

ــ وبذلك يا شيخة، بإمكاننا بأقل ما يمكن من الذبائح والثريد أن نجعلهم يشبعون.

ورغم ان الحاضرين كانوا يشوشون على صلاح، ذلك الرجل الوقور الشجاع، فقد واصل كلامه، وقال:

ــ انني اعترض على وجود حسقيل وأي غريب بيننا، ولكي لا تتصوروا أن اعتراضي على حسقيل لسبب ذاتي، فأنا لا أرشح نفسي شيخاً للقبيلة، وإذا كنتم لا توافقون رأيي، فأنا أعلن انسحابي من هذا المكان، وسأعزل منزلي عن منزلكم حتى تصحوا على زمانكم، وتلتزموا بتقاليد آبائنا وأجدادنا، وتحترموا حقوق القبيلة ومبادئها.. ومن يتبعني فليتبعني، ومن يبقى فعليه إثم ذنبه.

نهض، ونهض معه عدد من الشباب الذين كانوا يحضرون هذا الاجتماع، ولم يبق إلاّ عدد قليل من الشباب لم ينسحبوا، مع عدد آخر من اعمار أكبر منهم، وأغلبهم كانوا كهولاً أو شيوخاً، وأثناء عبوره آخر صف من الجالسين، لطم وجه من كان يحصبه وهو يتكلم فسقط على الأرض، وتدحرج غطاء رأسه، وعندما حاول بعضهم أن يتجاسر عليه، سحب سيفه، وسحب الشباب الذين نهضوا معه سيوفهم ايضا، وهنا قام حسقيل ليقول:

ــ) اخوي راشدة)، اترك الرجل يرحل، ولا تعملوا لنا قصة، يا اخوان نحن لسنا بصدد ان ننشغل ببعضنا الآن، فلذلك شأن آخر، قد يأتي وقته لاحقاً.. لا تضيعوا علينا فرصة تدبير امرنا، ثم استدار ليهمس في أذن شيخي أكبر عشيرتين في القبيلة، كان أحدهما يجلس على يمينه، والآخر على يساره..

ــ سوف يعاقبه شيخ الروم على موقفه.. لا تقلقوا.

قال حسقيل ذلك، ليجبر الخواطر، ولكي لا تضيع عليه الفرصة التي خطط لها ..حتى انسحب الرجل الشجاع هو ومن تبعه من شباب القبيلة.

جلس الباقون، كل في مكانه.. وأمر حسقيل العبيد أن يصبوا القهوة للضيوف.. هكذا قال ليوحي بأنه صاحب البيت.

قال أحد الحضور:

ــ لنبدأ.

وبدأ ينتقد تصرف الشيخ أبي لذة..

تبعه آخرون، كل يصف عيوب الشيخ، وكان شيخ المضطرة، في الواقع، مليئاً بالعيوب.

قال أحدهم:

ــ لماذا لا نحضر الشيخ، لنسمع منه؟

نهره أحد شيوخ الروم ..فسكت.

***

استمرت محاكمة الشيخ حتى قرروا خلع صفة المشيخة عنه بحضور الجميع، وبإشراف حسقيل، وعندها صاروا امام ضرورة ان يختاروا شيخا للعشيرة بدلا من الشيخ المخلوع.

قال أحدهم:

ــ انا ارشح نفسي لهذا المنصب.. ومن لديه اعتراض فليقله.. قال ذلك بعد ان سحب سيفه من جنبه، وشهره بوجه من

قد يعترض، وقام خلفه ابناء عمومته والاقربون، ومعهم بعض الروم، وهم يسحبون سيوفهم ويشهرونها.. وهكذا فعل آخر، ومعه فعل المقربون اليه، ثم ثالث ورابع وخامس، حتى لم يبق وجه وشيخ من وجوه وشيوخ العشائر ضمن تلك القبيلة الا ورشح نفسه، وسحب سيفه، ومعه اتباعه يشهرون سيوفهم بوجه المجهول..

هنا قال حسقيل:

ــ يا (هالربع)، في مثل هذا الجو، من الصعب ان نختار من بيننا شيخا للقبيلة، وأخشى ان تحصل مذبحة بيننا، اذا اخترنا من بين الحضور شيخا لنا، بسبب تعارض الرغبات والاتجاهات.. ومن اجل ان نحقن الدماء ونحافظ على وحدة القبيلة، اشير عليكم بأن نحكم في امرنا شيخ القبيلة الرومية، فهو رجل حصيف، وفوق ذلك شيخ أكبر وأقوى قبيلة، وهو فوق كل ذلك، تحمل عبء ومخاطر الطريق ليجاورنا هو وقبيلته، أليس من الحكمة ان نعطيه فرصة ان يقول في امرنا رأيه، وهو شرف كبير لنا لا يدانيه شرف!؟

قال حسقيل ذلك وهو واقف، وعندما جلس صفق له كثير من شيوخ العشائر في القبيلة المضطرة، الا واحد اعترض على المقترح، وقال:

ــ انني افضل ان نحل امرنا بأنفسنا، بدلا من الشيخ الذي اقترحته، يا حسقيل.

وعندما رفض الحضور الرأي الوحيد للشيخ المعترض، قال حسقيل:

ــ اذن، على هذا الاساس، اعتبر ان شيوخ عشائر المضطرة قد وافقوا على مقترحي، الا شيخ عشيرة واحدا.

أصبح تحكيم شيخ الروم حالة ملزمة وواجبة طبقا لقرار اتخذه عدد من شيوخ عشائر القبيلة.. ورغم انهم لم يكونوا الاغلبية، ولكنهم فرضوه كأمر واقع، على اية حال.

نهض شيخ الروم، وتنحنح، وكلما تنحنح، قال له اقربهم:

ــ ابشر، ابشر، والله يا طويل العمر، لن نخرج عن مشورتك (شورك) وما تقرره، انت (خوينا) الكبير، وصاحب السطوة العالية في هذا الزمان.

عندها قال شيخ القبيلة الرومية:

ــ اجد صعوبة كبيرة في أن اختار واحدا منكم، بعد ان رأيت ما انتم عليه من فرقة، لذلك أرى، من اجل مصلحة القبيلة، ان يكون حسقيل شيخ قبيلتكم..

ثم اردف:

ــ ان حسقيل ذو تدبير، وهو يصنع السلاح، وله وكالات للمال والدعاية كثيرة، ويقيم معنا علاقات نثق بها ونأتمنها، وعلى هذا الاساس فنحن ايضا بامكاننا ان نساعدكم، وعندما تكون ايدينا بايديكم، ويكون حسقيل شيخ قبيلتكم، فإن كل شيء ممكن، بما في ذلك ان نتكاتف على قهر القبيلة المختارة.

ورغم اعتراض شباب القبيلة الذين ليس في ايديهم حل ولا عقد، صفق شيوخ عشائر القبيلة الا واحدا، قام وقال:

ــ انا ارفض هذا الاختيار، انه اختيار مهين لقبيلتنا، وانا اعترض عليه.

قال شيخ الروم:

ــ ولكننا سنحارب من يرفض.. وسوف نكون جميعا متحدين ضده.

قال ذلك الشيخ:

ــ انا ارفض هذا الطريق، ومع انني لا اريد الحرب، ولكن عندما اكون مضطرا عليها سوف اقاتل..

ومع ان شباب القبيلة صفقوا له، فإن ايا من شيوخ عشائر القبيلة الذين وافقوا حسقيل لم يأخذ برأيه، لذلك غادر الجلسة..

قال حسقيل:

ــ اشكركم اخواني، وأبناء عمومتي، على اختياركم اياي شيخا للقبيلة المضطرة.. سوف اسقط عنكم نسبة الفائدة على الديون المقررة بذمتكم.. وسوف أمنح كل شيخ من شيوخ العشائر في القبيلة مبلغا من المال يدبر به شؤون بيته، ويديم شراء القهوة ليقدمها في مضيفه، وكل على اساس وزن عشيرته، وسوف اخصص نسبة مما تجمعه العشيرة من عملها وثروتها لشيخ قبيلة الروم ليديم دعمه لنا، وكاعتراف منا بجميل اسناده، وصنيعه.. فنحن من غيره لا نستطيع ان نستمر في مشيختنا.

التفت حسقيل الى من كان يجلس جواره، ووجده يضحك، فقال:

ــ ان الطامعين في مشايخنا كثر، وان قوتنا غير مهيأة دائما لتكون في وضع تستطيع ان تصد عنا طمع الطامعين، خاصة اذا ما ظهروا لنا من بين صفوفنا.. ولذلك فإن حاجتنا دائمة، يا ابن اخي، للقبيلة الرومية وشيوخها..

وأضاف:

ــ اشكر لكم جميلكم وصنيعكم، واذا وافقتم، فانتم مدعوون في بيتي اليوم، لنحتفل معا انا وجماعتي.

قال (جماعتي) كأنها فلتة لسان، وكان يقصد شبكة العيون والدساسين، ومتسقطي الاخبار، لكنه استدرك ليقول:

ــ عفوكم، اقصد انا وقبيلتي، نساء ورجالا، اليست الحفلات المختلطة افضل، يا جماعة الخير؟

صاح قسم من الشباب بحماس:

ــ بلى، يا شيخ.

وقال احد الحضور، وهو ثمل ويمسك بيده قنينة خمر من فخار، وباليد الاخرى قدح فخار ايضا، وبعد ان ملأه من القنينة رفع القدح الى الاعلى فوق رؤوس الجالسين، وصاح بصوت متقطع، ووجهه يتصبب عرقا، وهو بالكاد يجد بداية الكلام ليقول:

ــ بصحتكم.. بصحة حسقيل..

قالها متقطعة هكذا:

بـــــ ..صحـــ.. ــتكم.. بـــ.. ــصحة.. حســــ.. ــقيل.

وقد اجابه شيخ قبيلة الروم بلغة اجنبية:

ــ (تشيرز).. ــ ثم استطرد حسقيل:

ــ ومعنا شيخ قبيلة الروم، نساء ورجالا، لنحيي حفلة مشتركة حتى المساء، ولنشاهد رقصات ودبكات الروميات، ومعهن، أو الى جانبهن شيخات قبيلتنا، بالاضافة الى رجال القبيلتين.

قال الاكثرية:

ــ نعم.. نعم.. الا اثنين.. اعترضا وخرجا.

***

بعد ان صار حسقيل شيخ القبيلة، حدد لمن يطلبهم ثمن السلاح موعدا ليسددوا ما عليهم، واستولى على ما يساوي دين

من عجز عن التسديد من اغنام وابل وابقار، بل راح يستولي على بيوت الشعر العائدة الى من لا يستطيع التسديد..
وعندما يسأله من يسأل:
ــ اليس هذا مبالغا فيه، يا شيخ؟
يجيبه:
ــ وماذا افعل مع من لا يستجيبون لتسديد حقي؟
وعندما يقول له من يقول:
ــ اليس من حق ابن القبيلة على شيخه ان يتضامن معه في مواجهة الظرف الصعب؟
يجيب:
ــ وما قيمة الشيخ والمشيخة من غير فلوس، يا اخي؟ اترى انكم تختارونني شيخا عليكم لو لم املك مالا؟ الم يكن كثر منكم يأخذ برأي صلاح عندما كانت فلوسه كثيرة قبل القتال، وبقيتم في مجلسي عندما احتج على اختياري شيخا، ولم يكن ذلك لأن مالي كثير، وصار هو لا يملك كما كان في السابق، وان نفوذي اندمج مع قدرة ونفوذ الروم؟.. نعم يا اخي ان المال يجمع منك ومن الآخرين، لنواجه به اناسا كصلاح، ما ادرانا.. قد يظهر من بيننا كثر مثله! استمر حسقيل، الى جانب ذلك، يجمع الفلوس من حصيلة ما تشعب من مصالحه.. حتى صارت لمصالحه فروع ليس ضمن القبيلة المضطرة فحسب، وانما اتفق مع قبيلة الروم على ان يتوسعوا في مصالحهم وفق شراكة خاصة، ويمتدوا في مجاميع الحدادة والنجارة والحياكة وبيع السمن والبسط والزيت والزيتون لكل القبائل، ومن لا يفتح لهم مجالا لمصالحهم يشنون عليه حربا بصورة مشتركة، حتى انهم اسسوا وكالات خاصة لتصدير واستيراد كل شيء تبيعه القبائل أو تستورده، الا اهل العراق، فانهم رفضوا ان يبيعوهم شيئا، أو يستوردوا منهم شيئا، من خلال المكاتب التي اسسها حسقيل، أو اسسها بصورة مشتركة مع الروم.
ولأن ما كانوا يستوردونه من العراق هو النفط والقار (اي القير)، والتمر.. وكلها، عدا الحبوب، لم يكن احد ممن يجاورهم يمتلك بديلا عنها، فقد اضطروا الى ان يسمحوا للقبائل بأن تستورد من العراق من غير شروط. وتسببت المكاتب التي اسسها حسقيل، أو تلك التي اسسها بصورة مشتركة مع الروم في عداوات واسعة بين قبائل العرب ضد حسقيل وضد الروم من بعده، لأنهم تضامنوا مع حسقيل في تجارته الاستغلالية، عدا عن الارباح الفاحشة التي كان يتقاضاها من الربا، سواء من خلال وكالاته ومكاتبه المتخصصة المستقلة، أو تلك التي اسسها حسقيل بصورة مشتركة مع الروم. وقد فرض حسقيل والروم على كثر من قبائل العرب، بل حرموا عليهم ان يبتاعوا سلاحا، أو اي نوع من انواع ادوات الزراعة أو الحرف اليدوية، وحتى أواني الطبخ، الا من الروم أو حسقيل، وكانت عقوبة من يتجاوز ذلك ان يغزوه، ويستولوا على ممتلكاته، وعاثوا في الارض فسادا، بعد ان اصبحوا اكبر قوة في هذا المحيط، في ذلك الزمان، وكلما ظهر صوت يعترض على حسقيل وقبيلة الروم من بين الشباب، دبروا له في ليل خنجرا مسموما ليغمد في ظهره أو بين ضلوعه، أو يغروه بما يغرونه به، كل حسب هواياته واهتماماته ليتنازل عن موقفه لصالحهم، وصاروا الاكثر ثروة بين القبائل، بل لعل ثروة حسقيل بصورة خاصة، وثروة شيوخ قبيلة حسقيل وشيوخ قبيلة الروم صارت الاكثر، بغض النظر عن مستوى ملكية افراد القبائل العاديين، الغني منهم والافقر، حتى بالقياس بما كان عليه مستوى المعيشة بين القبائل الأخرى..

***

كانت الشيخة أم لذة تنتظر ان يتقدم حسقيل لخطوبتها، بعد ان طلقها زوجها الشيخ السابق، أو هي طلقته، وعلى اساس ما اتفقت معه من قبل، وعلى خلفية خدماتها التي قامت بها بين صفوف نساء القبيلة، ولكنه كان يبقيها بالامل مع كل يوم أو اسبوع أو شهر يمر الى ما بعده.. حتى صار الزمن يعد بالسنوات بدلا من الاشهر، وفي الوقت الذي كان يؤمل أم لذة، كانت عينه على لذة، ذلك ان لذة لم تمكنه من نفسها، ولأن من عادة هذا النمط من الناس ان يبحث عمن لم يلمسها، وفي الوقت الذي يشبع من تلك التي بين يديه، راح حسقيل يجري خلف لذة، وكلما حاول معها، تملصت منه بطريقة لا تجعلها تبتعد عنه ليقطع الأمل فيها، ولا تقترب الى الحد الذي تحقق بغيته فيها..

وعندما كان يقول لها:

ــ لقد اتعبتني يا بنت الحلال، ولم اعد اعرف ما اذا كنت راغبة فيَّ فعلا ام تلعبين بي.

تقول لذة:

ــ لا عاش من يلعب بك، لكن صبرك عليَّ، لئلا نلفت انتباه الناس لحالنا بما يثير التساؤلات، التي ما ان تكون في افواه خصومك، حتى تضعفك عندما يتقولون بما يعني ان عائلة الشيخ القديم متفقة معك على النتائج التي حصلت، سواء بعزل الشيخ ابي او بتنصيبك شيخا علينا.. وبذلك يضاف اليك عبء جديد، عدا الاعباء التي نسمعها ونراها من ان القبيلة صارت موزعة في ولائها بينك وبين من خرجوا عليك، بعد ان رفضوا انتخابك وولايتك على القبيلة، حتى صار لاعدائك شأن لم يكونوا عليه، عندما فزت بمنصب المشيخة..

ثم أليس ما تنتظره اكثر اثارة مما تأكله..!؟

سكت حسقيل على مضض، لا لقناعته بما قالته لذة، انما لقوة حجتها ومنطقها..

ثم يعود حسقيل لاجئا لأم لذة.. وان كان يراجعها وتراجعه، لكنه لم يبق في شوق اليها، مثلما كان في السابق، وعندما طال الزمن بها، ولم تلمس منه ما هو يقين في رغبته ونيته في الزواج منها، قالت له بوضوح:

ــ ان لم تتزوجني، يا حسقيل، سأجمع كل نساء القبيلة، واحكي لهن قصة المؤامرة التي حكتها على القبيلة، وما وجهتني بان اقوم به من دور وسط النسوة.. بل لعلي جمعت الرجال لاقول لهم الشيء نفسه، وعند ذلك سيكون مصيرك في كف عفريت.. ترى ماذا سيكون عليه حالك لو فعلت ذلك، خاصة بعد ان صار لك خصوم جديون داخل القبيلة، واولئك الذين شكلوا عشيرة مستقلة من الذين خرجوا عليك، بعد ان اشرفت على القبيلة، ثم خرج من خرج على ولايتك، عندما اختارك شيخ قبيلة الروم شيخا على قبيلتنا؟.. لقد غدرت (نكت) بي، ولم يبق امامي غير ما قتله لك، فعليك ان تنظر في الامر جديا، وتحكم عقلك وتقرر ولا بد ان تعرف كيف ومتى تقرر وامامك اسابيع قليلة، فان لم تقرر، سأحدد لك زمنا بالايام، وبعدها اكون في حل في اختيار التوقيت المناسب والطريقة الاكثر ايذاء بالافضاء بكل ما اعرفه للقبيلة..

داور حسقيل الامر مع نفسه، وانصت وهو في اسوأ حالة اضطراب، وهو يسمع منها كل ما قالته، حتى تحول التخلي عنها الى حقد وكره شديدين، والى شعور ورغبة جامحة في الانتقام.. لذلك افتعل او تقمص مظهر الهدوء وقال:

ــ انك واهمة في ما استنتجته، ولا اعتقد انك بحاجة الى ان تطبقي ما قلته، ذلك لأنني احبك ولا استطيع ان استغني عنك، لكنني اردت ان يبتعد الزمن عن خط البداية، لكي لا نلفت انتباه المتصيدين، ونعطي متسقطي الاخبار ومن

يحاولون اضعافي واضعاف وهز القناعة بمشيختي، التي بنيتها انت بالدرجة الاساس، تخطيطا وتنفيذا ــ كأنه بهذا استعار جانبا اساسا من الحجج التي قالتها لذة، عندما كان يتحايل عليها ليتزوجها، بعد ان فشل في الحصول عليها من غير زواج.

قالت الشيخة:

ــ على اي حال، قلت ما قلته، رغم انني واثقة من انك ستتزوجني.. لكني اردت ان احسم ترددك في امر ينطوي على مصيري ومصيرك، واردت ان استعجلك، محاولة ورغبة مني في ان احصل منك على ولد يكون قرة عيوننا ويجعل دارنا تخضر من جديد، بعد ان كبرت لذة وامتناعي عن انجاب غيرها بعد ان اكتشفت ان حياتي مع شيخ العشيرة السابق لن تستمر ..وها هي لم تستمر، مثلما تعرف وترى..

ما ان خرج حسقيل من بيتها حتى بدأت افكاره تسير باتجاه التآمر على حياتها، بعد ان وضعته امام الأمر الواقع.

***

استمر حسقيل وشيخ قبيلة الروم في عملهما الذي اعتادا عليه من استغلال وابتزاز للقبائل المجاورة، تحت كل العناوين والانشطة التي ذكرنا والتي لم نذكر، واغتيال هذا او ذاك وفق تدبير مشترك لمن يكتشف انه يعارض خططهما، بالاضافة الى العدوان المستمر على من كان يجاورهما، بما في ذلك انهما امتدا في غزواتهما وعدوانهما حتى الى العراق، لكنهما هنا ردا على اعقابهما، رغم ما الحقاه من اذى بالناس، ومنه قتل المواشي او الاستيلاء عليها وحرق المزروعات وقطع النخيل ومع ذلك ردا واتباعهما مهزومين بالنتيجة وكانوا عندما ينهزمون امام اي قوة او قبيلة، يزدادون حقدا على المنطقة ويزدادون امعانا في القتل وحرق المزروعات وقتل الحيوانات التي لم يستطيعوا الاستيلاء عليها ونقلها الى حيث ديارهم.. ولم يسلم منهم حتى النساء والاطفال، حيث لم يبقوا احدا يحبهم، بل صار الكل يكرههم من شرق المنطقة الى غربها ومن شمالها الى جنوبها.. وعبثا حاول شيوخ القبائل، زرافات ووحدانا، ان يقنعوا حسقيل وشيخ قبيلة الروم، بتغيير مواقفهما.. وارهق الناس من حولهما جراء عدم الاستقرار والحروب، وبدأ الفقر يدب بسبب الاتاوات التي فرضاها على الناس، عدا الزامهم بان يكون كل نشاط تجاري او اقتصادي بوجه عام مع حسقيل ووكالته ومع رئيس قبيلة الروم وقبيلته حكما، على ان يفرضا اسعار ما يشتريانه او يبيعانه، ولم يعد للمنافسة من اي طرف مكان او دور، انما ما ذكر فحسب.. بالاضافة الى الاتاوات المباشرة التي يفرضانها على الناس واصحاب الاموال منهم بوجه خاص، من حين الى آخر، تحت هذه الذريعة او تلك..

***

في أحد الايام، اقترح حسقيل على شيخ الروم اقتراحا غريبا، قبله شيخ الروم.. اقترح حسقيل ان يشيدا بناءين شامخين كأنهما برجان عملاقان، وصارت المبالغات والقصص تدور حولهما، بسبب ارتفاعهما ومستوى البناء، حتى قال احد البنائين الفرس ممن استخدموا في البناء، ان فأس البناء سقط من يده يوما وهو في الطابق الاخير، وبسبب ارتفاع البناء لم يصل الفأس الى الارض حتى ذلك اليوم الذي كان يتكلم فيه.. وانهم عندما كانوا يعملون في البرج ــ يقول الفارسي ــ كان صعودهم يستغرق اسبوعين ونزولهم اسبوعا، بعد ان يبقوا معلقين في سلم البناء ثلاثة اسابيع ليل نهار..

كان عدد من الاعراب وغيرهم يستمعون الى مبالغات هذا الفارسي، وعبثا حاول من حاول منهم ان يقنعه بعدم دقة ما

قاله.. لكنهم لم يقولوا له انه يكذب على غرار ما تفعله الدبلوماسية في هذا العصر، بقولها عن الكبار عندما يكذبون، ان فلانا الأميركي.. او الانكليزي او الفرنسي، لا يقصد ما قاله، او ان الصحافي الذي نقل عنه الكلام لم يكن دقيقا او لم يكن دقيقا تماما..

اراد احد الاعراب ان يناكد الفارسي بسبب كذبه، فقال له:

ــ كنت مع والدي في زيارة للعراق، واشترى لي والدي خيارة قثاء من سوق مدينة (تل اسمر) (١) السومرية، وكانت الخيارة ناضجة وبذورها ناضجة هي الاخرى، وقد جلسنا نأكلها على حافة نهر ديالي، الذي كان اسمه تورنات في تلك المرحلة من الزمن، فسقطت بذورها ونبتت بذرة منها واورقت وازهرت واثمرت خيارة ونحن جلوس ننتظر ما يحصل، واستمرت خيارة القثاء تستطيل وتستطيل ونحن نمشي معها حتى وصلت الى حدود العراق مع ايران، واجتازت الحدود، واستمرت تستطيل فدخلت طهران، ثم قصر الشاه الايراني، ولم يتمكن الحرس منها، واستمرت كأنها افعى تسعى وتتلوى في طريقها، حتى اتجهت باتجاه غرفة زوجة الشاه.. وهنا صاح الايراني:

ــ (امان ..(دخيلك.. اوقف الخيارة ولا تدعها تستمر.

قال محدثه:

ــ ايها الكلب، لن اوقف خيارة القثاء الا اذا جعلت فأس أبيك تسقط على الارض في الحال.

على هذه الصورة والتخيلات كانت صور البرجين ترسم وتنسج حولهما القصص والروايات والمبالغات، لكنهما على اي حال برجان شاهقان وفريدان من نوعهما، وقد اقنع حسقيل شيخ قبيلة الروم بانشائهما، لكي يكون لكل واحد منهما برج يضع فيه ثروته او جل ثروته، بما في ذلك الحبوب والصوف والسمن والتمر والذهب، حيث تتعذر السيطرة عليهما لو وقع غزو، اذ يكفي ان يكون فيهما عدد من الحراس مع القسي والنبال والسهام، او اي من الاسلحة الاخرى، ليكون من المتعذر على الغزاة السيطرة عليهما وانتزاع موجوداتهما.. وقد بني البرجان عبر البحر على الحدود الفاصلة بين القبيلتين: القبيلة المضطرة وقبيلة الروم ..وعندما انجزا، صارا من بين العجائب على قياس الاعاجيب في ذلك الزمان.. وبانجاز بنائهما، كان الشيخان قد عصرا عظام الناس واكبادهم وقلوبهم، ليوفرا تكاليف بنائهما، ولكي يخزنا ممتلكاتهما، كل في برجه.. وبالاضافة الى هذا الغرض، فقد كان الشيخان يحبيان، كل في برجه، حفلات ماجنة جعلت الناس تضج مستاءة من تصرفاتهما ومجونهما ..وكل منهما يرصد غارات الاعداء عليهما او يرصد غارات جماعتهما ضد الاعداء، لما يوفره ارتفاعهما من امكانية النظر الى مسافة بعيدة.

(7)

كانت لذة، وهي تداور في ذهنها شؤون القبيلة، وما وصل اليه حالها، في الوقت الذي سيطر عليها حسقيل، تلاحظ ان الظروف صارت تسير بها من سيئ الى اسوأ، وفي الوقت نفسه كانت تستحضر مع هذه الصور السيئة، وتتذكر ما حكته لها العجائز عن جدها، وكيف كان فارسا مغوارا لا يشق له غبار، ومع ذلك، ولأنه رجل حكيم، كان يتجنب ان يفتح ابوابا للشر، (لكن عندما تفتح القبائل المجاورة ابوابا للشر وللنار على قبيلتها، كان جدي، رحمه الله، يطفئها بسيفه، حين لا يكون لحكمته صدى في عقول ونفوس من يشعلون نار الشر..(

ثم تعود لتقول:

ــ لا بد ان يكون غضب الرب قد حل بنا، بعد ان صار الاكثرية في القبيلة لا يذكرون الله، وصاروا يبتعدون عن دين ابراهيم واولاده، وكان جدي تقيا ورعا امينا صادقا مغوارا حكيما كريما و.. و..

ثم تسكت لتقول بعدها:

ــ لكنه ارتكب خطأ واحدا عندما تزوج اعجمية انجبت له والدي، لأن جمال جدتي، رحمها الله، اغواه، حسب ما حكى لي كبار السن، ومنهم ابي وامي، عن جمالها.. لذلك لم يدقق في الاصل، ولأن الاصل ينبئ بما ستكون عليه الفروع، فقد ورث والدي صفات وخواص اخواله، لا صفات وخواص اعمامه، لذلك اخزانا في غزوته الاخيرة، وكسر اعتبارنا، مثلما كان عليه حاله الضعيف، وبخله وعدم قدرته على ان يحفظ تفكيرا وفعلا، للمعاني العالية استحقاقها وصفاتها ومعانيها.. مثلما كان يفعل جدي.. ان والدي، رحمه الله، كانت صفاته الاساس غير عالية، وهي صفات جاءته منقولة من اخواله، لذلك لم ينتبه الى ما ينبغي من خواص لتكون في من يختارها زوجة له، جريا على مسار خواصه، فتزوج امي، وهي من أم وأب اعجميين، لذلك فعلت فعلتها مع الخاسئ حسقيل، لأنها لم تشعر بالمعاني العالية لما يعز القبيلة، ولم تكن ترعى حرمة شوارب اهلها، لأنها تعرف ان اهلها لا يقيمون وزنا للاعتبارات التي تحفظها قبيلتنا وتحافظ عليها.

سحبت حسرة عميقة وواصلت مناجاتها لنفسها:

ــ انها غريبة، انها ليست منا، رغم انها امي، فالعظم يعود لأهله، ولأن العظم لأهله، عليَّ ان احافظ على معاني القبيلة فيَّ.. لقد اخزتنا انا وابي، لكنها لا تخزي القبيلة، لأنها ليست بنت عمنا، اما انا فان جذري في قبيلتي، انهم اهلي وناسي وان اخزيت نفسي اخزيتهم، اذن، لأدافعن عن شرف اهلي وناسي الخيرين، ولن تكون البداية الا بأن ارفض اغواء حسقيل باقتدار وشمم، ولآخذ منه ثأر ضعف امي، ولأدافع عن شرف قومي، وعند ذلك لن يبقى اسمي لذة وانما (نخوة).. ان ابي وامي هما اللذان سمياني لذة، وهذا اسم لا يليق ببنت شريفة ماجدة، اذن لأغيرنه، لكن ليس الآن، ينبغي أن لا أفعل أي شيء يلفت انتباه حسقيل ويجعله في حالة حذر، لكن، يا ربي، ماذا أفعل إزاء العار الذي سبّبته أمي لي؟ انك أنت القادر العظيم..

عندما قالت الجملة الأخيرة، كانت دموعها تنهمر وتسيل على وجنتيها إلى ملفعها، ثم تنهض وهي تقول في نفسها:

ــ لأبدأ مع بنات القبيلة، فبعد أن وصل عمري إلى ما وصل إليه، صرت قادرة على فضح مساوئ حسقيل، وإذا اقتنعت النسوة فإن كثراً من الرجال يسمعون من النساء، بل كثر منهم يسمعون حتى ما هو ضعيف من النساء، وأحياناً يتأثر بعضهم بما يسمعون، فكيف إذا كان حديث النساء في المعاني العالية؟! وإذا تأثر بعض الرجال بما سيسمعونه،

فإن ذلك سيسري بين الرجال ليبدو بعد ذلك كأنه رأيهم، فضلا عن ان المرأة، بسبب وجدوها في البيت، قادرة على زرع رأيها في عقول الأطفال، والأطفال هم شباب وشابات المستقبل، وعند ذلك يستطيع الرجال، بإسنادنا وإدامة زخمنا في الدعاية والفضح، ان يفعلوا ما يجب، ليخلصوا القبيلة من حسقيل..

تصمت لذة.. لكنها سرعان ما تقول في نفسها:

ــ وما أدراني، ربما يكون ما أعرفه وأتصوره عن مساوئ حسقيل معروفاً من الرجال.. وقد يتولون فضحه في ما بينهم ايضا.. ألم يخرج عدد من الرجال على طاعة حسقيل، وينعزلوا عن القبيلة ما دام حسقيل فيها؟ ألم يعزل حسقيل بعضهم بعد أن صار لا يأمن مواقفهم؟ !إذن، لأبدأ بنساء القبيلة، وأتكل على الله أولاً وآخراً..

قالت (أتكل على الله أولاً وآخراً)، لأنها تعلمت ذلك مما تعلمته القبيلة من شريعة محمود ويوسف، ثم نهضت لتحرض نساء القبيلة، مبتدئة بالصديقات المقربات، وببنات أعمامها اللائي كانت متأكدة من أن آباءهن، أو أزواجهن، إن كن متزوجات، لا يحملون وداً لحسقيل.

***

عادت لذة إلى بيتها في أحد الأيام..

سألتها أمها:

ــ أين كنت؟

قالت:

ــ عند بنات أعمامي.

استفسرت الأم:

ــ بم كنت تتكلمين معهن؟

ــ أحاديث بنات فحسب، لكن قولي، يا أماه، ألم تقولي إن حسقيل سيتزوجك؟ لقد مضت عدة سنوات ولم يفعل، ماذا ينتظر حسقيل؟ هل ينتظر أن يكبر؟ أم تنتظرين أن تكبري؟

لاحظت الشيخة ان ابنتها قالت الجملة الأخيرة بما جعلها تفسرها بأنها استخفاف بها وبحسقيل، أو استهزاء بهما، فقامت من مكانها وصفعتها على وجهها، وأدمت أنفها.. لكن لذة لم تقل شيئاً، ولم تمنع أمها من ضربها.. غير أنها قالت:

ــ لست التي استأهل الضرب، يا أماه، ليتني لم أخلق.

همت أمها أن تصفعها مرة أخرى، لكن يدها ارتخت قبل أن تصل إلى وجهها لتهوي عليه.. وبدلاً من أن تفعل ذلك، احتضنت لذة، وبكت بمرارة، ومسحت الدماء من على وجه وأنف لذة، وهي تقول:

ــ انتقم الله لنا منك، يا حسقيل.. لعن الله ضعفك، يا أبا لذة، فلو كنت قد ملأت عيني، وجعلتني أخاف عاقبة فعل السوء، لما وصلت إلى ما وصلت إليه..

قالت ذلك وهي تنزوي في أحد أركان البيت، وفي ظنها أن لذة لا تسمع ما قالته، أو في الأقل كل ما قالته.

اقتربت لذة من أمها وقالت:

ــ أماه، افعلي أي شيء لا يجعلك مضغة في أفواه الناس بما يخزينا، فإن لم تستطيعي زواجه، يا أمي، انقطعي عنه، واستريني، واسترينا جميعا.

قالت الأم بتصميم الحاقد على حسقيل، وليس المقتنع به:

ــ بل أتزوجه، يا لذة، أتزوجه، وبعد ذلك يكون لكل حادث حديث.

ــ إنه لا يساوي شيئاً، يا أماه، إن العلاقة التي بناها معك ليست مخلصة، ولا يقصد الزواج منك، إنما قضاء وطره فحسب، فلو كان يقصد الزواج منك لما حاول إغوائي.

ــ نعم، أعرف ذلك، لكن مع ذلك سأتزوجه.. بل سأرغمه على الزواج مني، أخزاه الله.

ثم قالت:

ــ لكن اكتمي ما قلته، يا لذة.. اكتميه، يا ابنتي..

قالت لذة:

ــ ان سرك سري، يا أماه.. واحسبي وأنت تتكلمين معي، كأنك تضعين سرك في قعر بئر..

***

كان حسقيل يحوك في نفسه سيناريوهات متعددة للتخلص من الشيخة، وكلما حاك خطة وناقشها، وجد أنها لا تصمد أمام النقد، ومن بين ما تداوله مع نفسه أن يتزوج لذة، فتنتهي قصته مع أمها.. لكنه يعود ليقول إن لذة، على ما يبدو، غير متحمسة لمثل هكذا فكرة، وليس هنالك أمل لأن تقبل بها، ما دامت أمها على قيد الحياة.. ثم يعود ليقول: لو ماتت الشيخة، ليس هناك ما يمنع ابنتها من أن تتزوجني.. فقد صرت شيخ القبيلة.. والأغنى مالا بين شيوخ القبائل، وأملك واحداً من برجين فريدين مليئين بالذهب والمال، صارا رمزاً عالياً لقدرتي وقدرة قبيلة الروم.. و.. لكنه ما يلبث أن يقول: بل لن تتزوجني إلا بعد أن تموت أمها.. ولن يمنعها من ذلك غير حزن عدد من الأيام، ثم توافق على الزواج مني..

وتنتابه الهواجس.. ويسائل نفسه:

ــ لكن، ماذا لو اكتشفت لذة أنني وراء موت أمها؟.. ألا يعني هذا أنني سأخسرها بعد أن أخسر أمها؟.. ثم أخسر القبيلة.. وقد أخسر أي شيء، وكل شيء..

عندما يقول (أخسر أي شيء، وكل شيء) يجفل..

ــ لا ..لا.. لا أقبل بأن أخسر المال.. إن المال عصب الحياة، وإذا خسرت المال.. سأخسر شبكتي ووكالاتي.. وماذا يبقى لي بعدها؟.. أعلى حسن أخلاقي وسلوكي يطاوعني الناس؟ أم على حكمتي ونزاهتي وحسن قصدي وكرمي؟..

كان حسقيل يقول ذلك كأنه يهزأ بنفسه..

ثم يعود ليقول..

ــ لا.. لا، المال، ومن بعد المال، شبكة الجواسيس والوكالات التجارية والاقتصادية.. إلا هذه، فإنني انتهي إن خسرتها، لأن وجودها يضمن لي، وقد ضمن فعلا، قدرة التأثير في الأقوام والقبائل، وهي وسيلتي في الدعاية والتأثير، وإضعاف الآخرين، أو تقوية من يقبل سطوتي وسلطاني.. أما لو خسرت القبيلة المضطرة، فلا بأس، لأنني أصلاً لم أكن منهم، ولولا ضعف وهزال شيخهم السابق ما قبلوني شيخاً عليهم.. لكن لو خسرت المشيخة والقبيلة، أين أجد مسرحاً لنشاطي ووكالاتي، بل ومالي؟ ومن سيفتح لي بابه، بعد أن يعرفوا قصتي مع القبيلة المضطرة؟ هذا إذا لم يقض عليّ شباب القبيلة الذين ألاحظ في عيونهم، رغم أفواههم الصامتة، أنهم يتميزون غيظاً عليّ، يرفدهم أولئك الذين

تمردوا على سلطتي وسلطاني من قبل.. لا، إذا خسرت موقع شيخ القبيلة، أخسر كل شيء، وربما حتى حياتي.. أما حليفي شيخ قبيلة الروم.. فقد صار مكروها لأسباب محددة، أهمها تحالفه معي، ومجيئه ليحالفني بعد أن عبر البحر.. لذلك ما أن يعود خلف البحر.. ويقطع تحالفه معي، حتى تنتهي حساسية الناس تجاهه من حولنا ..ابتداء من هذا الجيل، أو في الأقل، الأجيال اللاحقة حتماً.

ثم ينتبه لنفسه:

ــ لكنني دبرت كل ما دبرته، فهل أعجز عن تدبير موت امرأة؟.. فلأُميتها، واحتفظ بكل شيء، وبلذة.. أو، في الأقل، لأحافظ على ما أنا عليه الآن..

استمرت لذة تنشط بين صفوف النساء، تعبّئهن وتحرّضهن.. وفي أحد الأيام فاتحتها إحدى بنات القبيلة من عشيرة أبيها، ومن بنات عمومتها الأبعد، الذين يلتقون بجدها الرابع، وليس من أعمامها المتقدمين المباشرين..

قالت بنت العم هذه:

ــ حكيت لأخي سالم ما سمعته عنك، وحدثته عن أخلاقك، يا أخيّة، ومستوى فطنتك ومحبتك لأبناء قومك.. وما تعبئيننا وتحرضيننا عليه ضد حسقيل وقبيلة الروم، وهو ما يفعله سالم مع جماعته الرجال أيضاً، فأعجب بك أشد الإعجاب، واستمر يسألني عنك، من حين لآخر، عندما يزورنا ليلاً لكي لا يراه حسقيل وعيونه، ذلك أنه أحد الذين خرجوا على طاعة وسطوة وسلطان حسقيل، عندما قرر شيخ قبيلة الروم جعل حسقيل رئيساً للقبيلة، واعتبر دمه مهدوراً مذ ذاك اليوم من حسقيل والروم، وحتى من المتنفذين في قبيلتنا، الذين أقاموا حلفاً غير مشرف مع حسقيل والروم، ذلك لأنهم اعتبروا رفضه أن يكون حسقيل شيخاً علينا تمرداً.. وطلب مني قبل يومين ان استطلع رأيك في ما لو قبلته خطيباً وزوجاً لك، إذا تقدم لطلب يدك..

قالت ذلك وانتظرت إجابة لذة بلهفة.. لكنها لاحظت أن لذة لم تعلق بشيء، فقالت لها:

ــ هل قلت شيئاً خطأ، يا أخيّة؟..

أجابتها لذة:

ــ لا.. لا ..أبداً، إنما سرحت بخيالي في أمور أخرى، وأردت أن استجمع تفكيري لأجيبك عن أمر لم أكن مسبوقة به من قبل.. من يعرف بما قلته لي.. يا أخيّة؟

ــ لا يعرف به إلا سالم وأنا فقط، يا أخيّة..

ــ إذن، سلّمي على سالم، وقولي له أن يكتم ما قاله.. وأنا من جانبي سمعت ما قلته، وعلينا أنا وأنت أن نكتم هذا ايضا، ولا نتحدث به حتى لوالدتي.. لكي أقول جوابي لسالم مباشرة، عندما التقيه في بيتكم.. إذا استطاع أن يتسلل تحت جنح الظلام، على أن يكون وصوله في وقت مبكر، عند المغرب مثلا، في الوقت الذي تنشغل أمك ووالدك والرعاة بحلب الغنم..

ــ متى يمكن أن يحصل هذا..؟

ــ بعد غد.. إن شاء الله.

***

فرحت أخت سالم بجواب لذة، وكان ذلك في ربيع عام خير.. صارت الكمأة فيه مبذولة في القبيلة، يأتي بها الرعاة

أكواماً وهم يعودون بأغنامهم وإبلهم..
في الموعد المحدد، وقبل مغيب الشمس، جاءت لذة إلى بيت أبي سالم.. ووجدت ابنة عمها، أخت سالم، بانتظارها.. دخلت أغنام أبي سالم إلى) مرواحها) وهب الجميع إليها، وحملت النساء القدور لحلبها، منها ما هو بحجم صغير نسبياً، وهذا خاص لحلب الغنم بصورة مباشرة، ومنها ما هو أكبر، كلما امتلأ قدر صغير أو كاد، افرغت الحلابات الحليب في القدور الكبيرة، أو العلب الكبيرة المصنوعة من الخشب، الذي حيثما التقت ألواحه فيها وضع بينها شيء من القطن أو الصوف ليسد المنافذ ولا يترك الحليب يتسرب منها إلى الخارج.. وكان حلب الغنم يستمر أحياناً ساعتين أو أكثر، اعتماداً على عدد الحلابات، إذ كلما كثر عددهن قل الزمن.. وكانت الحملان) صغار الغنم) تثغو بأصوات عالية لتهتدي أمهاتها إليها، أو لتهتدي هي إلى أمهاتها..
نهض أبو سالم وقال للذة:
ــ أنت في بيتك، يا بنيتي.. وأختك معك ..مشيراً إلى ابنته، أخت سالم، وسوف نعود إليكما بعد إنجاز حلب الغنم..
قالت لذة:
ــ ارشد، يا عم..
بعد حين من ذلك شاهدت لذة وابنة عمها كلاب أبي سالم تنطلق باتجاه الفلاة وهي تنبح.. لكنها سرعان ما سكتت..
فقالت أخت سالم:
لقد وصل سالم، لان الكلاب لو لم تتعرف على المقبل ما كانت لتسكت..

***

جاء سالم حاملا سيفه، وقد غطى وجهه، وتلثم بما كان يضعه على رأسه ولم تبن منه الا عيناه وما يحيط بهما، وما ان دخل البيت من جهة العيال، حتى (فك) لثامه.. وسلم على لذة، ثم اخته.
عندما رأته لذة تذكرت انها رأته من قبل، ولكنها لم تعره اهتماما آنذاك ..كان سالم شابا طويلا، طوله حلو، لم يكن فيه زيادة ولا نقصان، عيناه سوداوان، متوسطتا الحجم.. له انف مستقيم يتناسب حجمه مع طبيعة وجهه.. ليس في شكله ما يعيب، اضافة الى ان حديثه وتصرفه يوحيان بالثقة..
سألت لذة سالم عن احوالهم في منزلهم الجديد خارج سطوة حسقيل الملعون..
طمأنها سالم الى انهم بخير، وان علاقاتهم في ما بينهم في احسن احوالها.. ثم اردف:
ــ بل حتى لو لفحت (لحست) النار وجوهنا، من غير ان تزيل شواربنا، فاننا نتحملها طالما رفضنا ان يكون الخاسئ حسقيل شيخنا ..واريد ان اطمئنك الى ان علاقاتنا جيدة الآن مع كل شباب القبيلة، ونحن على اتصال سري معهم بما يشبه التنظيم السري..
قالت لذة من دون انتظار ان يكمل كلامه:
ــ ارجوك، يا سالم.. ارجوك انتبهوا من عيون حسقيل ووكالاته، لأنه رجل شرير، واذا كشف اي صلة لكم بشباب القبيلة قبل اوانها، فسوف نخسر كثيرا..
ــ اطمئني، فقد نظمنا امرنا بحيث صار لنا الآن من يأتينا باخباره اولا باول، حتى من بين عيونه انفسهم، ولكي تطمئني فانا اعرف ان علاقته مع امك، اصلحها الله، جيدة، عدا الاشهر الاخيرة ..اما علاقتك به، فليس فيها ود..

واضاف مبتسما:

ــ من ناحيتك، طبعا.

فغرت لذة فاهها لدقة معلومات سالم، وفي الوقت نفسه، احست بحرج لاشارته الى علاقة امها بحسقيل.. وقالت:

ــ انت تعرف، يا سالم، ان امي غريبة.. وان عادات الاعاجم ليست كعادات العرب، ومع ذلك قد لا تستمر مجاملتها لحسقيل ــ قالت عن امها (مجاملتها لحسقيل)، كأنها ارادت ان توحي لسالم بان ما بين امها وحسقيل محض مجاملة منتقدة ــ ذلك لان حسقيل لا يستاهل ذلك، ولكن ابي رحمه الله هو السبب في كل ما حصل..

قال سالم:

ــ دعك من هذا، فان لكل شيء حلا، ان شاء الله والمهم هو انت.. انت عقال رأسنا، او تاجه.. فسمعتك الجيدة صارت معروفة لنا، ولكل اعمامك الذين تمردوا على اوامر حسقيل والروم.. اما ما مضى، سواء تعلق الامر بعمي والدك رحمه الله، او بأمك، فقد مضى.. المهم ان نعالج الحال الذي اوقع تاريخ الضعفاء فيه اهل الحاضر في مأزقهم الذي هم فيه، وان نجعل المستقبل مضمونا لابناء قومنا، يعيشون فيه بكرامة، ويتخذون المسارات والاهداف التي يختارونها، ويؤمرون عليهم من بين اعمامهم من يؤمرونه، بعد ان يتخلصوا من الاجانب واولئك الذين فرضوا علينا ظلما وعدوانا.. المهم انت، يا بنت العم.. ونحمد الله ان بقيت نقية ابية، او صرت نقية ابية، حتى ان الشباب من ابناء قبيلتنا، ومنهم انا، ارادوا ان يجعلوك نخوتنا، لو لم نخش ان نكشفك قبل الأوان، وان ينصب غضب وحقد وخيبة حسقيل عليك، عندما يشعر انك صرت نخوة القبيلة.. او ان تكون القبيلة قررت باجماع آراء الشباب ان تكوني نخوتهم.. بل ان القسم الاكبر من الكهول، وحتى قسما من الشيوخ الذين يجاملون حسقيل والروم، قد يكون بينهم من هو على هذا الرأي..

قاطعت لذة سالم قبل ان يكمل قائلة:

ــ دعك من شيوخ قبيلتنا.. فمن يهترئ لا يعود الشباب اليه، يا ابن العم.. ومن يخرب من داخله لا يمكن ان يصلح من الخارج، ومن يسلِّم مصيره للاجنبي، ويكون الاجنبي ولي نعمته عندما يجعله شيخا، حتى لو لم يصرف عليه، يصعب عليه ان يتمرد على الاجنبي، بل يصعب عليه ان يثق بابناء جلدته، ويشكك في الاجنبي، ولذلك ليس صحيحا ان تقيموا بناءكم، وما انتم ناوون على فعله، على احتمال ان يكون أي من شيوخ القبيلة، الذين امرهم حسقيل والروم بان يشغلوا هم وابناؤهم عناوين المشيخة في قبيلتهم.. اساس بنائكم البديل..

كان سالم يصغي لكلام لذة كالمندهش، لمستوى رجاحة عقلها ومستوى تحسس ضميرها، وقلبها العامر بالايمان، والاحساس بقيمة وأهمية التمرد على الواقع االسلبي، الذي دفعت اليه القبيلة، وكبلت به..

لذلك قال:

ــ انك نخوتنا الآن.. وصار اسمك (نخوة) بدلا من لذة، بعد ان طهرت نفسك وقلبك وروحك من كل شيء، ورفضت بإباء ان تندفعي الى الهاوية التي يخطط حسقيل لدفعك اليها..

قال الجملة الاخيرة بلغة الواثق المطلع على ما ينوي حسقيل ان يفعله، فيما كانت نخوة تظن قبل هذا انها تعرف ذلك وحدها، او هي وأمها فحسب.. ثم قال سالم:

ــ لهذا كله.. ولانك شعرات عز في شارب كل خيِّر، يا بنت العم، ورسم عز له، جئت طالبا يدك.. وقد استعجلت قبل لقائي هذا بك وكلفت اختي، اختك، بأن تفاتحك بهذا، في محاولة مني لان ازيد تحصينك ازاء عاديات الدهر، وجانب

من المغريات بعد ان بقيت في العائلة وحدك.. اما الآن فاطلبك زوجة لي فحسب، لانك لا تحتاجين الى حالة تحصين من الخارج، وانما الى شريك حياة لمواجهة ظروفها بسرائها وضرائها.. فهل تقبلين؟ ام انني تجاوزت الحد بطلبي؟..
قال سالم الجملة الاخيرة، بعد ان لاحظ ان نخوة منشغلة عنه، قبل ان يقولها.. ولذلك قالت اخته بنبرة تنبيه خفيف لها:
ــ ان سالم ينتظر جوابك، يا نخوة..!
قالت نخوة، كأنها تفوق من حلم جميل..
ــ ها.. ها.. عفوك، يا سالم، لم اكن منشغلة عنك، وانما فيك، وعليه اقول لك: نعم، اقبل، بل اتشرف بك، فأنت ابن عمي، وتاج رأسي، ولولا التقليد الدارج بأن يقولها الرجل، لقلتها لك من غير ان تستفسر مني مرة اخرى، لأن بنت عمنا، اختك، نقلت الي رغبتك هذه، وارجأت الجواب حتى اقوله لك مباشرة على ان لا نستعجل في الاظهار، اذ يكفي ان يكون الله شاهدا علينا، ولذلك اعتبر انك خطبتني من هذه اللحظة، وانني موافقة عليك، حتى نكمل حالنا بالزواج في مناسبته.. وعلينا ان نكتم هذا، وان نستمر كل في عمله، انت بين الرجال والشباب، وانا بين الشابات والنساء، بل حتى لقاءاتنا ينبغي ان لا تعرضك للخطر حين تأتي الى ديارنا..
ــ على بركة الله، يا نخوة.. كلي اعتزاز بجوابك.. وسأحفظ العهد داخل صدري، بين الضلوع، وفي قلبي وجفوني..
ــ بارك الله فيك، يا سالم.. حماك الله.. ولو سمحت، افضل ان تعود راشدا، ولا تنتظر مجيء عمي ابي سالم، لتسلم عليه.. ليبقى الامر بيننا نحن الثلاثة، ويشهد عليه الله ربنا.

***

ودعهما سالم وخرج.. ثم خرجت نخوة الى بيتها، وعندما وصلت وجدت ان الندى الذي كان يغطي الاعشاب بلل طرف ثوبها.. لكنها، وجدت امها مغمومة، ولم تستطع الا بالكاد ان تقول لها:
ــ لقد تأخرت، يا بنيتي، ماذا اخرك عني؟
كانت الأم يعتصرها حزن شديد وكان واضحا ان ما قالته لم يكن بالاساس اعتراضا على تأخر نخوة بقدر ما كان افتقادا لها لـــ (تفضفض) لها بما كان يدور في خاطرها..
عرفت نخوة هذا استنتاجا من لحظة دخولها البيت..
ــ انا هنا، يا امي، أي شيء تأمرين؟
ــ لا شيء، يا ابنتي.. لا شيء..
قالت ذلك كأنها ارادت ان تنثني متعارضة مع رغبتها في ان تبوح لابنتها بما كان يثقل قلبها وروحها من علاقتها بحسقيل..
ولانها لاحظت ان السعادة تشرق على وجه نخوة، احتجبت عن البوح لها بما يثقل عليها، لكي لا تغير مزاجها، وتجعلها تنشغل بهمومها معها، بدلا من ان تعيش سعادتها..
قالت نخوة:
ــ بل، قولي يا امي.. واطلبي.. بل، آمري بأي شيء، وكل شيء.. انا ابنتك يا امي.. فقولي ما يثقل على نفسك ــ وارادت ان تقول: وقلبك، لكنها امتنعت عن قول ذلك، لان حسقيل لا يستاهل ان يشغل احد قلبه بحبه.. وكانت تقول ذلك بكل معاني الصلة وعاطفتها الصادقة بين البنت وامها، ورغم ان امها كانت قد اخزتها ..لكنها قالت ذلك بعد ان

شعرت وقدرت ان الندم صار يأكل قلب امها، وروحها وهي تبحث عن مخرج، لا لينقذها من حسقيل فحسب، لانها صارت تكرهه بعد ان اكتشفت خبثه وغدره، وعدم احترامه للوعود والعهود، وعدم تحليه حتى باخلاق الحد الادنى للناس.. وانما لينقذها من نفسها ايضا، ولذلك صارت تقترب من ابنتها، بعد ان كانت معها على طرفي نقيض، ليس في الاخلاق ونوع التفكير والتصرف فحسب، وانما في امكانية التعايش حتى المظهري، من غير مشاكل يومية في بيت واحد، وعندما اكتشفت التغير الذي حصل لامها، صارت نخوة اكثر قربا منها، بل اقتربت كثيرا منها ليكون بأمكانها ان تقوم بانقاذ ما يمكن انقاذه من الحال قبل ان يتحطم..

عادت نخوة لتكرر على امها:

ــ ارجوك، يا امي.. قولي ما تريدين.. قولي لابنتك، لكي اعينك بعد ان اطلب العون من الرحمن الرحيم، هادينا في الدنيا الى ما يعز في الدنيا والآخرة، وعليه نتكل اولا واخيرا..

قالت امها:

ــ آمنت بالله.

قالت ذلك كأنها تنطقه لاول مرة، بعد ان غاب عنها منذ وقت طويل، او ان نخوة لم تسمعه منها، منذ صارت في عمر يقترب من البلوغ، بل حتى بعد ان صارت في سن البلوغ.. وفي كل الاحوال، قالت ما قالته، كأنها تنشد ان يتوب عليها ربها، بعد ان اوغلت في سوء اعمالها.. وبدت كأنها تعترف في محراب امام نفسها، او امام راهب ..فقالت:

ــ اسمعي، يا ابنتي، لقد انحرفت واذيتك كثيرا قبل ان اؤذي نفسي، او أي احد غيرنا، ذلك لانني لم اتصرف وفق ما يغضب الله ويخزي النفس فحسب وانما جعلتك تضطلعين على ما يغضب الله ويخزينا.. وانا اتألم يوميا في نفسي، حتى ان نومي لم يعد يكفي لادامة صحتي، وصار الخوف من غضب الله يؤرقني، وصارت عيناي تخجلان منك، وتتجنبان ان تلتقيا بعينيك مع انهما في شوق متزايد لذلك.. ولم اعد اعرف كيف اتصرف وقد تركت اي علاقة غير شريفة مع حسقيل، الا الاختلاء به احيانا لاناقش معه شأننا بأمل ان اقنعه بان يتزوجني، ولكي تعرفي اقول لك انا مصممة على ان اتركه بعد ان اتزوجه، وقد ارفضه امام العشيرة، بعد ان اوهمه بان يتقدم لخطبتي بحضور العشيرة كلها.. لكن ما اردت ان استشيرك به الآن شيء آخر، هو ان حسقيل خرج نهائيا من قلبي، ولم اعد احمل له غير الحقد عليه، لذلك قررت ان اقتله هنا في بيتنا، اذا وافقتني على هذا واعلنت استعدادك لان تعاونيني في القاء جثته خارج البيت، او ان اقتله واقول انه تحرش بي فقتلته..

(8)

عندما كانت الشيخة تحكي لنخوة، كانت تبكي بحرقة وكانت نخوة تبكي معها من غير ان تظهر صوتا لبكائها، لكي لا تقطع على امها ما كانت عازمة على ان تسترسل به، وهي على كرسي الاعتراف..

قطعت نخوة نشيجها وبكاءها على الحال الذي وضعتها فيه امها.. بل على الورطة الشنيعة عندما سمعت ان امها تقول انها قررت ان تقتل حسقيل..

فغرت نخوة فاهها تعجبا مما سمعت، من غير ان تفقد تماسكها، وقالت اماه، ماذا تقولين!؟

كفت الام عن البكاء، وبدت اكثر هدوءا، بعد ان افرغت شحنات نفسها بالبكاء، بل وبما اعترفت به لابنتها، خاصة قرارها ونيتها قتل حسقيل، وقالت:

نعم، يا ابنتي، هذا هو قراري، وليكن بعد ذلك ما يكون، لم اعد احتمل.. ان شبح الآخرة ولهيب نارها، وغضب الله علي، يلاحقني في الوقت الذي يلاحقني عاري.. بل عيناك يا نخوة، عيناك اللتان تنطقان نيابة عن لسانك صارتا تقتلانني في كل لحظة، ولعل هذا اهون، بل صارتا تذكرانني بعاري وشناري في كل لحظة ..حتى صرت ادعو الله ان يأخذ روحي، بعد ان صرت على ما صرت عليه من نضج وحكمة وقدرة تدبير..

قالت ذلك ثم راحت تبكي من غير صوت، وتكفكف دموعها بطرف ثوبها، او طرف ملفعها (فوطتها)، من حين لآخر.

قالت نخوة:

ــ اسمعي يا امي، لاقول لك وفق ما افهم..

ــ بل تفهمين يا ابنتي، وامك هي التي لا تفهم ــ قالت الشيخة مقاطعة ابنتها ــ ثم اردفت تقول: لقد صنت نفسك وعفافك، بينما انحدرت امك وفتحت ابوابها للغرباء، وبامتناعك عن حسقيل رغم جبروته هو وحلفاؤه، وعدم انحنائك امام رغباته التي اعرف انها صارت شبه اوامر عليك، ممزوجة بالتهديد والوعيد، كنت كأنك تثأرين منه نيابة عني، ونيابة عن كل من تمكن منها، وكلما امتنعت عليه صار يتصرف بصورة محمومة ليكسر عفتك.. لانه وفق ما يرى، ومثلما اقرأ، وان جاءت قراءتي له متأخرة، اذا لم يكسر عفافك، ويجعلك تنحنين له، يعتبر ان كل انتصاراته وعهره قد خابا.. انه يعرف ان لا قيمة لان تستجيب لرغباته من لا اصول مشرفة لها مثلي، او من هن على شاكلتي، ولذلك فهو يقصد ان تنحني امامه الرقاب والانوف العالية، والاصول والمواقف المشهود لها امام العرب، ولكن الحمد لله الذي اعطاك هذا المستوى من العفاف الحصين والايمان العظيم والقدرة على الثبات واخزى الله الظالمين..

قالت نخوة:

ــ آمين.

وسكتت برهة قصيرة وعادت لتقول:

ــ ان باب رحمة الله لا يغلق امام توبة نصوح، يا اماه.. لا تقطعي الامل برحمة الله..

ــ ان الرحمة لا تقع على الضالين مثلي.. والذين يحاولون اسقاط ذويهم بعد ان يورطهم الشيطان.

ــ ان ابواب الرحمة، وان كانت بيد رب العالمين، لا تغلق، كما افهم، امام من يتوب توبة نصوحا.. في الوقت الذي يكون قادرا على الاستمرار بفعل السوء لو اراد ذلك.. اعود لاقول، يا اماه، ان قتلت حسقيل تكونين قد ارتكبت فعلا من الكبائر مما يغضب الله، وعندها يكون مثلك مثل من يحاول ان يصلح زجاجة مثلومة، فيحطمها بدلا من

اصلاحها... انك ان قتلت حسقيل ترتكبين مثل ما ارتكبت من فعل وصفته بانه يغضب الله بينما افتش لك عن فعل يرضي الله، وليس افضل من التوبة العميقة الصادقة ما يرضي الله، بعد ان يقدم الانسان على سوء، واذا شاركتك في الجريمة، تكونين قد نقلت انسانة من الخانة التي كانت عليها امام الله وعيون الناس الى خانة جديدة معلومة هي ووصفها، فهل ترضين لي هذا يا امي؟ انا لا ارضاه لك ولا لي.

قالت امها:

ــ ولكن الناس لن يعرفوا.

تقول نخوة:

ــ ولكن الله يعرف.. ثم من يضمن ان لا يعرف الناس؟ وماذا سأقول؟ وماذا ستقولين لو عرفوا؟ اتقولين لهم ان حسقيل تحرش بك، وانك قتلته لذلك؟ فقد لا يصدق الناس، اذ سيقولون كيف يمكن ان يتحرش بك مع وجودي معك في البيت؟.. اليس من حقهم ان يقولوا انه تحرش بي وليس بك؟.. ثم ان الحرشة تخزينا، سواء كانت بي او بك، الا تظنين ان الطريق الذي يرضي الله افضل كعلاج؟..

ــ ما هو الطريق الذي يرضي الله؟

ــ ان تتزوجيه، ثم تتركيه عندما تشائين..

ــ وهل تتصورين اذا تركته ان احدا سيقول انني انا التي تركته لسوء خلقه ام سيقول حارقو البخور للجيف من حوله ان الشيخ تركها لسوء خلقها؟..

ــ اطرديه امام عدد من وجوه القوم، بعد ان تستدعيهم الى بيتنا وهو معهم، وقولي له بحضورهم بصورة جادة، لكن بشكل مؤدب: انك وانا امرأتان وحيدتان بعد ان توفى الله الشيخ والدي، لذلك اذا كان حسقيل يدخل البيت مع من يدخل بحضور صاحب البيت، فقد كان مرحبا به، اما الآن بعد ان مات صاحب الدار، ارجو ان يمتنع عن الحضور الى دارنا، واذا اراد شيئا ما، فليكلم احد اعمام نخوة، وبذلك تحققين الغرض.

راحت الشيخة تتأمل في الحل الآخر، نفثت حسرة من صدرها وقالت لابنتها:

ــ عند ذلك سوف يحقد حسقيل عليَّ وعليك يا ابنتي، وهذا هو الاهم عندي، لانني لا اعرف بعد ذلك اي تهم ستدبر لنا من امثال ما نحاول معالجتها والتخلص منها الآن، وتهم اخرى تعاونه في ذلك شبكته الواسعة وتحالفه مع الشرير الآخر شيخ الروم..

ــ كيف؟

ــ قد يقول ان لأمك ــ وتقصد الشيخة نفسها ــ او لك انت، لا سمح الله، عشيقا، ولأنني اتردد عليهما، خشيتا ان افضح امرهما، فافتعلتا ما قالتاه امام الشيوخ وعند ذلك وتحت هذه الحجة وما يضاف اليها، قد يأمر بمنع من يدخل علينا ويمنع حركتنا خارج البيت.

اجابتها نخوة:

ــ ليس بإمكان احد ان يقول عن اللون الابيض انه اسود..

وعندما لاحظت ان ابنتها تحاول ان تستبدل ما قالته بمثل آخر لكي لا يجرح المثل امها.. قالت امها:

ــ لا عليك، يا ابنتي، ان الحقيقة حقيقة، لا تبدلها المجاملات ولا ينفع فيها الا قولها مثلما هي بجوهرها في الاقل.. ان اول ما يصيبنا بالاذى من اجراءات حسقيل، هو انه سيعطل نشاطك بين نساء العشيرة خارج البيت..

ـــ اي نشاط تقصدين، يا أمي؟
ـــ على اي حال.. لا عليك، يا ابنتي، ليعمل من يعمل على انقاذ القبيلة من تحالف حسقيل الملعون وجماعته مع شيخ الشر الرومي وقبيلته، وليبارك فعل من يفعل على هذا الاساس، بما في ذلك نشاطك مع بنات القبيلة.!
*** *مرت ايام بعد ذلك، تزوج في احدها احد الشباب البارزين في موقفهم ضد حسقيل، لكن لانه احد ابناء الشيوخ الذين كان حسقيل يحرص على ان يظهر بموقف المؤيد له، فقد تغاضى عن نشاط ابنه، رغم انه ما انفك ينبهه على تصرفات ابنه:
ـــ (خلي بالك) من ابنك، يا شيخ، لكي لا ينجرف مع التيار المناهض لنا..
هكذا قال حسقيل للشيخ الآخر عبارة (المناهض لنا) لكي يشركه معه..
قال الشيخ:
ـــ لا عليك، يا شيخ قبيلتنا، ان ابني في النتيجة سيكون الى جانبك، وان حاول ان يجامل من هم في مثل عمره في لغو لسان فحسب.
اما هذا الشاب، فهو في حقيقته، وبغض النظر عن موقف ابيه، وحتى اخوته، فقد قرر ان يكون من بين المتمردين على حسقيل والتحالف بين حسقيل وقبيلة الروم، وسعيهما المشترك للسيطرة على قبائل العرب في ذلك المكان من بلاد الشام، وان يمتدوا في نفوذهم واستغلالهم الى حيث بامكانهم ان يفعلوا، مبتدئين بالسيطرة على القبيلة المضطرة وعشائرها من خلال ترشيح رئيس قبيلة الروم حسقيل، بل فرضه شيخا على القبيلة المضطرة.
عرفت نخوة هذه الحقيقة من سالم، بعد ان صارت تلتقي معه من حين لآخر في بيت والده وبحضور اخته واحيانا والده وأمه، لا ليتقابلا تعبيرا عن شوق كل منهما للاخر فقط، انما لينسقا الجهود المشتركة، حيث تقود نخوة النشاط السري بين النساء، ويقود سالم نشاط وتعبئة الرجال والشباب الذين خرجوا على حسقيل وسطوته وجاهروا بهذا بعد خروجهم، حتى انهم تعبيرا عن موقفهم، ارتحلوا خارج القبيلة، واتخذوا لانفسهم مكانا معلوما ذا حمى معلوم ايضا..
ورغم ان حسقيل تجنب ان يغزوهم، لكي لا يعرض القبيلة الى انشقاق بسبب تداخل النسب بين الخارجين عليه والقابلين به، لكنه لم يدخر وسيلة من الوسائل التي كان يعتمدها بصورة غير مكشوفة الا وسعى بها ضدهم، ومن ذلك انه نسق مع شيخ قبيلة الروم ليوجه الى التجمع المتمرد عدة غارات، لكن لان اولئك لا يملكون شيئا او لان ما يملكونه ابقوه عند اهلهم في القبيلة المضطرة، وليس معهم نساء او اطفال يثقلون عليهم وعلى حركتهم ويشكلون مطمعا للروم، فقد كانت غارات الروم عليهم غالبا ما ترتد بعد ان يلحق المتمردون بهم خسائر فادحة بالرجال والغنائم، حتى انهم في احدى المرات اوقعوا عددا من الروم اسرى في شراكهم، وكان بينهم عدد من ابناء شيوخ العشائر من قبيلة الروم، ولم يطلقوا سراحهم الا بعد ان وقعوا تعهدا اليهم وفق ما ارادوا، يقرون به لهم بمنزلهم وحماهم، ويعدون بأن لا يكرروا الغارات عليهم ولا يتدخلوا في شأنهم الداخلي وفي الخلاف بينهم وبين حسقيل.
*** *اقيم عرس ذلك الشاب، ولان نخوة كانت تعرف دوره وعلاقته بالمجموعة التي يشرف سالم على تنظيمها، حضرت العرس ومعها الشيخة والدتها.. وهناك اقيمت حفلة مفتوحة مختلطة، تناول فيها الرجال والنساء طعام العشاء كل على حدة، وراح الفرسان يتسابقون او يلعبون لعبة الفرسان فوق ظهور خيولهم ما دامت الشمس لم تقترب من المغيب، في الوقت الذي كانت هلاهل (زغاريد) النساء تصدح..
اقيمت الحفلة، ومن عادة القوم هناك ان يبادر الرجل بطلب مراقصة من يراقصها، ومن حق البنت ان تقبل او تمتنع

عن مراقصة من يطلبها الى ذلك.. وكانت الرقصة اشبه ما تكون برقصة (الدحة) التي غالبا ما يرقصها البدو الى وقت قريب في مناسبات كهذه.. وبينما كان كل يسعى الى من يظنها توافق عليه، كان الرجال يصفقون وكانت النسوة يصفقن مثلهم تشجيعا لمن (يدبك) او يرقص.

نهض حسقيل من مكانه، كأنه اراد بمحاولته تلك ان يظهر بأنه مندمج مع القبيلة، لذلك يتصرف وفق عاداتهم واراد كذلك ان يظهر للقبيلة انه على وفاق مع اقرباء الشيخ السابق، لذلك توجه الى نخوة، ورغم ان نخوة تجاهلت نيته بادئ الامر، ورغم اقترابه منها بما لم يترك مجالا للشك في انه يقصدها هي ليطلبها للدبكة معه.. حيث وقف قربها وغطاها ظله.

كان القمر بدرا في تلك الليلة.. تيقنت نخوة من انه آت ليطلبها باسمها، وفي الوقت الذي بدا الشبان والشابات المناهضون لحسقيل بوجه عام، بأعصاب مشدودة متوترة ازاء ذاك المنظر، محتارين مما ستقدم عليه نخوة من فعل.. امام هذا الاحراج، قامت نخوة بقوامها الممشوق وانفها العالي، ارتفاعا منها فوق الضعف والذل، في الوقت الذي ظن حسقيل، بل بدا كأنه متأكد من انها قامت لتراقصه، لكن عيني نخوة كانتا باتجاه سالم الذي كانت تعرف انه بين الحضور، وانه وضع اللثام على وجهه عندما اندس بين من حضر، بعد ان تسلل الى هناك، خاصة ان برد شهر آذار في ارض مكشوفة من بلاد الشام، يجعل اغلب الرجال يردون اللثام على وجوههم اتقاء للبرد، لكن نخوة عرفت سالم رغم اللثام.. وهل يخفى على الحبيب امكانية التعرف على حبيبه؟! نعم، عرفته نخوة، وفي الوقت الذي كان حسقيل وآخرون يتوهمون بأنها ستمشي في اثر حسقيل لتدبك معه وتراقصه بما يخزيها ويخزي أهلها وكل الذين تمردوا على حسقيل او كان التمرد يعتمل في صدورهم، اعزت نخوة اهلها، بعد ان اعزت نفسها، وكل المتمردين على حسقيل وحلفه البغيض مع شيخ الروم.. مشت باتجاه سالم، ومن غير ان تقول كلمة لحسقيل، ووسط دهشة، بل ذهول الناس، ولم يكن احد يعرف الى اين تتجه، لكنهم فهموا كلهم انها رفضت علنا ان تدبك مع حسقيل او تراقصه، انفة منها.. واستمرت تمشي حتى وقفت امام سالم، ومدت يدها اليه، وقالت:

ــ اتسمح، ايها الشاب الملثم؟ كأنها لا تعرفه.

نهض سالم، وابقى لثامه، ولم يغير هيأته، وبدأت الرقصة وسط تصفيق حاد، من الرجال والنساء بما في ذلك حسقيل، للمستوى الرفيع الذي اديا به رقصتهما..

صفق الحضور لهذا، وقبله صفقوا لابنة القبيلة التي ايقظت الحمية والنخوة في صدور الجميع، عندما رفضت سلطة حسقيل ورغبته واختارت شابا مجهولا من القبيلة، تقديرا للقبيلة واعلانا لموقفهما بما اخزى حسقيل، مع ان حسقيل حاول ان يتظاهر بأنه غير مبال بما حصل عندما قال، وهو يداري حرجه بضحكة هستيرية:

ــ شباب.. الطيور على اشكالها تقع.

قال ذلك، وهو يضحك، لكنه تعثر وهو يعود الى مكانه، مع ان الارض منبسطة، وسقط عقاله الى الارض.. وقال شاب وهو يلكز صاحبه القريب منه:

ــ لقد سقط عقاله على الارض.. انه فأل خير ان شاء الله.

انتهت رقصة سالم مع نخوة، وصفق لهما بحماس من كان حاضرا وارادوا ان يرفعوا الشاب الملثم عن الارض ويحملوه فوق الاكتاف، غير ان سالم ركب فرسه وانطلق مغادرا.. وغادرت نخوة هي وامها الى بيتهما ايضا.

*** *اكتشفت نخوة من احاديث امها اليها، بعد ان محصتها بصورة دقيقة، ان امها كانت تعرف كل شيء عن نشاط

نخوة وتحريضها بنات القبيلة ضد حسقيل والروم وانها مع معرفتها كل هذا، لم تفض لحسقيل بأي شيء منه، ليس لان نخوة ابنتها وانما لانها هي الاخرى اكتشفت ان حسقيل غادر وخاسئ وان مقاومة مخططاته وهيمنته على القبيلة واجب كل من هو قادر عليه ولانها غير قادرة على ان تقوم بما يمكن ان يقوم به الآخرون فإنها لم تجد غضاضة، ان لم تكن مسرورة في نفسها، في ان تحرض نخوة نساء القبيلة عليه، فقد تحول حب الشيخة لحسقيل الى كره شديد وحقد قاطع.. بعد ان اكتشفت انه (نكت) بها، وتخلى عن عهوده، بل وغدر بها.. وقد عرفت نخوة مشاعر امها تجاه حسقيل من الحوار الاخير الذي دار بينهما حول رغبة امها في ان تقتل حسقيل.

في ظهر اليوم الذي تلا الحفلة.. انفذ حسقيل احد الرعاة ليوصل للشيخة انه يرغب في ان يزورها في بيتها بعد المغرب، وكان حسقيل قد جند الراعي لحسابه قبل هذا الوقت، مع انه احد رعاة غنم الشيخة وضمن حماهم، وقد اوصل الراعي رغبة حسقيل الى الشيخة عن طريق عبدتها ...بعد تردد سألت الشيخة ابنتها نخوة:

ــ هل تذهبين الى بيت ابي سالم هذا المساء؟

ومع ان نخوة استغربت من سؤال امها، التي لم تعتد على ان تسألها مثله منذ وقت طويل، فإنها من باب زرع الثقة، قالت:

ــ نعم، يا امي، لأعرف ظروفه بعد خروجه من الحفلة يوم امس، لان حسقيل غادر واساليبه لعينة، وعيونه مبثوثة ضمن القبيلة، هو وشيخ الروم، لذلك، نعم سأذهب اليه، ان لم يكن لديك مانع في هذا.

قالت الشيخة، وهي تداري حسرة عميقة في صدرها:

ــ لا، يا ابنتي، لا مانع عندي، وليوفقك الله، واتمنى لك حياة سعيدة.

لاحظت نخوة ان امها قالت ذلك كأنها تودعها، ومع ذلك لم تتوقف عنده بسبب شوقها الى سالم، الذي شغلها عن اي شيء آخر.. لذلك ما ان اخذت الاذن من امها الشيخة، حتى انطلقت مسرعة، قبل مغيب الشمس الى بيت ابي سالم، لكنها حرصت على ان لا يلاحظها احد وهي تقترب من البيت، ولعلها حرصت على ان تأتي البيت من الخلف، وتدخل من طرفه الغربي من جهة العيال الى داخل البيت.. وقد وجدت هناك ابا سالم وامه واخته.. ورحبوا بها احسن ترحيب، بعد ان صارت معروفة بموقفها منذ ان راقصت سالم، وصدت الشيخ عنها.. بل انها عندما رفضت الشيخ بأنفة، واتجهت إلى سالم لتراقصه.. لم تعد معروفة من عائلة سالم فحسب، التي تعرفها وتعرف موقفها، إنما على مستوى القبيلة كلها، بل صارت علومها (أخبارها) تتناقلها ألسنة البدو والحضر، وصار البعض يقول قصائد حماسية في مواقفها، حتى صارت كأنها أخت ونخوة كل فارس، وموقف شريف..

وقبل هذا، عندما عادت عائلة سالم من حفلة العرس، التي راقصت فيها نخوة سالم (الدحة) بدلا من شيخ القبيلة، سأل أبو سالم ابنته، بعد أن انتحى بها جانبا:

ــ أنا أعرف أن نخوة تعرف سالم، لكنهما على حد علمي لم يلتقيا إلا مرة واحدة في بيتنا، لكن تصرف نخوة معه هذه الليلة، عندما رفضت ان تدبك مع الشيخ، لا يشير إلى أن الأمر بينهما مجرد معرفة، الا تقولين الحقيقة لي مثلما هي لأطمئن، يا ابنتي؟

قالت شقيقة سالم لأبيها، بعد أن لاحظته متشوقاً فرحاً من جهة، وقلقاً من جهة أخرى، خشية أن لا تكون علاقتهما قائمة على أساس:

ــ وهل تظن، يا والدي، ان سالم يمكن أن ينحدر إلى ما ينحدر إليه الشباب الغر؟ ثم استدركت لتقول: أو ان نخوة من

النوع الذي لا يعتمد عليه، ويمكن أن تختار سالم من غير قرار منها إلى ما هو أبعد من مظهره؟ ان سالم ونخوة تعاهدا على أن يتزوجا عندما يستقر الحال لسالم وجماعته، ويتخلصون من هذا الشيخ اللعين، وقد تعاهدا على ذلك أمامي، واشهدا الله عليه.

اغرورقت عينا أبي سالم بالدموع فرحا، وقبّل ابنته وهو يقول لها:

ــ بشرك الله بالخير، يا ابنتي.. لقد أرحت قلبي ونفسي، أراحك الله، وبارك فيك..

عادت أخت سالم لتقول لأبيها:

ــ أرجوك، يا أبت، اكتمها، حتى نأخذ رأي سالم وموافقته على اشراك أمي بهذا، وهل يوافق على هذا أم لا يوافق.

على هذه الخلفية، استقبلت عائلة سالم نخوة في بيتها هذه المرة.. لذلك كان أبو سالم وأم سالم فرحين جذلين بسعادتهما، ومن الطبيعي أن تكون أخت سالم معهما على الوصف نفسه..

*** *جاء الرعاة بالأغنام، واستأذن أبو سالم لينصرف إلى حلبها، وهمت أن تتبعه لعمل اليوم المعتاد زوجته أم سالم، لولا أنه أشار إليها بيده أن أبقى مع نخوة، أنت وأختها ابنتك، وقال:

ــ لا حاجة لنا بك، وسوف تقوم نيابة عنك في حلب الأغنام نساء الرعاة وبناتهم.. ابقي، يا أم سالم، مع ابنتنا نخوة.. وسأحاول أن أعود إليكم بأسرع وقت..

ومن الطبيعي أن لا تشجع أخت سالم أمها على الذهاب مع أبيها هذه المرة، مثلما فعلت في المرة السابقة، ذلك أن التفاهم تم بين نخوة وسالم، ولم يعد هناك ما يستوجب أن يختليا بغيابها..

بعد أن خرج أبو سالم إلى الغنم بفاصلة ليست طويلة، وفي الوقت الذي كانت أم سالم منشغلة خارج البيت، لاحظت نخوة وأخت سالم أن الكلاب انطلقت وهي تنبح، وبدتا تنتظران كأنهما على معرفة بما يحصل.. كانتا تنتظران أن تكف الكلاب عن النباح بعد حين من انطلاقها، لتعرفا أن القادم هو سالم، ذلك ان الكلب إذا سكت بعد انطلاقه إلى مسافة فمعنى ذلك انه عرف من انطلق إليه.. وفعلا ما هي إلا هنيهة حتى سكتت الكلاب، وبعد دقيقة أو نحو ذلك من سكوتها، سمعتا من يتنحنح من جهة الطرف الغربي لبيت الشعر، جهة العيال، وقالتا معا:

ــ ابشر.

في الوقت الذي قالت أخت سالم بالاضافة إلى ذلك:

ــ تفضل.

عندما التقت عيونهما بعيني سالم، كانتا تتبسمان، وهما واقفتان.

تبسم سالم وهو يقول:

ــ كأنكما تعرفان انني قادم في هذه اللحظة.. لكنه كان يخاطب نخوة في الحقيقة..

قالت نخوة، بعد ان سلم عليها وعلى أخته:

ــ نعم، لقد قدرنا أن تكون القادم إلينا، لأن الكلاب سكتت بعد أن انطلقت وهي تنبح، ولو وجدت شخصاً غريباً لاستمر نباحها ومشاغلتها لمن يحضر، ثم انها انطلقت ناحية الغرب، وهذا دليل آخر على أن القادم ليس ضيفا، لأن الضيف يأتي من ناحية الديوان المقرر للضيوف (الخطار)، من جهة الشرق.. رغم ان بعض مقطوعي الرسن قد ادخلوا تقليدا جديدا على مكان المضيف فجعلوه، بخلاف تقاليد العرب على جهة الغرب..

تبسم مرة أخرى وجلس، وبدأ يسأل نخوة:

ــ ها، كيف حالك، يا نخوة؟
ــ بخير.. وكيف حالك أنت؟ وكيف هي أموركم؟
ــ بخير.. وكل شيء على ما يرام.. ان علومك) أخبارك) وصلت إلينا عندما رفضت الدبكة مع الشيخ اللعين، واخترت رجلاً ملثماً حرص، وهو يراقصك، على أن لا ينزع لثامه خلاف العادة.. لذلك يتحدث جماعتنا ــ قال سالم ــ عنك باعتبارك نخوتهم مثلما أنت، لكنهم يتحدثون عن ذاك الشبح الذي اخترته لتبكي معه، ومن الطبيعي أن أكون من بين مستمعي تلك الأخبار وكأنني لا أعرفها ولا تعنيني إلا على أساس معانيها العامة..
أنهى سالم كلامه، وضحك بصوت منخفض لئلا يسمع خارج بيت الشعر، وضحكت نخوة وأخته، لكن نخوة أردفت ضحكتها بالقول:
ــ وهل لذلك معنى آخر غير المعنى القائم في نفسك، يا سالم؟
أجاب سالم، وهو يتبسم:
ــ أنت تعرفين، يا نخوة، أنت تعرفين.. وقبل ذلك، يعلم الله..
تدخلت أخته لتقول وهي تتبسم:
ــ وأنا أعرف أيضاً!! ــ نعم ــ يقول سالم ــ أنت تعرفين، يا أخيّة، لكن ليس مثلما نعرف أنا ونخوة، ومثلما يعلم الله..
يضحك الثلاثة، في حبور وسعادة عظيمة..
تقول نخوة:
ــ كيف هي أموركم؟ من الضروري أن تحزموا أمركم، إذا كنت قد هيأتم أموركم للتخلص من الشيخ الملعون؟! ــ العزم والهمة متوفران، يا نخوة، لكن الهمة والعزم يحتاجان إلى تدبير ليكونا مؤثرين ويصيبا الهدف.. ومثلما يكون التدبير اعضب من غير همة وعزم، تحتاج الهمة والعزم للتدبير.. واننا نجري حسابات تقدير الموقف.. خاصة توقع ان يتدخل شيخ قبيلة الروم في حال انتصارنا على حسقيل..
ــ وماذا يمكن ان يفعله شيخ الروم بعد انتصارنا على حسقيل ــ تسأل نخوة ــ خاصة عندما يجد أن قبيلتنا تقول كلها بلسان واحد وتتصرف كرجل واحد؟
ثم اضافت بعد أن تبسمت:
ــ وتتصرف النسوة كأنهن في رأي وموقف امرأة واحدة.
ــ وهل تظنين، يا نخوة، ان حسقيل تسلل إلى القبيلة من غير أن يكون هناك من ساعده ويساعده في ذلك؟ ثم كيف أصبح شيخا للقبيلة لولا الضعف الذي أصاب القبيلة؟.. ان الضعف الذي اقصده هنا، يا نخوة، ليس ضعف الهمة فحسب، إنما ضعف النفس والأخلاق والولاء للقبيلة..
ــ لكن لكل شيء سببا.. ولكي تعرف النتائج ينبغي أن تعرف أسبابها.. ان المدخل الكبير الذي اضعف نفسية وهمة من ضعف هو ضعف الرأس، فعندما يمرض الرأس، يا سالم، لا يكون باستطاعة الجسد أن يصمد ويكون معافى.
ــ نعم، يا نخوة، هذا صحيح، لكن ليس الرأس فقط هو الضعيف الآن، إنما امتد الضعف والمرض من الرأس إلى الأكتاف حتى وصل الاقدام.. وهذا يحتاج إلى تدبير، وليس إزاحة الرأس واستبداله برأس آخر فحسب، إذ قد تكون العدوى عكسية إذا اقتصر الأمر على استبدال رأس برأس.

علقت نخوة:

ــ لكن إذا ما صح الرأس، وكان بخواص تجعله قادرا على تأدية واجباته، يستطيع ان يعمل الشيء الكثير ليخلص الأجزاء الأخرى من المرض.

ــ نعم، هذا صحيح، وحول كل هذا يجري تقدير الموقف.. ليكون عملنا رصينا، ومن بين ذلك حساب ردود فعل شيخ الروم..

ــ لكن شيخ الروم، إذا وضع أمام أمر واقع جديد سيعيد النظر في حساباته في كل الأحوال، وسيحسب حساب مصالحه المقبلة وليس القديمة، وحساب ما يمكن أن يحققه منها مع شيخ جديد، وليس ما كان يتعامل بها مع الشيخ القديم الذي سيكون (رحمه الله..(

ان نظرة اصحاب المصالح، يا نخوة، غير نظرة اصحاب المبادئ.. ان نظرة اصحاب المصالح لا تصاغ اساسا على النتائج التي يأملونها في النهايات البعيدة، مهما قدموا من تضحيات، إنما ما يمكن أن يحققوه منها بصورة مستعجلة في الغالب الأعم، وهم غير مستعدين لأي نوع من أنواع التضحية بأنفسهم، إنما بأنفس غيرهم سواء من أبناء قومهم أو من أقوام أخرى، أما أصحاب المبادئ فإن حساباتهم الأساسية تستند إلى مواجهة الباطل بالحق.. لذلك تكون حسابات (الى جانب من يكون الحق) و(الى جانب من يكون الباطل) حاسمة، مع ان المبدئيين لا يغفلون الواقع مثلما هو، لكنهم لا يقبلونه مثلما هو، لأن دورهم الأساس هو تغيير ما هو مرفوض، وعلى أساس هذه المفاهيم، أقول إننا نعيد النظر في تقدير الموقف، وبعد أن نستكمل حساباتنا، سوف نقرر، ولا اقصد بهذا اننا لم نقرر الهدف حتى الآن.. ان ازاحة حسقيل هي هدفنا لنحرر إرادتنا، لنقرر ما نريده لأنفسنا ونوع العلاقة مع الآخرين.. لكن ما اقصده هو توقيت بدء العمل علناً وبصورة حاسمة تحت هذا الشعار لإنجاز الهدف، بعد ان عملنا على انضاج الظرف، وصار الرأي إلى جانبنا داخل القبيلة بضرورة تنحية حسقيل بوسائل اخرى، ان لم يتركنا ويرحل، وكان لك دورك المشهود، يا نخوتنا..

قال ذلك وهو يتبسم، وينظر بتمعن في وجه نخوة.

قالت نخوة:

ــ حماكم الله، وأمدكم بالقدرة، فمنه التوفيق، وبه سبحانه نستعين..

ردد الجميع:

ــ آمين..

عاد أبو سالم إلى البيت، وبعد ان قبّل سالم على رقبته ووجهه، وفعل سالم لأبيه ما فعله أبوه له، قالت أم سالم لابنتها:

ــ جهزي العشاء.

قالت نخوة:

ــ سأغادر.. لقد تأخرت، يا عمة، لو سمحتم.

قالت أم سالم، يردفها أبو سالم بنفس الاتجاه:

ــ كيف، يا ابنتي!، حقك ذبيحة.. لكنك تأتين مستعجلة دائماً.

أجابتها:

ــ لا اعتقد أنني بحاجة لاختبركم، يا عمة، كرم أبي سالم معروف، وقد صرنا بيتاً واحداً إلا ما حرّم الله.

ــ نعم ــ أجاب أبو سالم ــ ولله الحمد، لكن هذه المرة لا بد أن تمالحينا.. والعشاء جاهز، يا ابنتي، حليب وخبز

وفوقهما زبدة ضأن.. ولا بد أن تكون اختك ــ ويقصد أخت سالم ــ قد هيأته الآن.. كلي معنا ولو لقمة واحدة، واذهبي راشدة سالمة.

بقيت نخوة نزولاً عند رغبته، وعادت وجلست بعد أن كانت قد هبت واقفة عندما استأذنت..

احضر العشاء.. ومدّ أبو سالم يده وهو يقول:

ــ بسم الله.

سمى الجميع باسم الله، وأكلوا.. وبعد أن أكملوا العشاء قالوا:

ــ الحمد لله ربّ العالمين.

***عندما سألت أم نخوة ابنتها قبل أن تخرج لملاقاة سالم في بيت أبيه: هل تذهبين إلى بيت سالم؟، بات واضحاً لدى نخوة أن أمها كانت تفضل ان لا تكون نخوة في البيت مع أمها مساء ذلك اليوم.. وان هذه الرغبة لم تتولد لدى أمها إلا لأنها أرادت أن تلتقي حسقيل.. ومع ذلك لم تسأل أمها عن شيء من هذا القبيل، وعندما دخلت بيتها جذلى، بعد أن جاءت من بيت أبي سالم، صاحت:

أماه.. أماه..

ولكن احداً لم يجبها، ولاحظت ان العمود الاوسط الفاصل بين مكان الرجال والنساء في بيت الشعر سقط، وان الفراش الذي يوضع عادة حيث مكان العمود ليفصل هو الآخر بين المكانين، ويكون حاجبا للناظر من أي من المقطعين الى المقطع الآخر، بما يضمن قدرا من الحرية للنساء، وهن في موقعهن الذي ان جلسن به مع وجود رجال في المقطع الآخر، غالبا ما تتكلم كل منهن همسا، أو يتفاهمن بالاشارات..

لاحظت نخوة ان عمود وسط البيت والفراش سقطا على الارض، وعندما رأت الحال في بيت الشعر على هذه الصورة، خفت عائدة الى بيت احد الرعاة، أو العبيد، وهي تصيح لصاحبة البيت باسمها:

مرجانة.. مرجانة..

جاءها الصوت من داخل البيت:

نعم (أمة) ــ تقصد عمة ــ لصعوبة لفظ حرف (العين) من الاعاجم، وجاءت تركض، يتبعها من كان في البيت، وآخرون من بيوت الرعاة أو الخدم والعبيد المجاورة..

سألتهم نخوة عن امها..

قال الجميع.. وخاصة العبدات اللائي كن مع من حضر:

أمة (عمة)، أمتي (عمتي) كانت في البيت، وقد صرفتنا.. قائلة لنا انها لا تريدنا في البيت، لأن هناك من سيحضر اليها.. ولأن بيوتنا خلف البيت لم نعرف من جاءها..

همت احداهن بأن تقول:

قد يكون (أمي) عمي حسقيل.. ولكنها كتمتها عندما حدجتها (رمقتها) عجوز بنظرة تعني ان لا تقولي، أو لا معنى لقولك، لأنه يحرج نخوة ..فبلعت كلمتها، وقد فهمت نخوة ذلك.

قالت نخوة:

لتذهب فلانة الى بيت عمنا فلان، اذ قد تكون امي عندهم.. وفلانة الى بيت فلان، وانتن يا بنات اعدن الفراش الساقط

على الارض الى حيث كان، وانتم يا رجال، ارفعوا عمود البيت الوسط، واعيدوه الى حيث كان..
بينما كان الرجال والنساء يتعاونون كل لانجاز واجبه، ويسندون صهوة بيت الشعر برؤوسهم وايديهم، في الوقت الذي راحت النساء يعدن الفراش (الساقط) الذي كان عبارة عن عدد من البسط والسجاجيد والالحف والشفوف، الى حيث موضعه، صاحت احدى العبدات:
لا.. لا.. لا.. (أمة..(
وفي الوقت الذي اعادوا قسما من الفراش الى موضعه، ليستخرجوا العمود الاوسط من تحته، فيما بقي الرجال يسندون البيت برؤوسهم وايديهم، رافعين سقفه (شققه) الى الاعلى، تجمعت النسوة، ومنهن نخوة الى حيث اشارت العبدة، وبعد ان ازاحوا الفراش بأن قدمي امرأة ظهر انهما قدما ام نخوة، ووجدوا ان العمود الوسط سقط فوق رأسها، وبدا وكأنه سقط عليها بفعل ميل الفراش خلفه، مما تسبب في دفعه ناحيتها، وبميلانه سقط على رأسها وفوقه الفراش، وحطم رأسها، أو هكذا ظهر لمن اعان نخوة على اخلاء الجثة، وهكذا ايضا فسر الجميع الحادث، الا نخوة فقد خمنت كل شيء، كأنها قد عرفته، واسرته في نفسها، ولم تقل لأحد تفسيرها، وابقت تفسير من حضروا معها هو التفسير السائد في العشيرة.
***بكت نخوة أمها بكاء مرا حزينا، ليس لأنها ماتت، بل لأنها صحت على نفسها في أواخر ايامها في الحياة..
وتمردت على حسقيل، وبكتها لأن حسقيل غدر بهما، وما كان يفعل ذلك لو لم تجعله أمها يتجرأ عليهما بسبب ضعفها، وبعد ان طمع في ضعفها، ولو كان هناك رجال تعتمدان عليهم في البيت لما جرؤ حسقيل على ان يفعل ذلك..
ــ يا حسرتي على الرجال الشجعان الذين يلوون شارب حسقيل الخاسئ هو وحليفه كلب الروم: شيخ قبيلة الروم، ولكنها استدركت لتقول:
ــ ولكن سالم ورجاله.. رجالنا.. يتأهبون لينقضوا عليه.. وسوف يفعلون وسوف نسندهم نحن الماجدات في هذه القبيلة بما يعز اهلنا..
عندما قالت نخوة الجملة الاخيرة، بدت كأنها افاقت من تابوت حزنها، بل كأنها بهذه الجملة فتحت على نفسها كوة (نافذة) في جدار الحزن، ورأت فيه الصورة الأخرى، فعادت تقول:
ــ ولكن حسقيل، بارتكابه هذه الجريمة، اضاف الى ذنوبه ذنبا جديدا.. سيكون حسابه عليها حسابا شديدا، وقد اعطاني فرصة ان اعذبه، باسم الله، عذابا شديدا..
قالت ذلك كأنها وصفت صورة تصرفها اللاحق، ووضعتها امام ناظريها كمشروع أو دليل عمل لها، حتى استقرت عليه، بعد ان رسمها خيالها في عقلها، ثم عادت لتقول:
ــ وفي الوقت نفسه، غسلت امي، امام الله، جزءا من ذنوبها وعارها، وما ادراني وهو الغفور الرحيم، انه قد يغفر لها كل ذنوبها، بعد ان قتلت ظلما بيد حسقيل، وبعد ان تابت ووقفت بوجهه، وطالبته بأن ينفذ وعده بما يرضي الله لو حصل الزواج.. ولكن أتراه قام بهذا بعد ان همت أمي بأن تضربه بفأس أو خنجر مثلما كانت قد أعلمتني من قبل، وثنيتها عنه؟ أم انه قام بهذا ليتخلص منها انسياقا خلف خطته الشريرة لينال مني..؟ أم انه قام بهذا ليتخلص من وعده الزواج منها..!؟
ثم تواصل مناجاتها لنفسها:
ــ ليس المهم الزواج.. وانما المهم انها وقفت في الاشهر الاخيرة بوجهه، ولم تعد تطاوعه، وصارت تجادله، بل

ترفض طلباته غير المشروعة بإباء، والرفض بداية التمرد وطريقه، ووسيلته الاساس للتغيير، ولكن الملعون قتلها.. والحمد لله، انه قتلها.. لقد اخذ الله الروح التي لا تعز وابقى الارواح التي تعز.. بقينا نحن.. انا وسالم واخت سالم، وشباب وشابات القبيلة الاطهار، وسوف نواصل طريقنا الى حيث ينبغي ان نخلص القبيلة من تحالف الروم مع حسقيل فينزاح الهم الكبير.. وانا لله وانا اليه راجعون.. وليرحمك الله، يا اماه..

قالت نخوة كل ذلك، بعد ان غطت امها بملاءة وهي ممدة على سجادة، وكان كتفاها ملطخين بدمها النازف من رأسها ومن انفها، وبعد ان تحسست نخوة مكان الضربة، وجدت انها ضربة فأس، وليست ضربة عمود، لكنها كتمت ذلك.. وعندما راحت تبحث عن الفأس وجدتها مرمية على مقربة من البيت وفيها اثار دم واضحة.. وقد انتحت جانبا برجلين من الخدم كانت تعتمد على كتمانهما السر، بالاضافة الى انهما، وفق ما عرفت من سالم، من بين رجاله الذين يعتمد عليهم، وكان يكلفهما بتسقط اخبار حسقيل، عندما يزور امها في البيت.. بالاضافة الى ابن عم لها تعرفه من رجال سالم ايضا.. وبعد ان اطلعتهم على الفأس والدم الذي يغطيها، قال احدهم ان هذا يعني ان الشيخة قتلت بفأس، وليس بسبب سقوط العمود الاوسط في البيت.. وأيده الآخرون..

قالت نخوة:

ــ نعم، هذا هو التفسير الصحيح.. ولكن علينا ان نكتم هذا الاستنتاج الى حين.. اقول لكم هذا، لانني اثق بكم ولأنكم من رجال سالم، بالاضافة الى انكم من الشباب المخلصين في قبيلتنا، لأن كشف هذا السر الآن يضر بحركتنا.. قالت لهم (يضر بحركتنا) بعد ان كشفت لهم انها تعرف ارتباطهم بسالم، كما انهم كانوا اصلا يعرفون انها تنشط بين صفوف النساء، أو يعرفون موقفها من حسقيل، بعد ان رفضت ان تدبك معه في تلك الليلة الشهيرة، واختارت ان تدبك مع ذاك الملثم..

عندما قالت لهم نخوة: اكتموا هذا واحفظوا الفأس في كيس الى يوم آخر ..استنتجوا ان نخوة تقصد حسقيل لا غيره..

ــ فمن يمكن ان يقوم بذلك غير حسقيل الغادر؟ هكذا قالوا في انفسهم.. قال ابن العم غير المباشر لنخوة:

ــ ربما كلف حسقيل من هو طوع بنانه من الخدم أو العبيد بأن يفعل ذلك ثم يتساءل في نفسه ايضا:

ــ ولكن لماذا؟ ومن هو؟ الا يعتبر خطرا على حياة نخوة؟ لماذا لا انبه نخوة الى ذلك؟..

ثم ينثني ليقول:

ــ اننا امام تدبير محنك هذا الذي تقوم به نخوة، وتتحمله اعصابها، وهي على هذا لا بد ان تكون حسبت لكل شيء حسابه، خاصة بعد ان تمرست على ما يبدو، في العمل السري، وهي تعمل ضد حسقيل وحلفه البغيض وجماعة الشيوخ المنحرفين معهما..

ثم يعود ليقول:

ــ وماذا يضر لو نبهتها لذلك؟..

ثم يطلب من نخوة ان يقول لها كلاما بينه وبينها بعد ان استأذن الرجلين الآخرين..

شكرته نخوة، وقالت:

ــ اطمئن.. سأتصرف..

وسكت لأنها أكبر سنا منه..

(٩)

عندما سألت أم نخوة ابنتها قبل أن تخرج لملاقاة سالم في بيت أبيه: هل تذهبين إلى بيت سالم؟، بات واضحاً لدى نخوة أن أمها كانت تفضل ان لا تكون نخوة في البيت مع أمها مساء ذلك اليوم.. وان هذه الرغبة لم تتولد لدى أمها إلا لأنها أرادت أن تلتقي حسقيل.. ومع ذلك لم تسأل أمها عن شيء من هذا القبيل، وعندما دخلت بيتها جذلى، بعد أن جاءت من بيت أبي سالم، صاحت:

أماه.. أماه..

ولكن احداً لم يجبها، ولاحظت ان العمود الاوسط الفاصل بين مكان الرجال والنساء في بيت الشعر سقط، وان الفراش الذي يوضع عادة حيث مكان العمود ليفصل هو الآخر بين المكانين، ويكون حاجبا للناظر من أي من المقطعين الى المقطع الآخر، بما يضمن قدرا من الحرية للنساء، وهن في موقعهن الذي ان جلسن به مع وجود رجال في المقطع الآخر، غالبا ما تتكلم كل منهن همسا، أو يتفاهمن بالاشارات..

لاحظت نخوة ان عمود وسط البيت والفراش سقطا على الارض، وعندما رأت الحال في بيت الشعر على هذه الصورة، خفت عائدة الى بيت احد الرعاة، أو العبيد، وهي تصيح لصاحبة البيت باسمها:

مرجانة.. مرجانة..

جاءها الصوت من داخل البيت:

نعم (أمة) ــ تقصد عمة ــ لصعوبة لفظ حرف (العين) من الاعاجم، وجاءت تركض، يتبعها من كان في البيت، وآخرون من بيوت الرعاة أو الخدم والعبيد المجاورة..

سألتهم نخوة عن امها..

قال الجميع.. وخاصة العبدات اللائي كن مع من حضر:

أمة (عمة)، أمتي (عمتي) كانت في البيت، وقد صرفتنا.. قائلة لنا انها لا تريدنا في البيت، لأن هناك من سيحضر اليها.. ولأن بيوتنا خلف البيت لم نعرف من جاءها..

همت احداهن بأن تقول:

قد يكون (أمي) عمي حسقيل.. ولكنها كتمتها عندما حدجتها (رمقتها) عجوز بنظرة تعني ان لا تقولي، أو لا معنى لقولك، لأنه يحرج نخوة ..فبلعت كلمتها، وقد فهمت نخوة ذلك.

قالت نخوة:

لتذهب فلانة الى بيت عمنا فلان، اذ قد تكون امي عندهم.. وفلانة الى بيت فلان، وانتن يا بنات اعدن الفراش الساقط على الارض الى حيث كان، وانتم يا رجال، ارفعوا عمود البيت الوسط، واعيدوه الى حيث كان..

بينما كان الرجال والنساء يتعاونون كل لانجاز واجبه، ويسندون صهوة بيت الشعر برؤوسهم وايديهم، في الوقت الذي راحت النساء يعدن الفراش (الساقط) الذي كان عبارة عن عدد من البسط والسجاجيد والالحف والشفوف، الى حيث موضعه، صاحت احدى العبدات:

لا.. لا.. لا.. (أمة..(

وفي الوقت الذي اعادوا قسما من الفراش الى موضعه، ليستخرجوا العمود الاوسط من تحته، فيما بقي الرجال يسندون

البيت برؤوسهم وايديهم، رافعين سقفه (شققه) الى الاعلى، تجمعت النسوة، ومنهن نخوة الى حيث اشارت العبدة، وبعد ان ازاحوا الفراش بأن قدمي امرأة ظهر انهما قدما ام نخوة، ووجدوا ان العمود الوسط سقط فوق رأسها، وبدا وكأنه سقط عليها بفعل ميل الفراش خلفه، مما تسبب في دفعه ناحيتها، وبميلانه سقط على رأسها وفوقه الفراش، وحطم رأسها، أو هكذا ظهر لمن اعان نخوة على اخلاء الجثة، وهكذا ايضا فسر الجميع الحادث، الا نخوة فقد خمنت كل شيء، كأنها قد عرفته، واسرته في نفسها، ولم تقل لأحد تفسيرها، وابقت تفسير من حضروا معها هو التفسير السائد في العشيرة.

***

بكت نخوة أمها بكاء مرا حزينا، ليس لأنها ماتت، بل لأنها صحت على نفسها في أواخر ايامها في الحياة.. وتمردت على حسقيل، وبكتها لأن حسقيل غدر بهما، وما كان يفعل ذلك لو لم تجعله أمها يتجرأ عليهما بسبب ضعفها، وبعد ان طمع في ضعفها، ولو كان هناك رجال تعتمدان عليهم في البيت لما جرؤ حسقيل على ان يفعل ذلك..

ــ يا حسرتي على الرجال الشجعان الذين يلوون شارب حسقيل الخاسئ هو وحليفه كلب الروم: شيخ قبيلة الروم، ولكنها استدركت لتقول:

ــ ولكن سالم ورجاله.. رجالنا.. يتأهبون لينقضوا عليه.. وسوف يفعلون وسوف نسندهم نحن الماجدات في هذه القبيلة بما يعز اهلنا..

عندما قالت نخوة الجملة الاخيرة، بدت كأنها افاقت من تابوت حزنها، بل كأنها بهذه الجملة فتحت على نفسها كوة (نافذة) في جدار الحزن، ورأت فيه الصورة الأخرى، فعادت تقول:

ــ ولكن حسقيل، بارتكابه هذه الجريمة، اضاف الى ذنوبه ذنبا جديدا.. سيكون حسابه عليها حسابا شديدا، وقد اعطاني فرصة ان اعذبه، باسم الله، عذابا شديدا..

قالت ذلك كأنها وصفت صورة تصرفها اللاحق، ووضعتها امام ناظريها كمشروع أو دليل عمل لها، حتى استقرت عليه، بعد ان رسمها خيالها في عقلها، ثم عادت لتقول:

ــ وفي الوقت نفسه، غسلت امي، امام الله، جزءا من ذنوبها وعارها، وما ادراني وهو الغفور الرحيم، انه قد يغفر لها كل ذنوبها، بعد ان قتلت ظلما بيد حسقيل، وبعد ان تابت ووقفت بوجهه، وطالبته بأن ينفذ وعده بما يرضي الله لو حصل الزواج.. ولكن أتراه قام بهذا بعد ان همت أمي بأن تضربه بفأس أو خنجر مثلما كانت قد أعلمتني من قبل، وثنيتها عنه؟ أم انه قام بهذا ليتخلص منها انسياقا خلف خطته الشريرة لينال مني..؟ أم انه قام بهذا ليتخلص من وعده الزواج منها..!؟

ثم تواصل مناجاتها لنفسها:

ــ ليس المهم الزواج.. وانما المهم انها وقفت في الاشهر الاخيرة بوجهه، ولم تعد تطاوعه، وصارت تجادله، بل ترفض طلباته غير المشروعة بإباء، والرفض بداية التمرد وطريقه، ووسيلته الاساس للتغيير، ولكن الملعون قتلها.. والحمد لله، انه قتلها.. لقد اخذ الله الروح التي لا تعز وابقى الارواح التي تعز.. بقينا نحن.. انا وسالم واخت سالم، وشباب وشابات القبيلة الاطهار، وسوف نواصل طريقنا الى حيث ينبغي ان نخلص القبيلة من تحالف الروم مع حسقيل فينزاح الهم الكبير.. وانا لله وانا اليه راجعون.. وليرحمك الله، يا اماه..

قالت نخوة كل ذلك، بعد ان غطت امها بملاءة وهي ممدة على سجادة، وكان كتفاها ملطخين بدمها النازف من رأسها

ومن انفها، وبعد ان تحسست نخوة مكان الضربة، وجدت انها ضربة فأس، وليست ضربة عمود، لكنها كتمت ذلك.. وعندما راحت تبحث عن الفأس وجدتها مرمية على مقربة من البيت وفيها اثار دم واضحة.. وقد انتحت جانبا برجلين من الخدم كانت تعتمد على كتمانهما السر، بالاضافة الى انهما، وفق ما عرفت من سالم، من بين رجاله الذين يعتمد عليهم، وكان يكلفهما بتسقط اخبار حسقيل، عندما يزور امها في البيت.. بالاضافة الى ابن عم لها تعرفه من رجال سالم ايضا.. وبعد ان اطلعتهم على الفأس والدم الذي يغطيها، قال احدهم ان هذا يعني ان الشيخة قتلت بفأس، وليس بسبب سقوط العمود الاوسط في البيت.. وأيده الآخرون..

قالت نخوة:

ــ نعم، هذا هو التفسير الصحيح.. ولكن علينا ان نكتم هذا الاستنتاج الى حين.. اقول لكم هذا، لانني اثق بكم ولأنكم من رجال سالم، بالاضافة الى انكم من الشباب المخلصين في قبيلتنا، لأن كشف هذا السر الآن يضر بحركتنا.. قالت لهم (يضر بحركتنا) بعد ان كشفت لهم انها تعرف ارتباطهم بسالم، كما انهم كانوا اصلا يعرفون انها تنشط بين صفوف النساء، أو يعرفون موقفها من حسقيل، بعد ان رفضت ان تدبك معه في تلك الليلة الشهيرة، واختارت ان تدبك مع ذاك الملثم..

عندما قالت لهم نخوة: اكتموا هذا واحفظوا الفأس في كيس الى يوم آخر ..استنتجوا ان نخوة تقصد حسقيل لا غيره..

ــ فمن يمكن ان يقوم بذلك غير حسقيل الغادر؟ هكذا قالوا في انفسهم ..

قال ابن العم غير المباشر لنخوة:

ــ ربما كلف حسقيل من هو طوع بنانه من الخدم أو العبيد بأن يفعل ذلك ثم يتساءل في نفسه ايضا:

ــ ولكن لماذا؟ ومن هو؟ الا يعتبر خطرا على حياة نخوة؟ لماذا لا انبه نخوة الى ذلك؟..

ثم ينثني ليقول:

ــ اننا امام تدبير محنك هذا الذي تقوم به نخوة، وتتحمله اعصابها، وهي على هذا لا بد ان تكون حسبت لكل شيء حسابه، خاصة بعد ان تمرست على ما يبدو، في العمل السري، وهي تعمل ضد حسقيل وحلفه البغيض وجماعة الشيوخ المنحرفين معهما..

ثم يعود ليقول:

ــ وماذا يضر لو نبهتها لذلك؟..

ثم يطلب من نخوة ان يقول لها كلاما بينه وبينها بعد ان استأذن الرجلين الآخرين..

شكرته نخوة، وقالت:

ــ اطمئن.. سأتصرف..

وسكت لأنها أكبر سنا منه ..

***

عاد الخادمان وطلبا لقاء نخوة معا، من غير ان يحضر ابن عمها، فاستجابت لرغبتهما..قال اكبرهما سنا:

ــ رأيت، مع صاحبي هذا، حسقيل يدخل بيتكم، واعذرينا، يا عمة ويا اختاه، ان فعلنا ذلك.. لاننا عندما عرفنا ان امك صرفت الخادمات والعبدات (الاماء(، قدرنا ان ضيفها سيكون حسقيل، لذلك حاولنا ان نتأكد ونحن نسترق النظر ونشغل انفسنا بعمل خارج بيت الشعر المقرر لنا، ومع انه حرص على ان يأتي ويدخل من مقدمة البيت، في الوقت

الذي تكون بيوتنا في ظهر البيت فلا نرى شيئا.. فقد رأيناه يدخل، ورأيناه يخرج ايضا، بعد زمن قصير على غير عادته، ولم نلاحظ بعد ذلك ان احدا غيره دخل البيت، ولم نلحظ ان امك الشيخة، رحمها الله، خرجت منه.. لذلك فان هذا الذي رأيناه مع الفأس الملطخة بالدماء يؤكدان بوضوح ان الفاعل هو حسقيل الملعون.

لاحظت نخوة انهما وصفا حسقيل هذه المرة بالملعون.. ومع انها لم تستغرب جرأتهما.. قالت في نفسها:

ــ ان الحق يدحر الباطل، وإن كان الباطل متجبرا وان الحق ينطق الحجر الاصم ويقوي من يعتقد انه ضعيف وان التمرد والتحريض عليه يجعلان المستضعفين يشعرون بانهم اقوياء الى الحد الذي يتملكهم فيه شعور من يستطيع بالمبادئ والتدبير، ان يواجه كل عات لعين بصدر عامر بالايمان، بعد ان يهيئ الحجة على من يكون على باطل.

وهكذا كان الشابان، مع انهما يقومان بأعمال الخدمة في بيت نخوة، الذي كان حسقيل الى وقت ليس ببعيد جدا يتصرف فيه كأنه سيد البيت، بالاضافة الى انه شيخ العشيرة.. كانا يتكلمان بثقة ومن غير خوف من حسقيل، وهما يزيدان على قولهما ذاك:

ــ نحن رجالك الامناء، يا نخوة وانت اختنا، بالاضافة الى انك سيدة الدار الذي نعيش نحن وعائلتنا على خيره، بل انت نخوتنا ونخوة كل شريف طاهر يواجه الظلم، ونحن عين عينيك وحمايتك، وأي شيء تأمرين به نؤديه، ان شاء الله، ونكون من الطائعين المقتنعين، بل المتحمسين لتنفيذه، لاننا مقتنعون برجاحة عقلك وطهارة روحك وعفة نفسك واخلاصك العظيم للقبيلة وحماها ومصالحها.

عندما سمعت نخوة منهما ذلك، سالت دموعها على وجنتيها، ومع انها لم تشعر بضعف بعد ان نضجت ولم تشعر بالوحدة بعد ان صارت تمارس وتحرض على التمرد ضد حسقيل وحلفه، فانها بسماعها كلام من يؤديان الخدمة في بيتها، سواء في واجبات الضيافة او (مباراة) المواشي الى جانب الرعاة، شعرت بعمق ما فعله الاعداد للتمرد الذي يقوم به سالم وجماعته في نفوس حتى الناس المستضعفين الذين ينظر اليهم الجبارون نظرة استصغار او نظرة دونية، ونسوا ان تقسيم العمل بين الناس لا يلغي آدميتهم، بل لا يلغي في المستضعفين العوامل الكامنة فيهم للتمرد ضد الباطل، اذا ما وجدوا من يكون رمزا للحق ونموذجه، ولا ينحني امام الباطل وجبروته ولا تخدعه ألاعيبه.

كانت نخوة تقول ذلك في نفسها، وهي تستمع الى محدثيها.. ورغم انهما قالا ما ارادا قوله، فقد استمرت نخوة تداور ذلك في عقلها ونفسها، حتى ظنا انها انشغلت عنهما ومع ذلك لم يقاطعاها.. وعندما انتهت من مداورة كل تلك الافكار، راحت دموعها تنهمر على وجنتيها، كأنها دموع فرح، ممتزجة بغسل الهم والضعف، ليكون الشعور بما يزيد القوة والعزم بعد ذلك.. وهكذا كفكفت دموعها بطرف ملفعها، وقالت:

ــ نعم، يا اخويَّ، سمعان وعمر، احفظا ما قلتماه الآن، واكتماه الى ان اقول لكما: متى..

قال سمعان وعمر:

ــ امرك عمة.. وانصرفا ولحق بهما ابن عمها حازم وهو يضع الفاس في كيس..

***

عادت نخوة الى النساء اللائي يحطن بالجثة ويندبن ويولولن.. وبدلا من ان تقيم نخوة عشاء للرجال في بيتها، حيث لا اخ ولا أب، كلفت عددا من ابناء عمومتها الأبعدين بان يقيموا ولائم عشاء على روح امها، بعد ان زودتهم بخراف وعدة الطبخ ومواده، وجعلت العشاء في اكثر من مكان، وهي تقول:

ــ ليأكل الجميع على روح والدتي.. حيث صار سخاؤها على لسان كل افراد العشرية، حتى ان حسقيل اوصى لها قبل

ان يلتقيها بان تقلل من الذبح لان هذا يفيدها بعد ان آلت اليها كل ملكية ابيها وامها، وكانت ملكية كبيرة من الغنم والبقر والجمال والخيول.. وكأنه اراد في نفسه ان يقول:

ــ "ان هذا كله سيؤول ليَّ، بعد ان اتزوج نخوة.. وصرف اي شيء منه ينقص ملكيتي والافضل ان اوصي نخوة بان تقتصد".. وقد حرصت نخوة على ان تقيم ولائم عشاء على روح امها على مدى ثلاثة ايام متتاليات وكانت تقول في نفسها:

ــ عسى ان يغسل اطعام الفقير جزءا من ذنوب امي وابي، ورغم ان امي لم تكن بخيلة تماما، مع انها اعجمية الاصل، فقد كان ابي، رحمه الله، بخيلا جدا، وما لم يستطعه في حياته، سأعينه عليه ومنه في مماته.

ومثلما فعلت لابيها عندما مات، عملت لأمها عندما قتلت.. استمرت معتكفة في بيتها سبعة ايام، تراجعها نساء القبيلة لمواساتها في مصابها، وجعلت الخدم والعبيد يذبحون ما يذبحون من الجمال والابقار والاغنام كل يوم ويطبخون العطام، حيث صارت كلاب القبيلة، حتى من المنازل القريبة منهم، تتجمع بصورة شبه دائمية حول بيتها، لتظفر ببقايا الطعام الزائد الذي يطرحه الخدم خارج المنزل، بعد ان تأكل النسوة ثلاث وجبات كل يوم، وهل تتجمع الكلاب الا امام البيت الذي يرمي لها طعاما او حتى عظاما؟

كانت النسوة يصطحبن اطفالهن الى بيت نخوة وعند تناول الطعام كانت نخوة تأمر بان يعزل الخدم طعاما للاطفال بصورة مستقلة عن النساء، وكان الطباخون والخدم يفرغون الطعام في اواني الاكل باشراف نخوة، التي كانت تحاول دائما ان تتأكد من ان في الطعام من اللحم ما يكفي الصغار وكانت تفرقهم بالتساوي عندما يزدحمون حول صينية على باقي (الجفان) او الصواني، لتضمن ان يحوز كل منهم استحقاقه من اللحم، وعندما تقول لها احداهن من المقربات عادة:

ــ اتركي الخدم يتولون هذا يا اخية نخوة ..انهم اطفال، واي شيء يأكلونه (زايد خير..(

تجيبها نخوة:

ــ انهم ورود حياتنا وشباب وشابات المستقبل وهم عندما اهتم بهم واكرم وفادتهم، سيتعلمون الكرم وواجبات الضيافة مهما كبر شأنهم في المستقبل، لئلا يتصوروا ان من يكبر شأنه ينسى ناسه ويكبر عليهم او من يمن الله عليه بنعمة الملك او الثروة يستأثر بها لنفسه ويترفع عن الناس.

في هذا الوقت لاحظت ان احد الصغار حاول خطف قطعة لحم من صينية يتحلق حولها اطفال اكبر منه سنا، ولانه بدين، سقط على رأسه في صينيتهم حالما انحنى من فوق اكتافهم لالتقاط قطعة اللحم.. وراح (يعوي) يصرخ ورأسه ووجه يغطيهما السمن وبقايا الطعام وسط ضربات من كان يضربه.. مسحت نخوة الدسم وبقايا الثريد عن رأسه ووجهه، وقالت:

ــ لا عليك حبيبي، سآتيك بصينية وحدك، وعليها قطع من اللحم اكثر من التي على هذه الصينية.

كانت تقول هذا في الوقت الذي ترى ان احد الاطفال يضرب صغيرا على وجهه بحفنة من الثريد، لانه حاول نفس محاولة هذا، وكانت تكتم ضحكة جعلتها ترفع ملفعها ليغطي فمها وانفها لتواري ضحكتها تحته..

ثم تعود الى النساء وتتأكد بنفسها من كل صينية طعام، ومن ان كل شيء يسير ضمن قياسه الصحيح، وعلى ما يرام .. وعندما تنهض احداهن لتنصرف قبل تقديم وجبة الطعام، تشير الى احدى قريباتها بان تستبقيها حتى يقدم الطعام، وتكون بعد ذلك حرة في الانصراف، وعندما تحاول المعنية الاعتذار لها عن البقاء طالبة ان تأذن لها بالانصراف

تقول لها:

ــ ايجوز هذا، يا فلانة؟.. ايجوز يا اخيّة، ان تخرجي من بيتنا في هذا الوقت، مع ان بيتك بعيد نسبيا، من غير ان تتناولي الطعام انت واطفالك!؟ .

وعندما تلح بقصد الانصراف، تقول لها:

ــ انت عربية، لذلك لا اظنك تقصدين ان تخزينا، لو رآك احدهم تخرجين قبل ان) نصب) نقدم الطعام..!

على هذا كان تصرف نخوة في الضيافة، حيث ازدادت تألقا على مستوى القبيلة، وصارت بحق نخوة الابعدين، مثلما هي نخوة الاقربين.. صارت نخوة ناسها واهلها كلهم.. وهل ما يجعل المرأة نخوة اهلها وقومها غير ان تكون فاهمة وحصيفة وعاقلة ومدبرة وعفيفة وذات حمية ازاء قومها، وذات ايمان وصبر وجلد؟.. وهل هناك من هي افضل صفات ومعاني من نخوة في كل هذا؟.. نعم صارت نخوة.. نخوة قومها كلهم وامنية الشباب كلهم ليحظوا برضاها عنهم وعن مواقفهم وتصرفاتهم، وصارت قدوة ونموذج النساء اللائي صرن يحثثن النفس والخطى ليحظين بأي من صفاتها..

***

انتهت الايام السبعة التي احتجبت فيها نخوة، ولم تظهر خارج البيت، وانما تستقبل النسوة فقط .وارسل حسقيل الى نخوة من يخبرها بانه ينوي زيارتها ليعزيها بوفاة المرحومة امها، وتقديرا لها ولاهلها ــ هكذا قال حسقيل وفق ما نقله اليها ابن عمها حازم..

كادت نخوة تعتذر، لكنها تذكرت انها ينبغي ان تراوغه وتخاتله، وفقا لخطتها..

قالت نخوة عندئذ:

ــ قل له، يا حازم، ان يتفضل بعد ظهر هذا اليوم، قبل المغرب وابلغ عمي والدك ليحضر معك.. واشارت الى سمعان وعمر بان يكونا من بين الحضور من رجال البيت ممن يقومون بواجب الضيافة، وطلبت من سمعان ان يجلس الى الموقد، حيث دلال القهوة، ومن عمر ان يكون متأهبا لتلبية طلبات الضيوف من ماء (وشنين)(١.(

وقالت مشددة:

ــ قل لعمي، يا حازم، ان لا يبرح مكانه.. وانتم، يا حازم وعمر وسمعان، لا تتركوا اماكنكم اذا طلب منكم حسقيل ذلك.. الا اذا طلبته انا منكم..

وعندما استفهمت عما اذا كان امرها واضحا، قال حازم وعمر:

ــ مفهوم، يا عمة..

وقال حازم:

ــ مفهوم، يا اختاه..

ــ اذن، انصرفوا حتى يحين الوقت واستدارت متجهة من الربعة (المضيف) الى قسم العائلة (العيال)، وفتحت صندوق الخشب، حيث تضع ملابسها وما يتصل بزينتها..

كان الطقس طيبا في شهر نيسان.. جلست نخوة لتمشط شعرها، ولفته بالملفع بعد ان مشطته.. بعدها التقطت (ميل) (٢) الكحل، وراحت تكحل عينيها.. وما ان اكملت كل ذلك، حتى اتجهت لثيابها، فارتدت ثوبا نظيفا و(زبونا) (٣) وتهيأت لاستقبال حسقيل وعمها ومن سيحضر معهما..

***

كانت نخوة قد التقت سالم في بيتها في إحدى الليالي، وفق تدبير اتفقت عليه هي وأخت سالم وأبو سالم، وكان معها حازم وعمر وسمعان.. وانفردت به في الطرف الثاني من قسم العيال، بحيث لا يسمع أبو سالم وأم سالم وأخت سالم كلامهما.. وحكت لسالم كل ما تعرفه عن مقتل أمها..

قال سالم:

ــ الآن حكم الحق على حسقيل بالموت..

قالت نخوة:

ــ لا، يا سالم، رغم ان ما تقوله مطاع بالنتيجة، لكن أرجو أن تسمع رأيي، فأنا لا أرى هذا الرأي.. ولو كنت أراه علاجاً صحيحاً لوافقت أمي، رحمها الله، على ذلك، وكنا قادرتين على هذا لو أردنا، لكن لأننا لم نرد أن نحرم من رحمة الله، أو أن نخزيكم بأمر تقوم به امرأة.. إلا عندما لا يكون هنالك رجال، أو يكون شرفها مهدداً باللحظة، ويكون قتل من يحاول عليها ضروري دفاعاً عن ذلك، أو عن النفس، فقد منعت والدتي ومنعت نفسي من ذلك..

ومع أنهما كانا يتكلمان همساً، فلشدة اقترابهما من بعضهما، اسمع كل منهما ما أراد أن يقوله للآخر..

قال سالم:

ــ لكن ما أرى أن نقوم به ضده هو أن يقوم به الرجال وليس النساء!..

ــ لديّ تدبير آخر، قالت نخوة..

سمع سالم ما خططت من تدبير وأقرها عليه..

جاء حسقيل وحده.. وجاء والد حازم وشقيقه الأصغر منه، ومعهما حازم، وكان عمر وسمعان في البيت من رجالها.. وكان كل من الثلاثة (حازم وعمر وسمعان) يعرف واجبه.

قال حسقيل كلمات العزاء لنخوة.. وسلم على عميها وعلى حازم، وجلس.. وبعد كلمات من حسقيل حول الكمأة والغزو.. ومجيء (مطاليع) (٤)، القطا التي تنبئ بأنه كثير هذه السنة.. بدا كأنه يقول كلاماً ليطرد الملل عنه، رغم أن دقائق فقط مضت على جلوسه..

ــ عندما يكثر القطا.. ويبيض بعد موسم كمأة وفير، تكون السنة سنة خير، رغم أن المرحومة، أم نخوة، كدرت علينا الأجواء، لكن عوضنا بنخوة.. بعد أن صارت نخوة قبيلتنا.. (قال: نخوة قبيلتنا، ولم يقل نخوة القبيلة.. ليجعل من نفسه حالة اصيلة في القبيلة ويعتبرها كما نخوة في صلته بالقبيلة..(

بعد قليل قال حسقيل:

ــ لو سمحتم، أود أن اتحدث مع نخوة على انفراد في أمر يخصها، والأصح أنه يخص والدها، رحمه الله، وكان في نيتي أن أقوله لأم نخوة، رحمها الله، لكن القدر عاجلها.. لذلك لا بد من قوله لنخوة..

قالت نخوة:

ــ فلان وفلان، عماي هلما إلي، وأنت ايضا، يا شيخنا ــ وأرادت بقولها: يا شيخنا، ان تجعله لا يجفل، بإمكانك أن تتحدث معي بحضورهما..

قال حسقيل:

ــ ان ما اؤتمنت عليه يستوجب أن أقوله لك، وبعد ذلك أنت حرة عندما تطلعين عليه.

مرة أخرى أرادت أن لا يجفل من نواياها وهو العارف بما لها عليه.. وما هو مدين لها به..
قالت:
ــ نعم لو سمح عماي بأن يكونا في قاطع العيال، انه الآن خال.. وسوف نتحدث أنا والشيخ هنا..
قال حسقيل..
ــ بل نذهب أنا ونخوة إلى قاطع العيال، وتبقون هنا..
وقبل أن يكمل، كان عماها وحازم وعمر وسمعان قد اتجهوا إلى قاطع العيال ودخلوا فيه، في الوقت الذي قالت نخوة:
ــ بل هنا أكثر راحة لك، يا شيخ.. والواجب ان ينهضوا هم ويغيروا أماكنهم، وليس أنت.
مع أن الشيخ لم يرق له ذلك، فقد اضطر للقول:
ــ انك أم الأصول، يا نخوة، وفهمك صار معروفاً على مستوى القبيلة كلها.. بل ان كرمك أصبح على كل لسان..
أرادت نخوة ان تزيد غشاوة التمويه على نواياها باطرائه.. فقالت:
ــ كل ذلك من فضل الله وفضلك، يا شيخنا..
ــ هل لي أن أدنو منك، لأسمعك ما أريد أن أقوله همسا، يا نخوة؟
ــ بل أنا اقترب إليك، يا شيخ.. لا تكلف حالك..
اقتربت نخوة منه حتى كاد لا يفصلهما إلا حاجز الوسائد الموضوعة بينهما.
قال حسقيل، بعد أن فتل شعر شاربه، رغم انه لم يكن كثيفاً:
ــ مع ان الوقت غير ملائم تماماً، لكن من عادتنا أن نتعامل مع الحياة بطريقة لا تدع الحزن يثقل عليها.. ومع اننا (قدم في المدينة وقدم في الصحراء)، فإن العادات الأصيلة هي التي تحكمنا.. لذلك، ولأن من عادة قبيلتنا أن تستمر في حركة الحياة، بل ان تقودها.. يا نخوة، فالواجب يقتضي أن لا نجعل حالة الحزن توقف الحياة، أليس كذلك؟..

1ــ الشنين، لبن مخلوط بماء، بعد عزل الزبدة عنه.
2ــ الميل، قضيب من الخشب، دقيق ومصقول، يغمس في مسحوق الكحل، ويمرر بين الجفون لتكحيلها.
3ــ الزبون، ثوب طويل، مشقوق من الأمام من الأعلى للأسفل، كانت النساء يرتدينه فوق ملابسهن سابقا.
4ــ مطاليع، بواكير أو طلائع.

(10)

هزت نخوة رأسها، علامة موافقة للشيخ، لأنه استخدم مفردات هي المفردات التي تستخدمها مع نساء القبيلة، أو يستخدمها سالم مع رجال القبيلة.. بل بدا كأنه أراد بهذا أن يذكّرها بأن هذا ما تؤمن هي به، ليس هو.. لذلك استمر يتكلم بثقة عالية فقال:

ــ بعد أن حل الله جانبا من الإشكال الذي كان يحول بيني وبين أن اطلب يدك من المرحومة أمك أو أعمامك وأنت تعرفين ذلك.. وتعرفين مستوى محب... (أراد أن يقول محبتي لك ليبقى ضمن المفاهيم العامة).. لكنه استدرك ليقول:

ــ وتعرفين مستوى حبي لك..

وبعد أن لاحظ أن نخوة هزت رأسها ايضا كعلامة قبول بما قال، تشجع أكثر فقال:

ــ وعليه جئت الآن لأعرض عليك رغبتي في الزواج منك، بعد ان صرت وحيدة، لكي نلم ما تملكين، ونتمتع بحلالنا..

قال ذلك وتبسم، ثم أردف:

ــ فإذا وافقت، ولا أظنك لا تقبلين بحسقيل، سأطلب يدك من أعمامك وفق الترتيب الذي ترغبين فيه..

ــ أظن أنك سبق أن طرحت عليّ هذه الفكرة.. (ويصير خير) إن شاء الله..

عندما قالت ذلك، صارت كل (شعرة في لحيته وشاربه تضحك وتلمع) مثلما يقول المثل الشعبي، وكان هذا الجواب هو الذي ينتظره ..لذلك قال بلهفة:

ــ ومتى سنتزوج، إذن؟

ــ صبرك عليّ، يا حسقيل.. نادته باسمه من غير أن تردفه بصفة المشيخة لترفع التكليف بينهما..

ــ ها أنا صابر.. ماذا بعد؟ قال حسقيل.

ــ قبل كل شيء، لا بد أن أقول إن أسبوعاً واحداً على وفاة أمي لا يكفي.. ولا بد أن يمر على ذلك أسبوعان في الأقل، لكي تخطبني ونتزوج..

ومع أن حسقيل كان يتمنى أن تقول غدا، فقد قبل كأنه لم يصدق أن تقبله نخوة بهذه السرعة..

ــ (عفية)، يا بنت الأجواد..

ــ اسمعني أيضاً، يا حسقيل..

ــ كلي آذان صاغية..

ــ يجب أن لا تخطبني من أعمامي فقط، مع احترامي لهم.. لأنهم بالأساس من عمومتي غير المباشرين، الذين التقي بهم في الظهر الرابع وربما الخامس.. لذلك أرغب أن تخطبني من القبيلة كلها بحضور كل رؤساء عشائر وأفخاذ القبيلة، وأغلب الشباب المعروفين من البالغين في القبيلة، إن لم يكن كلهم.

قال حسقيل:

ــ لماذا ندخل مثل هذا التقليد في القبيلة؟، ثم كيف لنا ان نطعم هذا العدد الغفير؟..

ــ لا عليك، سأدبر هذا، وسأجعل كل بنات القبيلة بين من تطبخ ومن تروي في القرب من الآبار والينابيع، ومن تخبز،

أما الذبائح فإن خير أهلي كثير.. عندك الجمال والأبقار والأكباش وحتى بعض النعاج الحائلات (١.(
ومع أن حسقيل وافق على مضض، لكن شوقه إلى الزواج دفعه للموافقة بسرعة..
قالت نخوة:
ــ ولي شرط آخر..
ــ قولي (يا بعد عيني)، قال حسقيل..
ــ أن تأمر بهدنة أمدها سبعة أيام بينك وبين كل الخارجين على مشيختك..
اصفرّ وجه حسقيل، وقال بانفعال:
ــ لماذا هذا الشرط؟
ــ ان ما يهمني هو وحدة القبيلة خلف رايتك، وأظن أن هذا هو ما تريده أيضا، وقد يفتح الله بين القلوب لتتصافى في هذه الأيام السبعة وقد ألعب دوراً إلى جانبك في هذا، خاصة عندما أنشط بين نساء المتمردين، في الوقت الذي تنشط بين الرجال.. وأنت تعرف، يا حسقيل، تأثير المرأة على الرجل..
كان حسقيل وهو يستمع إلى كلام نخوة، (يمسد) يمسح بيده على لحيته ويهز رأسه موافقا..
ــ ولا بد من أنك تعرف ان المرأة تنشد الاستقرار أكثر مما ينشده الرجل، ورغم ان المرأة قاسية عندما تظفر بعدوها.. (وهنا اصفرّ وجه حسقيل، لكنها لم تنظر في عينيه لكي لا تحرجه أكثر)، فإنها تنشد الاستقرار أكثر من الرجل.. لذلك سأشوقهن إلى أن يضغطن على الرجال ليقبلوا الصلح.. والباقي عليك، ولا اعتقد أنك بحاجة لأن أقول لك ماذا تفعل وأنت عراب المؤامرات.
قالت ذلك كأنها تمزح معه، في الوقت الذي كانت تقصد ما قالته.
وضحكا معا، كل وفق ما فهم، وما أراد..
قال حسقيل:
ــ إنك داهية بحق..
قالت نخوة:
ــ تربية يدك، يا حسقيل.. أما الشرط الثالث.. وقبل أن تقوله..
قال حسقيل:
ــ الله يستر.
ــ الستر، يا حسقيل، من الله، أولاً وأخيراً، بعد أن تطيب النفس وتصفو..
ــ خير إن شاء الله..
ــ أليس ما مر خيراً يا حسقيل؟ قالت نخوة وهي تبتسم له بغنج كمقدمة لكي تقنعه بالطعم المميت.. وواصلت كلامها:
ــ اما الشرط الثالث فهو أن تجتمع القبيلة في بيت الشاب الذي دبكت معه يومذاك..!
نفض حسقيل عباءته، وقام من مكانه وهو يرتجف، وبدلا من الكلام همساً.. قال بصوت مسموع:
ــ هذا الشرط أشر من كل الشروط.
بقيت نخوة جالسة في مكانها، وقالت:
ــ اجلس.. يبدو ان تدبير النساء، عندما يحببن أو يكرهن، أدق بكثير من تدبير دهاة الرجال مهما بلغ دهاؤهم.

جلس حسقيل دون ارتياح.

قالت نخوة:

ــ من يظن ان نخوة المرأة تدبر أمراً لا يفهمه حسقيل الداهية؟! قالت ذلك وهي تثبت نظرها بعينيه، ومع ذلك انفرجت أساريره عندما قالت (حسقيل الداهية..(

ــ (يا الله)، قولي لنسمع ونعرف التدبير الجديد..

ــ لم التقك منذ ذلك اليوم، ولم تحاول ان تستفهم عن السبب مني.. حتى حصل قدر الله لوالدتي..

قال حسقيل كأنه يريد ان يعرف كيف تفكر:

ــ نعم، رحمها الله.. من يتصور ان عمود بيت الشعر وهو من خشب يسقط على انسان ويقتله؟

وادرك فلتة لسانه، فأردف قائلا:

ــ ولكنه عمود جبار غليظ..

ــ نعم، أرأيت، يا حسقيل، ماذا يحصل للانسان عندما يشاء القدر؟ اتصدق ان عمودا كعمود بيت شعر يمكن ان يقتل انسانا!؟

كادت اعصاب حسقيل تفلت منه بعد ان صمتت نخوة قليلا، لكنها واصلت كلامها:

ــ لولا ان حكم يومها؟.. لقد كان رأسها مهشما (ممرود مرد).. بل كاد ينفلق نصفين بسبب ذلك الجرح العميق..

عندما قالت ان رأسها كاد ينفلق نصفين بسبب الجرح العميق، كادت اعصاب حسقيل تفلت خارج سكتها لولا ان قالت:

ــ كل ذلك حصل لأن لكل واحد منا يومه، يا حسقيل.. وقد يكون الله أراد خيرا.

ورغم انها ارادت بقولها) وقد يكون الله اراد خيرا) ان تفصح عن شيء ما في نفسها، الا ان حسقيل فسر قولها وفق هوى نفسه.. ولكن نخوة اتبعته بمداخلاتها لدرجة انه صار يستعجل ان تقول اي شيء ليوافق عليه من غير مناقشة، حتى لا تكتشفه نخوة.. وفي ظنه انها لا تعرف الحقيقة.. ــ قولي، يا نخوة، ما هو التدبير الذي اعددته، ولا اعرف مقصده؟

قالت:

ــ لو كنا التقينا قبل الآن.. وقبل وفاة والدتي لقلته لك، ومع ذلك اقوله لك الآن.. عندما طلبت مني ان ادبك معك.. فاجأتني.. ولا اكتمك انني اعددت نفسي منذ زمن قبل وفاة والدتي لأن أكون زوجتك يوما ما، ولذلك رحت اختلط مع نساء القبيلة لأكسب ثقتهن، واستخدمها في تعزيز سلطتك بعد الزواج.. ولذلك لو استجبت لطلبك في حينه لفقدت تأثيري بينهن ..وانت تعرف، يا حسقيل، ان إرهاصات الشباب والشابات غير طريقة تفكير الرجال والنساء الناضجين عمرا وخبرة، لذلك فأنا لست مثلك بسبب فارق العمر..

ــ بل انت (بلية (داهية، قال حسقيل، قولي تدبيرك، لا اعرف إذا كان فارق العمر لصالحي، أو ان تدبيرك الذي لم اصل اليه والى ما هو مثله يظهرني كأنني انا الشاب وانت الاكبر عمرا..

قالت:

ــ على اية حال، فان فارقا في العمر بين الرجل والمرأة بما لا يقل عن خمس سنوات، ولا يزيد عن عشر الى خمس عشرة سنة، ضروري ليعالج نضج الرجل ما ينقص المرأة، ويجعله يتحملها مثلما تتحملني انت الآن.

تبسم حسقيل وفرح بقولها ..ثم عاودت نخوة الكلام:

ــ ولذلك اتجهت لاحدهم، لكي لا ابدو ثقيلة دم امام اهل العرس، وابدو كأنني استنكف مراقصة أحد، ليس بسبب مزاجي تجاه هذا أو ذالك، وإنما لأنني لا اريد ان ارقص، لأن العرس في بيت فلان، ولحساسية قديمة بيننا لا تعرفها، فضلت ان اختار احدا لا على التعيين، وفتشت عن رجل كبير السن، فلم تهتد عيني الى أحد، ولذلك ما ان وقع نظري على احدهم وهو يرد اللثام على وجهه، حتى تصورت انه ربما كان شيخا طاعنا في السن ويتقي البرد، في الوقت الذي كان ضياء الشموع قليلا، بل بالكاد يستطيع الانسان ان يهتدي الى طريقه، وتعرف انك بسبب ذلك عثرت وسقط عقالك من على رأسك.. بل كدت تسقط على الارض لو لم يمسك بك احد الحضور.. ولكنني تورطت بعد ذلك عندما استطعت ان اخمن انه شاب، رغم انه لم يمط اللثام من وجهه.. ولكن احمد الله انه كان ملثما، ولم يمط اللثام عن وجهه، اذ لو كنت اخترت شابا من غير لثام، لربما قال من يريد ان يتقول ما يخزيك ويخزيني..

قال حسقيل:

ــ ولكن، ألا تعرفين من هو الآن!؟

ــ بلى أعرفه، الآن، يا شيخ.. قالت ذلك بأسلوب رسمي.. كأنها تريد ان تقول له: كيف تظن انني لا اعرفه الآن!؟ لتدفع ظن حسقيل فيها.. ثم اردفت:

ــ بل أعرفه، انه سالم، ولأنني عرفته، اقترحت عليك، بل اشترطت ان تكون الدعوة في بيت ابيه، لأن هذا عندما يحصل، يطرد ظن من يظن، أو من يريد ان يتقول، ان سبب اختياري له معرفة سابقة وليس مصادفة، ولذلك عندما اخترتك الآن زوجا لي، فذلك ليس لعدم وجود معرفة بالشباب، ورغبة في الزواج منه فحسب، وانما لأنك تقدمت لخطبتي كشيخ للقبيلة، وفضلتك عليه لسبب يتعلق بعنوانك، وليس لصفاتك ولحبي لك..

تبسمت نخوة، وضحك الشيخ حسقيل، ومال رأسه الى الخلف وهو يقهقه، ونسي انه جاء ليعزي نخوة بوفاة أمها..

قال حسقيل:

ــ لك ما تريدين، وفوقها حياة حسقيل.. اذن بعد سبعة ايام نلتقي على الغداء في بيت أبي سالم.. أليس كذلك!؟

ــ نعم، على بركة الله، قالت نخوة..

وقف حسقيل، وقال قبل ان يغادر المكان:

ــ اذن، تتولين دعوة النساء، واتولى دعوة الرجال، ولكن ما رأيك لو حضر حليفنا شيخ قبيلة الروم ليبارك زواجنا؟

ــ لا، يا حسقيل، ابقها ضمن القبيلة، ولا تعقد الامور مع الذين خرجوا عليك، ذلك لأن اعادتهم تحت رايتك هي الاساس والاهم، واظن ان حليفنا شيخ الروم سيسره ذلك.

ــ اي نعم.. طبعا.. على بركة الله.

ــ على بركة الله.. قالت نخوة..

انصرف حسقيل مودعا من عمي نخوة وحازم وعمر وسمعان..

التقت نخوة بسالم، وتباحثا في الخطوة القادمة، ولكنه استعجل المغادرة، وفيما بقيت نخوة داخل بيت ابيه، سلم عليها وخرج، وكان سالم قد اعتاد على ان يبقي فرسه في مكان منزو لا تبان منه الفرس، ولكن على مقربة من مكان سكن والده بمسافة يتمكن ان يصلها عندما يحتاجها، في الوقت الذي لا تقع عيون المتصيدين عليها ..وما ان اقترب سالم من فرسه، حتى هاجمه ثلاثة ملثمين يشهرون سيوفهم بأيديهم.. وفي الوقت الذي ابلى سالم في مواجهتهم بلاء حسنا، كان يمعن النظر في وجوههم بضوء القمر، ويدقق كلما وجد فرصة، لعله يعرف واحدا منهم، ولكنه لم يستطع ان يتبين الا

جزءا من ملامح حسقيل، وفق ما خمن، خاصة عينيه، ومع انه اصاب بسيفه ذراع احدهم اصابة بالغة، وتمكن من ان يصيب ذراع يد حسقيل التي كان يمسك السيف بها، ولكنها لم تكن اصابة بالغة وفق ما قدر، اما هو فقد اصيب اصابة خفيفة في ذراعه الايسر ايضا.

فر المعتدون هاربين، وبدلاً من ان يمتطي سالم فرسه ويغادر، عاد ادراجه الى بيت ابيه ..وعندما دخل والدم يسيل من ذراعه، جفل الجميع وهبوا واقفين، وبينما كانت نخوة تضع يدها على فمها لتكتم صيحة حبستها في صدرها، راحت اخت سالم تذرف الدموع وهي تضع احدى يديها على فمها.. وراحت ام سالم تتحسس الجرح.. وبعد ان كفت كم الردن عنه هدأ روعها نسبيا، عندما وجدت ان الجرح بسيط، في الوقت الذي قال ابو سالم دون ان يغير جلسته:

ــ سلامات، يا ولدي، سلامات.. انها (بالريش) ــ اي اصابة سطحية ثم اردف يقول، وهو يقترب من النار التي كان يسخن الحليب عليها، ويرد اعقاب العيدان غير المشتعلة على اطراف الموقد:

ــ (هاك السنة) أي تلك السنة، غزونا إحدى القبائل، فضربني احدهم برمح اخترق صدري، بعد ان قاتلته برمحي وانا اركض على الارض، في الوقت الذي كان هو على فرس، وعندما سقطت على الارض قال لي (جود للشجر)، اي امسك بأي شجرة من نبت الارض.. وعندما امسكت بشجرة قريبة مني، سحب رمحه من صدري، حتى ان مكان الاصابة (تنام فيه البقرة الآن)، كما يقول المثل، ومثلما تعرف ام سالم.. فهاك يا ولدي هذا الرماد ــ وقدمه له على (محمس) (٦) القهوة ــ ضعه على الجرح.

وضع سالم الرماد على جرحه، وساعدته نخوة وام سالم، وضمدتاه بخرقة كانت معهما..

وعندما سألتاه عن الغرماء، قال:

ــ انهم ثلاثة، اصبت احدهم بذراعه اصابة بليغة، واصبت الآخر اصابة ليست عميقة على ما اظن.. ولكنها اصابة جعلت دماءه تنزف من ذراع يده التي تحمل السيف، وبعد ذلك ولوا هاربين، وكانوا كلهم ملثمين.. ولكنني ربما عرفت أحدهم..

سألته نخوة:

ــ من هو؟ كأنها خمنت انه حسقيل..

قال:

ــ أهم شيء ركزت عليه هو عيناه وما حولهما.. وراح يصف لنخوة وأهله جانبا من التفاصيل..

قالت نخوة:

ــ اظنني خمنته..

أمال سالم رأسه ناحية نخوة وهمس قائلا:

ــ اظنه هو..

ورغم ان والد سالم اراد ان يعرف، ولكن سالم لم يعطهم مجالا، وعاد الى فرسه، وامتطى ظهرها، وانطلق حتى وصل مجموعته.

***

بعد ظهر اليوم التالي، طلب حسقيل ان يرى نخوة، وراح يسألها عن تفاصيل تافهة تتعلق بترتيبات وليمة الزواج، وبمن سيستعين لابلاغ المتمردين بأنه، اي حسقيل، قد عفا عنهم.. او ما شابه ذلك..

فهمت نخوة، انه وان اخفى عليها ما حصل لسالم، وكأن شيئا لم يكن، اراد بالاستفسار من نخوة عمن يبعث به الى المتمردين عليه، ان يقول انه بعد ان يبعث اليهم من يبعثه لإبلاغهم، يكون امره بالعفو نافذا، عند ذلك لكي يحتاط امام احتمال افتضاح امره عندما تعرف نخوة وتفسر الحال مثلما هو في حقيقته.. انه عذر اراد حسقيل من ورائه ان يسبق الدعوة، بل اراد ان يجعل مشروع مكان الدعوة في بيت ابي سالم غير ممكن، اذا قتل سالم..

وبعد ان اكمل حسقيل كلامه مع نخوة، استأذن لينصرف، وقد تعمدت ان تتمشى معه امام البيت، وكلما اتيحت امامها فرصة، امسكته بقوة من ذراعه الايمن وضغطت على المكان الذي عّينه سالم..

كان حسقيل ينفض يده منها، وهو يصرخ مولولا من شدة الألم..

سألته نخوة:

ــ ما بك، يا حسقيل؟ هل ثمة شيء يؤلمك؟.. ما بك؟

ــ لا شيء.. ربما نمت على يدي هذه، وصارت تؤلمني الآن.. حالة طارئة وسوف تزول..

ثم يستأنفان المشي.. وتغافله نخوة، وتمسك بذراعه، وتضغط عليه بشدة اقوى.. ويصرخ حسقيل من فوره:

ــ اخ.. قتلتيني، يا بنت الحلال، اتركي يدي، ولكنه هذه المرة سقط مغشيا عليه من شدة الألم.

حمله سمعان وعمر، وأضجعاه على الفراش في الربعة.

كشفت نخوة الردن عن ذراعه، وهو في حالة غيبوبة، وعرفت الحقيقة مثلما هي، اصابة في ذراعه، كما اخبرها سالم.. رشقت وجهه بالماء وصفعته عدة مرات على وجهه، بدلا من ان تضرب خديه برفق ليصحو..

)يتمزمز) عمر وسمعان في ضحكتهما، ويديران وجهيهما الى الناحية الأخرى.

يفوق حسقيل.. وتقول نخوة كأنها لا تعرف شيئا:

ــ ماذا بك، يا حسقيل؟ لقد اخفتني، وكدت اصرخ، عندما سقطت مغشيا عليك.. ربما التوى كوع يدك دون ان تدري، يا حسقيل، مما يستوجب ان تعرض نفسك على من يجبرها لك..

عندما قالت نخوة ذلك، كأنما قدمت لحسقيل حبل نجاة.. لعذر يغطي به ما يريد ان يخفيه عنها.

ــ نعم قد يكون ذلك.. ولكن ماذا حصل لي وسقطت؟

ــ لا عليك ان الألم يسقط اشد الرجال.. وليس في هذا غضاضة.. ثم انك سقطت في حضني، يا حسقيل..

وينتعش حسقيل وهو يسمع (سقطت في حضني يا حسقيل) ويذهب عنه الحرج فيقول:

ــ ان حضنك حياتي.. فما اكثر ما خططت لأحظى به.. وها قد حققت امنيتي..

ــ ولكني آمل ان يكون حضنك ربعة في بيت شعر كبير، لا تكفيه واحدة.. وانما يحوي عددا غفيرا منهن..

ضحكوا.. وغادر حسقيل..

مرت الأيام ببطء شديد على سالم.. ذلك لانه عندما طرح فكرة حضورهم الى الدعوة، تساءل بعض جماعته: لماذا يذهبون الى هناك؟.. وماذا يعنيهم في خطوبة نخوة؟ ..بل، الا تضعف خطوبة حسقيل لنخوة عملها بين النساء؟.. ألم تكن فكرة زواج حسقيل من نخوة فكرة مدبرة اساسا لتقوية نفوذه وسيطرته في القبيلة؟.. وماذا يجعل حسقيل يتزوج من قبيلتنا، إلا ويكون خلف الموضوع خطط وغدر؟

ويقول آخر:

ــ لماذا لا تقول ان زوجة من قبيلتنا لحسقيل قد تجعلنا نقترب منه لنتمكن..؟

ويقول احدهم محتدا:

ــ اتبني اهدافك وخططك، يا أخي، على هذا الاحتمال؟ اذن، وصلنا الى اهدافنا.. يقول الجملة الاخيرة مستهزئا..

ويردف قائلا:

ــ ان النساء مؤثرات في الرجال عندما لا يقرر الرجال امرا خطيرا.. وفي كل الاحوال ليس عندما يكون عقل الرجل قد انشغل بتدبير لا يناسب هوى المرأة.. ولذلك سنخسر نخوة بدلا من التأثير في حسقيل.. وكان الافضل ان ننصح نخوة بان لا توافق على هذا الزواج، بل نمنعها منه.. حتى ان اقتضى الامر القوة، ولو كلفتموني لنفذته..

صدر هذا الكلام من احد ابناء عمومة نخوة.. ولكنه اجرى آخر مداخلة بقوله:

ــ ما ادرانا، ربما كانت فكرة الدعوة في بيت سالم فخاً لنا بالاساس، وما اختيار بيت سالم إلا ليضمنوا حضوره، وبحضوره يضمنون حضور العناصر القيادية والمؤثرة، وبذلك يضمنون ان تكون فعلتهم فظيعة لو نفذوا مؤامرة محبوكة ضدنا..

وراح كل يدلو بدلوه، ولكن ايا من الدلاء لم يأت بماء يروي، وفق ما اعد سالم او ما هو راغب فيه، لذلك.. علق سالم:

ــ مع انني احترم وأقدر رأي اخواني المتحدثين جميعا.. واعرف نواياهم التي اساسها ما يعز القبيلة، ويرفع شأنها والظلم عنها.. ويجعلها تحكم بالحق الذي يرضي الله، ويعز الانسان، ويعطيه حرية ان يفكر من غير خوف، وان يقرر من غير تردد، وان لا يستكن امام جور او ظلم، ولا يقبل بهما غطاء لفعل شيخ او رعية تجاه النفس والآخرين.. ولكن ارجو ان تنصتوا الى ما سأقوله.. ان منهجنا لا يدعو الى الصلح مع حسقيل، وانصاف الحلول.. وانما يدعو الى الاطاحة بحسقيل ومشيخته المزيفة، ويدعو الى اضعاف، ومن ثم اسقاط حلف مشيخة حسقيل مع شيخ الروم وقبيلته واهدافهما المشتركة.. ان هذا هو منهجنا، وعلى هذا نعمل، ولكن عندما تطرح فكرة مناقشة منهج للصلح على زواج نخوة منه، وان يكون هذا واحدا من شروط نخوة عليه، وشرطها الآخر ان تكون الدعوة في بيت ابي، في بيتي، فإن حضور حسقيل وكل شيوخ القبائل في بيت من يعتبره المتمردون من اجل الحق، وضد دور حسقيل وحلفه، مرغما وليس مختارا في بيتنا له معناه.. وانه قد يكون الخطوة التي تسبق انتصارنا، ذلك لان هذا يعني ان القبيلة وحسقيل قبلا ضمنا بولاية والدي.. او ولايتي على القبيلة، لاننا نحن الذين نشرف على الدعوة.. انا وانتم.. ونحن الذين نقوم بواجب الضيافة.. انا وانتم، ومن يقوم بواجب الضيافة تكون له دالة نفسية تأثيرية خاصة على من يكون ضيفا فحسب..

ــ قال كهل من الحاضرين:

ــ لو سمحت يا كبيرنا سالم.. المثل عندنا يقول: «ان المعزب) المضيف) اسير الضيف».. وهذا يعني ان لا يفعل شيئا إلا وفق رغبة الضيف، وعلى هذا يمكننا ان نقول انه ليس لدوره امتياز، وانما التزامات عليه ان يؤديها..

قال سالم:

ــ ان ما قلته صحيح وفق المعاني التي اشرت اليها، وهي عبارة قيلت لتلطيف الضيف، ولكن هل باستطاعة الضيف اذا ما قدمنا له تمرا وخبزا ان يقول، اريد لبنا وخبزا.. او اريد ثريد دجاج، بدلا من ثريد لحم ضأن مثلا!؟.

ــ لا.. ليس بامكان الضيف (الخطار) ان يفعل ذلك.. ولكن لان المضيف.. يقدم افضل ما لديه للضيف، فليس الافضل بالنسبة له ان يختار، وانما ان يأكل كل ما يقدم له، ولان من عادة المضيف ان يقدم ما هو الاحسن بين كل ما هو موجود في البيت، ومن ذلك حتى نوع فراشه وغطائه، فان العادة تقتضي ان يقبل الضيف باحكام مضيفه..

قال سالم:

ــ ان اشرافنا على الدعوة وتنظيمها امتياز.. بل هنالك ما يطمئنكم اكثر على غدر حسقيل.. فقد اشترطت نخوة ان يحضر كل الرجال البالغين، وان يكون عذر من يتخلف عن الحضور معروفا لمن يحضر، ولذلك سنلاحظ هذا.. واشترطت ان لا يأتي احد بأي سلاح حتى لو كانت عصيا غلاظا.. وعندما اشترطت ان تكون الدعوة في بيتنا، لم تشترط ان لا يكون في بيتنا سلاح.. ذلك لانها واثقة من اننا لا نغدر.. وامام هذه الصورة، فان حسقيل اولى بان يعيش مع الهواجس، وهو الغريب على القبيلة، المغتصب لحقوقها، وليس نحن مع ان الحذر واجب.. وعدم الاطمئنان الى حسقيل ضروري.. ولكن لان الدعوة دعوة نخوة.. ولم اسير غورها في امور اخرى، لذلك من الواجب ان نحضر كلنا، ومعنا سلاحنا.. على ان يكون في بيتي وليس في حوزتكم، تنفيذا للشروط.

ارتاح الجميع وقالوا:

ــ على بركة الله..

وقال بعضهم بصوت مسموع:

ــ قلنا في أنفسنا إن سالم لا بد أن يكون قد حسبها جيداً.. وها قد بان لنا جميعاً أنك قد حسبتها جيداً، لذلك سوف نحضر جميعاً وفق أمرك.. وعلى بركة الله..

***

كانت نخوة قد هيّأت كل شيء يعز ويعبر عن مستوى الكرم العربي في بيت أبي سالم، ورغم أن أبا سالم وسالم كانا يتمنيان أن يقوما بذلك، لكن نخوة قالت لعمها أبي سالم:

ــ هل هناك فرق بين ما أملكه وما تملكه، يا عم؟ ألسنا في طريقنا لأن نكوّن بيتاً واحداً وعائلة واحدة، إن شاء الله؟ بل نحن عائلة واحدة منذ الآن، إلا ما حرّم الله.

قال أبو سالم:

ــ ولكن..

قاطعته نخوة بأدب، موجهة الكلام إلى سالم:

ــ قل أي شيء، يا سالم.

وحين تردد سالم، أردفت:

ــ ألا يعود لك المال الذي ننفق منه الآن، يا سالم؟ ألست خطيبي، وفي نيتنا أن نتزوج، إن شاء الله؟، أم تراك عزلت مالك عن مال أبيك إلى الحد الذي لم تعد تجد في المال الذي ننفقه على الدعوة الآن كأنه مال أبيك؟ قل!! وضحك الجميع كأنهم تجاوزوا الموضوع.

1ــ النعجة الحائلة، النعجة غير الحامل في موسمها، أو التي تلد بين موسم وآخر.

2ــ محمس القهوة، طاسة من حديد يتصل بها قضيب، على شكل دائرة توضع حبوب القهوة فيها وهي تقلى على النار وتقلب بقضيب آخر مطروق في نهاية رأسه على شكل ملعقة وتسمى (الخاشوكة) هي مفردة أعجمية.

حل اليوم الذي اتفقوا أن يلتقوا فيه في بيت أبي سالم.. حضر سالم ورجاله، شباباً وكهولاً، هذا يحمل قوسه وسهامه، وذاك يحمل سيفه أو رمحه، وذاك يحمل قضيباً من حديد، وقليل منهم يلبس درعاً أو يحمل ترساً.. وكانت وجوههم الطافحة بالإيمان تنبئ بما صمموا عليه.. وقد وضعوا جميعاً عدة الحرب في بيت سالم وفق ما تم الاتفاق عليه بين سالم ونخوة، خشية غدر تحالف قبيلة الروم وحسقيل بهم..

بدأ الناس يتوافدون من كل فج وبيت، شيوخ العشائر في القبيلة، ووجوهها، شيباً وكهولاً وشباباً، هذا يركب راحلته، وذاك يركب فرساً أو حصاناً، وذاك على ظهر ناقة، أو ذلول، وبعض كبار السن الذين لا تصل إمكانياتهم إلى فرس أو جمل، كانوا يمتطون حميراً.. أما من كانت بيوتهم قريبة من بيت سالم فكانوا يأتون راجلين..

تكامل توافدهم، وكان أبو سالم يشرف على الاجتماع والضيافة، يعاونه سالم من غير أن يظهر بأنه المبرز في التأثير ابتداء، على وفق ما اتفق عليه هو ونخوة، ووافق عليه حسقيل من غير أن يعرف بحقيقة التدبير. وما أن تجمعوا، حتى طلب حسقيل إذناً من أبي سالم بأن يتكلم..

أذن أبو سالم له بالكلام، بأن مد يده باتجاه حسقيل، وهو يبسطها ويحركها باتجاهه، أن ابدأ، حتى قال حسقيل:

ــ لقد اجتمعنا هنا لأمر يهم القبيلة كلها وقد اجتمعنا في هذا المكان وفق رغبة نخوة، حيث أنني فاتحتها برغبتي في خطبتها لتكون زوجة لي.. لكنها قالت إن الطريقة التي تقدمت بها لخطبتها غير لائقة، نظراً لأنني فاتحتها في بيتها بعد أن زرتها هناك، قالت لي آنذاك إن من الأحسن أن أخطبها من القبيلة كلها بحضور أعمامها بينكم، وها بعد تكامل حضور القبيلة، أرجو أن تباركوا خطبتي هذه لنزيد القبيلة اقتداراً، آملاً أن يزيد زواجي من نخوة، وانتقالها معي إلى بيت الزوجية، أموالنا بما تملكه وأملكه من أموال تعرفونها، وقد يفتح هذا وغيره مجالاً للسلم داخل القبيلة، بعد أن خرج منها عدد من الشباب، وفي ظنهم أن خروجهم على المشيخة هو الطريق الصحيح لتصحيح ما يظنونه خطأ، أما نحن فنظن، بل متيقنون، من أن طريقنا هو الصحيح.

أكمل حسقيل كلامه وجلس..

نهض سالم، وبدأ يعرّف نفسه: سالم بن محمد بن شجاع بن سيف بن حسين بن رشيد بن علي بن طعان بن رمح بن عبد المطلب.. ابن.. ابن.. من هذه القبيلة أباً عن جد ..وعاشوا كلهم وماتوا على هذه الأرض، وذادوا بسيوفهم وأموالهم وأبنائهم عن القبيلة وحماها.. وعلى أساس ما تعرفون، فأنا لا أقدم الحديث عن المال لأنه ليس عنوان الشرف والأمانة والالتزام حكما، إنما نوع من الأرزاق قد يكون سبيلاً للجحيم، وقد يكون منجاة مع الصفات والأعمال الأخرى في الآخرة، إنما أقول: أنا مثلما أنا، ومثلما تعرفون، أعلن عن رغبتي بأن أخطب نخوة زوجة لي في هذه الدنيا قبل الآخرة، إن شاء ربّ العالمين، فإن قبلت بي فعهدي لها أمامكم أن أكون وفياً مخلصاً أميناً، وأن تملك كل ما أملك، وأن يكون ما تملكه هي لنفسها وحدها، تتصرف به وفق ما تشاء، لا طمع لي إلا بصفاتها الحميدة، وأصلها الطيب وعفتها، لأحفظ بها صفات أولادي، إن رزقنا الله أولاداً، وإن شاء الله يجنبنا وإياهم عثرات الطريق، وزيغ ما يوحي به الشيطان ومعشر السوء، وإن رفضتني، فحسبي أنني قدمت نفسي أمامها كاختيار من أحد أبناء (الديرة (والحمى، مقابل رغبة الأجنبي وعرضه الذي قدمه حسقيل..

عندما قال (رغبة الأجنبي(، قام حسقيل من مكانه، وهمّ بأن يتجه إلى سالم، وهو ينفض برأسه منزعجاً ويصيح

بهستيرية ظاهرة:

ــ أنا أجنبي، يا ولد؟

أجابه سالم بهدوء:

ــ أنا أخو أختي ..وأنا أخو نخوة ــ حتى الآن، بوصفها نخوة قبيلتنا ــ وليس ولداً، على ما أردت أن تصف، فاحترم نفسك في مجلس الرجال، واعرف قدرك وكيف تتكلم.

وعندما لاحظ أن سالم يتكلم بهدوء، لكن بحزم، قال حسقيل، قبل أن يجلس:

ــ أنا شيخكم، ألست هكذا، يا جماعة الخير؟.. قال ذلك وهو يشير بيده إلى الجالسين، ثم أردف يقول:

ــ جئت هنا لأعرض عليكم خطبتي لنخوة، لا لنضع نخوة في مزاد مفتوح!! قال سالم بعد أن جلس حسقيل، لكنه بقي واقفا، رغم مقاطعة حسقيل له:

ــ أنت، يا حسقيل، أجنبي، ولست من قبيلتنا، رغم أنك تحمل عنوان شيخ القبيلة..

مرة أخرى قاطعه حسقيل ليقول:

ــ لكنني شيخ القبيلة بأمر أكبر شيخ لأكبر قبيلة في هذا الزمان، هو شيخ قبيلة الروم..

عاود سالم قائلا:

ــ استطاع شيخ قبيلة الروم أن يصدر أمراً مطاعاً لمن أطاعه لتكون على ما أنت عليه من وصف وحال شيخ القبيلة، على من أطاعك وليس علينا، في الوقت الذي غفل الناس عن دورهم وحقهم وواجبهم ومبادئهم، بل عندما تنازل وجوه القوم عن دورهم، وجعلوا الآخرين يغفلون بسبب ضعفهم، فإنما تخلوا عن حقهم وواجبهم.. ولهذا تمردنا عليك، وعلى شيخ الروم، وتحالفك معه ومع قبيلته، لنمثل برفضنا وتمردنا ضمير القوم، وندافع عن حاضرهم ومستقبلهم.. ولا أظن أن من اللائق لنخوة القبيلة أن تذل لأجنبي..

عاد حسقيل مقاطعاً مرة أخرى:

ــ أريدها زوجة، يا رجل.

لم يقل لسالم (يا ولد) مثلما فعل في المرة السابقة، ورده سالم بقوله:

ــ أنا أيضاً أعرض نفسي وروحي وحالي أمامها، راغباً بها زوجة، ونخوة للقبيلة، إذا لم يعترض اخواني الحضور، أقولها بتصميم لا يلين إلا عندما لا يلتقي برغبتها وقرارها، لو أعلنت أنها لا تريدني.. وها قد قلت قولي، ولم أعرض على نخوة مالاً أو شيئاً مما يرتبط به، ولم أزايد، لأن نخوة تجل عن المزايدة عليها.. ولأنها ليست سلعة، أو خدمة، أو بضاعة، إنما المقبول فقط أن يعلن أمامها من يعلن مزايدة للمعاني العالية بمستوى الإخلاص والتضحية، وبكل ما يعز قومنا، ومن خلفنا كل ذي قلب طاهر من الأجانب، ينوي التعامل معنا بتكافؤ، ومن غير أذى أو استغلال أو استغفال.. وفي كل الأحوال فإن أمراً من النوع الذي نتحدث عنه، يبقى قول نخوة هو القول الفصل فيه، إذ لا مجال لأن يفرض زواج عليها، إنما هي التي تختار، بعد أن صارت على ما هي عليه من عمر ونضج وصفات حميدة..

قال حسقيل:

ــ نعم.. الاختيار لنخوة الآن، وبعد أن تقول نخوة رأيها، ينبغي أن لا يقول أحد رأياً مخالفاً..

قال ذلك، وفي ظنه أن نخوة ستختاره حتما.

اتجهت الأنظار كلها إلى نخوة، التي استأذنت أبا سالم، ونهضت، في الوقت الذي تجمعت النساء كلهن واقفات خلف

الرجال، الذين كان بعضهم يجلس على بسط والآخر على نبت الربيع في الأرض، ثم مشت حتى وقفت في مكان يراها فيه الجميع، رجالاً ونساء، وقالت:

ــ إن قبيلتنا ذات تاريخ مجيد، وحماها ذو عز ومهابة، بقدر ما عليه ناسها من عز ومهابة، وفي مقدمتهم رجالها، وكان خيرها الذي أصاب الناس أجمعين وفيراً ..كبيراً وعظيماً، وليس قومنا فحسب، عندما كانت على هذا الوصف، لكنها بدأت تضعف مع ضعف شيوخها ووجوهها، وولاة أمرها، حتى تضاءل شأنها إلى الحد الذي صار رجالها غير قادرين على أن يدافعوا عنها وعن خيراتها وحماها، بعد أن فقدوا القدرة على صيانة معانيها، فاستهان بها الأجنبي، بعد أن طمع بها إلى الحد الذي صار يتدخل في شؤونها، وينصب على أهلها هذا أو ذاك ليملأوا عناوين مراتبها، حتى وصل الهزال بها وإذلالها أن نصب الأجنبي حسقيلاً عليها، وفق تحالف معروف لكم، كأنه الابن اللقيط لمرحلته، فإذا كان الأجنبي قد تمكن من العنوان الأمامي لقبيلتنا، أو أي عنوان آخر بعده، على يمينه أو شماله، فلن يتمكن منا نحن بنات وأبناء قومنا الذين قررنا أن نبقى مخلصين، ونرفض المصطنع المذل.. ولأنني ابنة القوم الذين أنتم منهم، فلن يتمكن مني الأجنبي وحسقيل منهم، لذلك أعلن أمامكم، وأشهد الله، وأشهدكم على قولي وإخلاصي وأمانتي أنني أقبل خطبتي من ابن عمي سالم، وتاج رأسي، كابن بار لقومنا..

دوت عاصفة من التصفيق من الحضور كلهم، نساء ورجالاً وأطفالاً.. شيباً وشباباً، صبية وصبايا، عدا حسقيل، الذي كان يصرخ حتى بحّ صوته.. ولم يسمعه أحد، وضاع صوته في الفضاء، في الوقت الذي كانت الموسيقى ودفوف وطبول الفرح تصدح في كل مكان، معلنة ولادة روح جديدة، وتقليد جديد من موقف جديد في زواج أبناء وبنات القبيلة.. وموقفهم من أنفسهم ومن الأجنبي الطامع..

وخطت نخوة خطوات عدة وهي تتهادى باتجاه سالم، واستأذنته لترقص معه، أو تدبك الدبكة نفسها التي دبكاها عندما كان ملثماً في المناسبة المعروفة..

***

نهض حسقيل ليغادر، لكن أبا سالم، باعتباره المضيف والمشرف على الدعوة، أشار اليه بأن يجلس، فجلس على مضض.

انهت نخوة رقصتها مع سالم، تلك الرقصة المعروفة للقبيلة، وعادت لتقول وهي تقف في المكان نفسه:

ــ بعد ان حسمنا امرنا برضاكم، اخواني واخواتي وابناء عمومتي، بقيت شؤون اخرى، تتصل بالقبيلة وتتصل بي .. فقالت:

ــ لا اريد ان اتطرق الى ضعف أبي، فأنتم تعرفونه وأنا اعرفه، لكنكم تعرفون نوعية وموقف جدي وأجدادكم وكيف كانوا حماة القبيلة وعزها وكيف كان حال الناس وفق ما نعرف في احسن حال، عندما كانوا على تلك الصفات يمارسون مسؤولياتهم عليها.. ان الضعف يدخل نفوس الناس عندما لا تكون المهمة او المهمات التي يتولونها عالية المعاني وتعز الجماعة او عندما يداخل انفسهم ما يغويها بعيدا عن ذلك او عندما تختلط طباعهم وافكارهم بطباع اجنبية ليست على ايماننا ومعانينا، سواء من معاشرة وتعايش قريب او من خؤولة لا تحفظ من المعاني العالية حدها الادنى.. او خؤولة لا تجد نفسها تنتمي الى تقاليدنا والمعاني التي نعتز بها ونفتخر ونضحي لنحافظ عليها ولأنني اعرف اسباب ضعب ابي والاسباب التي جعلت امي تضعف في القصة التي سأرويها لكم، فإن ضعفها حفز المعاني التي أختزنها في نفسي الآن، حتى صارت سياجا قادرا ليحميني ويحافظ عليَّ امام صعوبات الحياة او اغراءاتها، لذلك رفضت حسقيل،

وفضلت ابن بلدي.. ابن قبيلتي وقومي..

***

عندما ذكرت نخوة أمها بدأ حسقيل يلم نفسه، وامام الاحتمالات التي كان يداورها في نفسه وما اصابه جراء رفض نخوة له ومرارة الموقف، صار جسم حسقيل ينكمش ويصغر، ليس نفسه فحسب وكان يتحدث مع نفسه وهو يسحب عقاله ليرجعه الى الخلف او يقدمه الى الامام تارة او يجلس القرفصاء او يمد هذه الرجل او تلك ويدلكها، كأنها)خدرت) من طول انتظار، تارة اخرى.

قالت نخوة:

ــ ان حسقيل لم يتآمر على المشيخة في القبيلة فحسب، بل على القبيلة كلها، هو وشيخ قبيلة الروم، الذي اسماه حسقيل اكبر شيخ، وسمى قبيلته اكبر قبيلة في هذا الزمان.. وانا اسمي ذلك الشيخ مثلما اسمي حسقيل: اخزى اثنين.. اما قبيلة الروم فليست اكبر قبيلة، اذا اخذنا الامور على الصفات والمعاني العالية.. او عدد الانفس..

قال حسقيل مقاطعا:

ــ انا اخزى واحد بين اثنين كلاهما الاخزى، يا بنت!؟

قالت نخوة:

ــ احترم نفسك، يا حسقيل، انا نخوة قومي، واذا كنت تصر على ان وصفي لك لا ينطبق عليك، تنازل عن الوصف الذي وصفته به واختر وصفا جديدا ولأن القول لا يفيد امام الفعل، فان تنازلت عن الوصف الذي وصفتك به، اذا كان لا يعجبك، ينبغي ان يتم بحيازة صفات مناقضة لصفاتك المعروفة المذمومة، وهذا يتم بالعمل والنموذج الذي تضفي به الجماعة عليك صفة استحقاق ما هو جديد.

سكت حسقيل، لكن نخوة واصلت كلامها:

ــ عندما عزلتم والدي ــ موجهة الكلام للقبيلة ــ فعلتم ذلك باستحقاقه، لكنكم اخطأتم عندما توهمتم ان الاجنبي يمكن ان يصلح لقومكم مثابة وراية ومعنى وسندا، فجئتم بحسقيل شيخا للقبيلة ونسيتم في ذلك القرار الخاطئ ثوابت الامور الاساسية وخواص حسقيل، قبل ان يأتي الى قبيلتنا وتناسيتم ما وصلكم عنه من اخبار (علوم) قبل مجيئه، بما في ذلك ان ابراهيم، ذاك الشيخ الجليل، طرده من عطفه وحماه، بعد ان خرج على مبادئه واحرجه امام الناس، وفعل يوسف ومحمود الشيء نفسه.. وعندما صار حسقيل شيخا للقبيلة لم يكفه ذلك، انما دفعته عقده ومآربه المتشعبة التي بدأت من انجاح بقالية يملكها او متجر صغير، الى سيطرة مصالحه على المنطقة كلها.. اقول لم يكفه عنوان المشيخة فينا، وانما راح يخطط ليتزوج امي وبسبب الوحدة التي كانت تعيشها ولأن واليا لم يكن على رأسها ولانها لم تكن بنت عمنا وربما اغراها حسقيل بلسانه المعسول، فقد استساغت خطة حسقيل عندما اعلن رغبته في الزواج منها..

قالت ذلك وتدفقت الدموع من عينيها، لانها تعرف ان أمها لم تبق الامور مع حسقيل ضمن هذه الحدود، انما اندفعت الى ما تعرفه في سلوكها وعندما خنقتها العبرة وراح الدمع يتدفق مدرارا من مآقي عينيها، توقفت عن الكلام برهة، فاستغل الجمهور المتجمع خلف الرجال الجالسين على الارض، ليعلن عن نفسه بعاصفة من التصفيق، انتقل تأثيرها للجالسين، فصفقوا معهم بحرارة وبدأ من كان واقفا منهم يلقي شعرا وقصائد:

اخي جاوز الظالمون المدى فحق الجهاد وحق الفدا..

او يلقي هوسات:

لو هلهلتي وصوتك عالي..
وتحبني الناس من افعالي..
احنا الرمح وسيف العالي..
وكل خدّاع يجفل منا..
صفن يا البيض شهود إلنا..

وتجول النساء والرجال، كل ضمن حلقة مركبة، بجولات حماسية، كل يعبر عن موقفه، ويشجع نخوة ويتضامن معها ويلعن حسقيل، حتى صار حسقيل يقرع نفسه، وهو جالس مصفر الوجه، لا يكاد يرى دم فيه، ويقول:

ــ لماذا لم اركب فرسي واهرب، عندما اعلنت نخوة رفضها لي وفضلت سالم عليَّ؟

ثم يعود يسأل نفسه:

يا ترى هل ستقول كل شيء؟ انها ان قالت كل شيء، سيذبحونني، ولن يمنعوني من المشيخة فحسب..

وعندها يقول:

ــ انا (كصيرهم (قصيرهم (يذكر نفسه بهذا لانه التجأ اليهم وعاش تحت حمايتهم) ولذلك لا اظنهم يقتلونني، لان العرب لا يقتلون (كصيرهم.(

ثم يعود ليقول:

ــ لكنني جعلت نفسي شيخا عليهم، ولم أبق (كصير) تحت حمايتهم، لذلك قطعت بنفسي حق ان يحموني..

كان حسقيل يقول ذلك في نفسه، بعد ان لاحظ ان لا أحد يجامله، حتى وفق أبسط اشكال المجاملة للعلاقة بين شخص وشخص، اما المجاملة على اساس انه يحمل عنوان شيخ القبيلة فقد انتهت او كادت منذ ان اعلنت نخوة رفضه واجهزت عليه نهائيا الآن، حتى انه عندما طلب (زنادا) (١) ليشعل غليونه، رماه اليه من طلبه منه بدلا من ان يقدمه اليه بيده مباشرة.. مع انه كان قبل هذا لو طلب (زنادا) لتدافع كثر من الذين قربه كل يسعى، وفي ظنه انه شرف له، ان يقدح له (الزناد) على شفرة حصى، بعد ان يضعوا فوقها جزءا من خرقة جرت تسويتها وهي مبتلة وممزوجة برماد، بعد ان تتيبس، (اما الآن فصاروا يرمون لك الزناد يا حسقيل)، وعندما يستعيد افعاله مع نفسه، يقول:

ــ ان كل هذا هين، الاخطر لو سيطروا على اموالي.. انهم ربما يسيطرون حتى على البرج.

ــ ثم يعود ليقول:

ــ ولكن البرج ليس في حماهم وانما في حمى حليفي شيخ الروم وهو والبرج الذي يملكه قريبان من بعضهما، لذلك سيحميه ويحمي الذهب والفضة التي فيه ودفاتر الحسابات التي تسجل ديوني عليهم وعلى غيرهم.. مثلما يحمي برجه.

تنفرج اسارير حسقيل قليلا، لكنه سرعان ما يقول..

ــ ولكنهم قد يقتلونني لو سردت نخوة كل ما تعرفه عني.. ثم ينثني بقوله، بما يعني ان نخوة لن تقول ما يخزيها، لذلك تحدثت عن خطبتي لأمها، ولم تتحدث عما هو ابعد..

تعود نخوة، بعد ان تكفكف دموعها لتقول:

ــ ومع ان من المعيب ان تتزوج امرأة كانت يوما ما زوجة شيخ القبيلة، الا من قروم القوم، ان كانت بحاجة الى رعاية والا اعتبرت حالتها شاذة، لو فعلت، فقد وافقت حسقيل في رغبته..

بدا حسقيل كأنه استعاد معنوياته ليقول:

ــ هذه اهانة لي لا اقبلها ..متخذا من ذلك غطاء لينهض، وفي ظنه ان بامكانه ان يترك الجلسة، لكن باشارة من سالم، بعد ان ينقر ابوه على (طاسة) امامه بان اسكتوا واجلسوا، يتولى اثنان من الشباب الذين يقفون خلفه اجلاسه في مكانه، بعد ان يضعا ايديهما على كتفيه ويضغطانها للاسفل..

عادت لتقول:

ــ ومع ان امي، رحمها الله، وافقت على الزواج من حسقيل، لكن حسقيل تصور ان امي كتمت عليَّ الموضوع، وجاءني ليعلن رغبته في خطبتي، وتمالكت اعصابي، ولم انهره، خشية ان يدبر لي ولوالدتي امرا اذا رفضته، ذلك انه سيتصور عندها ان امره قد انكشف، لكنني لم اقطع له املا بشيء وماطلته لأديم صلتي بنساء القبيلة واحرضهن على التمرد، في الوقت الذي كان سالم يفعل الشيء نفسه مع الرجال، لكنني قبلت الخطوبة عندما اشتد ساعد تنظيمنا وعرضها عليَّ سالم، واتفقنا على ان نكتمها، بعد ان نشهد الله على ذلك، وكانت شاهدتنا، بعد الله، اخته سمية، ثم ابوه وامه بعدها، وعلى هذا عندما جاء حسقيل طالبا ان ادبك معه.. رفضت، ليس لأنني احب سالم او لأنني اتفقت معه على الزواج وفقا لقانون الله فحسب وانما لاجنبكم الحرج، اخواني واخواتي واعمامي، ولكي اجنب علاقتي وعملي بين النساء ما يشوش عليهما، بل انني قدرت انني، لو وافقت على طلبه ذاك، سأخزيكم واخزي المبادئ التي انادي بها بين صفوف نسائكم، ولو تمت موافقتي على مراقصته، لا سمح الله، لقال كثير وربما كل النساء ان حسقيل قانون الله في الارض، هو وحليفه شيخ الروم، حيث لا يعود باستطاعة نساء العرب، وربما رجالها ان يصمدوا بوجهيهما..

وراحت نخوة تحكي مقتل امها، وقالت:

ــ يا عمر ..يا سمعان.. يا حازم.. احضروا الفأس التي وضعتموها في كيس كمستمسك جرمي، واشهدوا على ما رأيتموه وحكيتموه لي..

قام الثلاثة وحكوا ما رأوه للحضور وجاءوا بالفأس وراحوا يعرضونها على الجالسين والواقفين، كأداة جرمية وعندما جاءوا بها امام حسقيل كان مطرقا برأسه، كأنه لم يعد يشعر بما حوله، لشدة ما لفه من الهم والغم والخوف، حتى انه (فزّ) عندما نبهه احدهم، وكاد يصرخ ويقف كأنه يجفل من حلم مزعج.. وعندما رأى الفأس امامه قال، وهو على تلك الحال:

ــ يا أخي (فززتني) جفلتني.. نعرفها ..نعرفها..

ولكنه ادرك انه اخطأ، فقال:

ــ من لا يعرف فأس أم نخوة، رحمها الله!؟ كلنا نعرفها.

كاد جميع من سمعوه ان يضحكوا، في الوقت الذي استدار الموجودون، كل الى من يجلس او يقف الى جانبه يمينا ويسارا، هامسين أو معلقين بما يخزي حسقيل، ويضع علامة استفهام عليه...

قالت نخوة:

ــ اعلن امام بنات وابناء قومي قصتي وقصة امي مع الخائن المجرم حسقيل، وتحالفه الشرير مع كلب الروم وقبيلته، وانشد نخوتكم بي، وبالمعاني التي تحملونها عن انفسكم وايمانكم وعن تاريخكم، لتنصفوني، وتأخذوا لي حقي.. ان وقفة حق ثابتة معززة بالايمان تجعل الاقوام الاخرى تحترمكم وتحترم حقوقكم.. لذلك ادعوكم لأن تقفوها..

وجلست.. عندها دوت عاصفة من التصفيق، بعدها القى سالم القصيدة التالية لاثارة حماس ابناء قبيلته:

مشينا على هام الزمان المطاول ــندوخه والمجد ليــس بزائــل
حفرنا بأعلى الراسيات مناهلا ــففاضت زلالا من مياه الجداول
لنقري اضيافا اذا هي زمجرت ــونحمي حماها من عدو وجاهل
فنحن اباة الضيم مذ هي اشرقت ــوان اثقلت فيها الغيوم بهاطل
ونحن ولدنا للمعالي وشعبنا ــشقيقين يخشى جمعنا كــل سافــل
كما زحل يزجي الثريا منورا ــكذلك يبقى مجدنــا غيــر آفــل
ترانا عيون الود بيضا فعالنا ــوسودا بعين الارعن المتطــاول
لنا الحكمة الغراء من عهد آدم ــنصون لنا حقابها غير باطــل
كذاك اراد الله سبحانه لنا ــوقد خصنــا فيهــا بقــدرة فاعــل

نهض حسقيل من مكانه وقال:

ــ ان الاتهامات التي قالتها نخوة خطيرة، خاصة موضوع مقتل امها، رحمها الله، ولأنني لم أكن مسبوقا بهذا، ارجو من ابي سالم ان يمهلني لأحضر دفاعي يوم غد، على ان نجتمع في التوقيت نفسه، وفي المكان نفسه، هنا في بيت ابي سالم، وان نكون بلا سلاح.. جميعا بمن في ذلك انا.. وها انا مثلما ترون، لا احمل اي سلاح الآن.. وفتح عباءته وكشف تحتها من ثياب ليثبت انه لا يخفي سلاحا تحتها..

قال ابو سالم، بعد ان استمزج رأي الجالسين عن يمينه وشماله من وجوه القوم، بمن في ذلك سالم:

ــ ان ما تطلبه، يا حسقيل، موافق عليه، وسنلتقي على بركة الله يوم غد، في التوقيت نفسه، على ان لا يحمل اي منا سلاحا، وانما يأتي الجميع ويجلسون في هذا المكان، من غير سلاح، لنصدر قرار القبيلة، بعد ان نسمع دفاع حسقيل، ان شاء الله.

رفع سالم يده مستأذنا والده، وقام ليقول:

ــ ان ما سمعناه اليوم خطير كله، ومن أجل فتح الفرص وتأثير اطراف القضية بصورة متساوية، اقترح ان نجمد صفة المشيخة التي يمارس حسقيل من خلالها أوامره وتوجيهاته على من يطيعونه، ليكون في مركز مساو لأي منا من الناحية القضائية..

صفق الجميع علامة تأييد لمقترح سالم، وعبثا حاول حسقيل ان يعترض قائلا:

ــ اخترت من الشيوخ، وليس من العامة، ولذلك اتمسك بحقي..

عاد سالم ليقول:

ــ ان الجميع حاضرون الان، سواء من اطلقت عليهم وصف العامة أو الشيوخ، وانهم ايدوا مقترحي، ومع ذلك، فإن

الاصول تقتضي ان نسمع رأي رئيس الجلسة..

قال ابو سالم:

ــ مع انني لاحظت حماسكم وانتم تصفقون، اخواني واخواتي ــ قال ذلك وهو يخاطب الجميع ــ فانني اعرض عليكم المقترح، وادعو من يوافق عليه ان يرفع يده لنعرف عدد الموافقين وعدد غير الموافقين علنا، على ان يكون من يقوم بذلك هم البالغون فقط، لذلك ارجو ان ينعزل غير البالغين عن الحضور، في ركن من هذا الفضاء ــ واشار بيده الى المكان ــ وبعد ان تم ما اراده ابو سالم، رفع حسقيل يده طالبا الكلام، وقال مخاطبا الجميع:

ــ انكم، اخواتي واخواني ــ وهنا قدم النساء، وفي ظنه انه يخدعهن، باعتباره قدم صفة مخاطبتهن على الرجال ــ انكم الآن تقررون ما هو خطير، سواء على حاضركم أو مستقبلكم، أو على مستوى قومكم، أو المستوى الأبعد، خاصة علاقتنا التي رتبناها مع شيخ الروم وقبيلته، لذلك اقترح أن أجلس أنا وأبو سالم وحدنا في بيت، ونحضر من يسجل رأي من يدخل علينا من وجوه وشيوخ القوم من الرجال فقط..

قال حسقيل ذلك، لكن خطته الحقيقية غلبت رأيه في المرأة بتصويره على غير حقيقته، عندما وضع النساء قبل الرجال وهو يقول (اخواتي واخواني)، فهنا اقترح ان يقتصر التصويت بصورة شبه سرية على الرجال فقط من وجوه وشيوخ القوم..

---

(1)الزناد، المروة، نوع من الحصى يضرب بعضه ببعض فيولد شرارة.. كان الأقدمون يوقدون النار بها، أو يشعلون سكائرهم بها.

نقر أبو سالم على الصحن الموضوع أمامه لينبه الجميع لكي ينصتوا، وقال موجهاً الكلام للجميع، بعد أن استمع إلى حسقيل:

ــ سنعرض المقترحين على الحاضرين، حسب تقاليدنا، وسنبدأ وفق الأسبقية بالمقترح الأول، الذي يقضي، بناء على ما شرحه سالم بأن يعرض المقترح على كل بالغ في هذا الجمع، رجالا ونساء، وأن يجري التصويت برفع الأيدي، وعندما يحوز على أغلبية، يكون فائزاً، والمقترح يقضي بتجميد صفة الشيخ الممنوحة لحسقيل حتى ننتهي من محاكمة حسقيل يوم غد، إن شاء الله، وفق ما أرادت نخوة، وفي ضوء القرار الذي نتخذه تجري مراجعة كل ما يتصل بالموضوع.

عندما أكمل أبو سالم كلامه، وهمَّ ليعرض مقترح سالم للتصويت رفع حسقيل يده مرة أخرى، وأذن له أبو سالم بالكلام، قال حسقيل:

ــ ولماذا، يا أبا سالم، نتشبث بتقاليد عفا عليها الدهر، ولا ننشئ تقاليد جديدة؟.

استأذن سالم أباه والحضور ليتكلم، فقال، موجهاً كلامه لحسقيل ومعه من كان في المكان:

ــ ان كل شيء موروث جزء من تاريخنا، ويعتمد على حيويته أو جموده في حالة ما إذا قررنا أن نقبل استمراره، أو أن نمر به مروراً كحالة مجردة، أو مجرد نشاط حصل في تاريخنا فحسب.. ان مقترحك، يا حسقيل، مقترح متخلف، ذلك لأنه يختار عددا من الرجال على أساس عناوينهم، ويستثني الآخرين من الناس.. وفي الوقت الذي يؤخذ عدد محدد من الناس قد يثير الجدل حول مشروعية قاعدته ورصانتها، فإنه يستثني من المشاركة كل الرجال البالغين الآخرين، ومع أنك خاطبت المرأة قبل الرجل، وأنت تهم ان تقدم اقتراحك، فقد استثنيت كل النساء من المشاركة في أمر يتعلق بالحاضر والمستقبل، ويتعلق بمصير الناس وحماها ومصالحها التاريخية، وليس بالسلطة وشكلها ومدى استحقاق من يحمل عناوينها فحسب، ثم اننا عندما نقول بأهمية احترام الأسبقية في عرض المقترحات على أساس تسلسلها الزمني، فلأنه الأكثر عدالة بين ما هو معروف من أساليب أخرى، ومن بينها ما يمكن أن يفهم، من اعتراضك على هذه التقاليد، كأنك تريد أن تقول إن المقترح يطرح للتصويت على أساس عنوان من يقترحه، ويتأخر مقترح من يكون مواطناً فحسب في القبيلة، ويتقدم مقترح من اسمه حسقيل، وان كان على [١] القبيلة، أو لا يمت إليها بصلة، في المعاني ولا في الأصل، أو يترك لمن يدير الجلسة أن يتصرف على هواه، فيقدم هذا ويؤخر ذاك من المقترحات، وعندما لا تكون هناك ضوابط متفق عليها، تسود الفوضى والخلافات، ليس في اطلاق الأحكام فحسب، إنما في تطبيقها ايضا، وفي وصف المواقف، ومن يلتزم بالجماعة، أو يخرج عليها، لذلك يستمر أي تقليد لا تلغيه روح الجماعة، ولا تقتضي تغييره الضرورات الظرفية الملجئة، أو تستوجبه قوانين التطور المولود من رحم وصلب قومنا، وان المحافظة عليه، والالتزام به ضروريان، لذلك نلتزم بالتقليد الموروث الذي أشار إليه والدي، واترك لاخواني وأعمامي الحضور أن يبدوا آراءهم، إذا كان لأحد منهم رأي آخر.

ومع إكمال سالم الجملة الأخيرة، دوى تصفيق من الحضور، بما يعني انهم متمسكون بما ورثوه من تقاليد، كانت قد أعزت قومهم عندما كانوا متمسكين بها، واضعفهم الهوى والتخلي عنها كلياً، أو جزئياً، الى الحد الذي جاء الضعف والتخلي بحسقيل شيخاً عليهم، بدلا من أن يكون شيخهم منهم عقلاً وضميراً، نسباً وموقفاً، كتاباً وسيفاً وراية..

عرض أبو سالم مقترح سالم، وفاز المقترح بإجماع الحضور، رجالاً ونساء، عدا عدد قليل رآهم أبو سالم يجلسون

قبالة حسقيل، ويرفعون أيديهم بصورة غير كاملة، ثم يخفضونها حيثما نظر إليهم..
وعندما طلب أبو سالم من سالم أن يقول لهم: إذا كنتم غير مقتنعين، اخفضوا أيديكم، ولن نزعل لهذا..
قالوا له:
ــ لا نحن مقتنعون بمقترحك..
ومن تلك اللحظة رفعوا أيديهم بثبات، فكان القرار بالإجماع.
***
خرج حسقيل بأمل ان يحضر المحاكمة في المكان نفسه، في اليوم التالي، فيما راح الجميع يدبك ويغني ويرقص، او يهتف، ويجول، كل حسب اختياره، وشعوره في تلك اللحظة، والاسلوب الذي يقدر انه متمكن فيه اكثر من غيره ليعبر عن نفسه.
انسل سالم من بين الجمع، واشار الى نخوة وعدد من الرجال: ان اتبعوني، وبعد ان تبعوه الى حيث بيت ابي سالم، الذي كان اقرب بيت الى تجمعهم، حيث تناولوا طعام الغداء، بعد ان استمعوا الى حسقيل وسالم ونخوة، وعندما جلسوا في مكان واحد، قال سالم:
ــ ان طلب حسقيل تأجيل البت في مصيره في ضوء ما اقترف من جرائم، لم يكن وفق ما اشار له في الجلسة.. ان هزيمة حسقيل امام محاكمتنا له بحضور كل الناس من قومنا، وافتضاح امره وجرائمه تجعلها ضرورية له قبل ان يعرض مصيره وحياته علينا، يوم غد، وهو امر لا يتحمله، لا هو ولا شيخ الروم من بعده، لذلك اردت ان اقول لكم هواجسي واستنتاجي، لنعد انفسنا على قاعدة صحيحة، وقد نصل بالحوار فيما بيننا الآن الى افضل الوسائل لمعالجة اقرب الاستنتاجات مما نتوقعه.
سكت سالم.. وتكلمت نخوة قائلة:
ــ ان ما اشار اليه سالم هو الاستنتاج الاساس، بل قاعدة ما يمكن ان نتصور من استنتاجات فرعية منه، واي تصور غير هذا عن نوايا حسقيل، ومن خلفه كلب الروم، يعد تصورا قاصرا من شأنه ان يوقعنا في الوهم، وقد يسبب لنا خسارة، لا سمح الله.. ان اعداءنا لا ذمة لهم ولا عهد.. كما ان هاجس اي منهم لا يكون صادقا امينا، بل غادرا اشرا، وان حسقيل وجماعة الروم معروفون بنكثهم العهود، وعلى هذا ينبغي ان نعد انفسنا ووسائلنا وخططنا.
وتكلم بعدهما من تكلم، ولم يخرجوا عن دائرة الاستنتاج الرئيس، سوى انهم كانوا يقترحون اساليب وخططا لمواجهة تكمل ما قاله سالم ونخوة.. ومن بين ذلك ان احدهم قال:
ــ اقترح ان نراقبه، رغم ان هذا ليس متيسرا من غير تضحية، ذلك لأن حراس وخدم حسقيل، الا واحدا منهم، هم ممن جاء بهم الروم، بعد ان فقد الثقة بمن حوله..
تساءل آخر: ما هي الصعوبة في ان نراقبه؟
أجابه من قال بالصعوبة:
ــ ان ما اقصده ان احد رجالنا الموجودين معه لا يستطيع ان يغادر المكان الا لو هرب على فرسه.. وان وضعنا عيونا جددا عليه الآن سنكون قد اتخذنا قرارنا هذا بصورة مستعجلة وربما مرتبكة، فإنه عندما يكتشفهم سيلقي القبض عليهم ويعرضهم بعد الضغط الى السؤال والجواب، وعندما يعرف اننا نحن الذين امرنا بمراقبته، ستكون له حجة علينا، ومن بين ذلك قد يمتنع عن الحضور للمحاكمة امام القبيلة.
وبعد مداولة طويلة، اكتفوا بوضع عين عليه في بيت هو الاقرب لبيت حسقيل ممن يطمئنون الى اهله، لينبههم بهروب حسقيل خارج المنطقة ان هو فعل ذلك، لكن حسقيل لم يخرج الا في اللحظة الاخيرة، التي سبقت الزمن المحدد، الذي

اتفقوا عليه، ليحضروا في اليوم التالي، بقصد اللقاء في بيت ابي سالم.
تكلم الثمانية المجتمعون في بيت ابي سالم، ومنهم سالم ونخوة، والستة الاضافيون، وهم خمسة رجال وامرأة.
قال سالم:
ــ لتكن خطتنا على اساس ان نموه عليه، ونمكر بخطط حسقيل ونواياه، مثلما نتصور انه يعد العدة ليمكر بنا.. وعلى هذا، فإن خمسين من رجالنا ينبغي ان لا يحضروا مكان الاجتماع، وان يكونوا مع خيولهم خلف بيتنا هذا، في الوادي الذي يبعد عن مكاننا هذا ما بين مائة وخمسين الى مائتي متر، اما سلاحنا فهو في بيتنا هذا في مقطع العيال.. واذا ما داهمونا بغدر، سوف يسبق الخيالة المشاة الينا، واعتقد ان حسقيل سيتصور اننا بلا سلاح، وسيفاجئهم سلاحنا، وسيكون هو وحليفه في وضع صعب، ربما لم يتمنياه لو انطلق فرساننا الخمسون من مكانهم، مقسمين على مجموعتين.. وظهروا كلهم بعد ان يلتفوا من الجوانب خلف العدو، واعملوا سيوفهم في رقاب العدو، في الوقت الذي اركب انا ونخوة فرسينا، حيث ستكون لها فرس مجنبة قرب فرسي، وسوف اوعز الى حازم وعمر وسمعان بأن يحضروا خيولهم، لتكون قرب جارنا، وتربط في مقدم البيت، لتكون اقرب الى مكاننا، وسوف آمرهم بأن يلازم اثنان منهم نخوة على جناحي حركتها، والثالث الى الامام قليلا..
علقت نخوة:
ــ ألا تثق بقدراتي، يا سالم؟
ــ بلى، ولكن التحسب واجب.
ــ ألا يكفي حازم لحمايتي، هو وشخص آخر، وان يكون الثالث معك؟
ــ اطمئني، سأكون بين جمعكم، حتى عندما اتقدم صفوفكم، وفق ضرورات الحرب، اذا تطلب الامر ذلك، لذلك ستكونون جميعا بحمايتي بعد الاتكال على الله.
تبسم الجميع..
قالت نخوة:
ــ ربنا، منك النصر، وبك نستعين..
ردد الجميع:
ــ آمين..
ونهضوا بعد ذلك، ليقوم كل بواجبه قبل ان يحل موعد اليوم التالي.
***
في الوقت الذي كان سالم ونخوة يرسمان، كل في ميدانه، سيناريوهات لما ينبغي او يجب، في ضوء ما استنتجاه عن نوايا حسقيل وخططه ..اتصل حسقيل فور وصوله الى بيته بشيخ الروم.. بعد ان كلف من يقوم بذلك ليشرح كل ما سمعه عن الاتهام الذي وجه اليه هذا اليوم، والى تجميد صفة المشيخة فيه، والى دعوته ظهر اليوم التالي ليحضر اجتماع القبيلة، الذي يتقرر فيه مصيره النهائي كشيخ للقبيلة، وربما حتى حياته، قال، وأكد القول على من بعثه الى شيخ الروم:
ــ قل لشيخ الروم انني سأنتظره هو وفرسانه عند القنطرة التي كنا نخيم حولها في خريف العام الماضي، عندما كنا في (القنيص، القنص، وهناك سأبين لهم كل شيء اضافي عن الخطة، واسمع ايضا اي تعديلات اضافية يريد الشيخ ادخالها عليها.. وكرر على شيخنا الكبير ان التوقيت قبل الظهر بساعة او ساعة ونصف الساعة.. وقل له ان تأخرهم قد يفشل خطتنا، لأن سالم وجماعته ومعهم قبيلتهم، عندما يعرفون انني لم احضر في الموعد المقرر، سوف تداخل

عقولهم هواجس عن سبب تأخري، وقد يحتاطون، بينما لو داهمناهم قبل ذلك، سنغلبهم لأنهم غير مسلحين..
انطلق من كلفه حسقيل على فرسه باتجاه شيخ الروم، وبعد ان تسلل في الوديان القريبة من بيت حسقيل، لئلا يراه احد ويكشف اتجاهه، وصل الى شيخ الروم وابلغه الرسالة..
قال شيخ الروم للرسول:
ــ ابلغ حسقيل بأن يطمئن فإن ما لدينا من عدة حرب تكفي لما هو اكثر عددا من قبيلة سالم، وان رجالنا كثر، مع اننا لم نجرب من قبل الاصطدام بهم، ولا نعرف تفاصيل كثيرة عنهم، وبخاصة معنوياتهم، لذلك قد يجد رجالنا في بادئ الامر صعوبة في ان نجعلهم يقاتلون كما يجب، لكن التفوق في السلاح والخيل امام رجال غير مسلحين يجعل القتال معهم محض نزهة.
ثم ان حسقيل يقول ان عددا كبيرا من شيوخ وشباب القبيلة سينسلخون عن سالم وجماعته، عندما يبدأ القتال، وهذا جيد، ذلك لأنهم ما ان يروا خيولنا تجمح باتجاههم، حتى ينقسموا على بعضهم، وعندما ينقسمون ويبدأون ببعضهم، سآمر رجالي بأن يكفوا عن مهاجمتهم، لكي لا نوحدهم اذا جعلناهم هدفا واحدا، وحيثما مالت منهم كفة على كفة، سندعم الكفة التي تضعف، بحيث نعيد التوازن بين الكفتين، بما يجعل القتال ومعه الخسائر يستمران ولا يتوقفان.. واذا ما حاولوا الصلح فيما بينهم بعد ان يتعبوا، سوف ندس بينهم، ونخرب اي صفاء، ليعاودوا التناحر والانقسام، فيضعفون، واذا ما التجأوا الينا بعد ذلك لنحكم بينهم، سوف نفرض عليهم شروطنا، حتى يرضخوا، ولا يعودوا يتمردون على سلطتنا، سلطة تحالفنا العتيد.. وقل لحسقيل اننا لن نتخلى عنه.. الا اذا هددت مصالحنا، وبما ان مصالحنا مضمونة ومؤمنة بدوره وجلوسه فوق رؤوس المضطرة كشيخ عليهم.. فلن نتخلى عنه ..وسأكون مع فرساني.. وسأحشد كل ما استطيع حشده، وهو كثير، قرب القنطرة..
يركب المبعوث فرسه، ويهم بأن يلكزها ليغير عائداً من حيث أتى.. لكن شيخ الروم يستوقفه.
ــ قلت إنهم سيكونون غير مسلحين.. أليس كذلك؟
ــ نعم يا شيخ، حتى ان حسقيل اشترط أن لا يحضر منهم أحد حتى لو كان يحمل عصا غليظة، وليس سلاحاً..
ــ هذا جيد، أجاب شيخ الروم.. سأكون عنده قبل ظهر يوم غد، وفق ما أراد.. ثم قال للمبعوث:
ــ ارشد.. أي اذهب راشدا..
قال شيخ الروم ذلك، واستدار بوجهه ناحية البرج، الذي بناه الى جانب برج حسقيل، وكلاهما في حماه، لكن على مقربة من الخط المتعارف عليه بين القبيلتين.
***
التقى شيخ الروم بشيوخ قبيلته وفرسانه، وشرح لهم الخطة.. وناموا ليلتهم.. وما ان صارت الشمس في صباح يومهم ذاك (بارتفاع قامة) عن الأفق، كما يقول أهل الريف والبادية، حتى سار بفرسانه، منطلقا ناحية القنطرة بعد ان حسب مسافة الطريق، يحف به الفرسان المدججون بأسلحتهم ودروعهم، وهم يضعون على قلنسوات المعروفين منهم ريش نعام أو ريش (فزن)، أو قرون اكباش كأنهم في غرورهم وحبورهم ومظهرهم إنما يقدمون على زفاف او استعراض في مناسبته..
وما أن اقتربوا من القنطرة، حتى لاح لهم (خيّال) فارس وحيد فوق فرسه، مما اثار استغراب شيخ الروم، خاصة أنه رأى خيالاً واحداً في هذا المكان، في الوقت الذي يفترض ان يكون حسقيل فيه.. وعندما ابدى استغرابه لمن حوله.. اجابهم الأكبر مكانة ومرتبة بين من كان مع الشيخ الكبير، شيخ الروم:
ــ قد يكون أحد فرسان حسقيل وسبقهم إلى هنا، ليكون في استقبالنا قبل حضور حشد حسقيل الكبير.

عاد الشيخ ليقول:

ــ لكن التوقيت حكم، فمتى يأتي؟!.. ليذهب اثنان منكم ناحيته وليتأكدا من هويته، لكن احذرا أن تتركا له فرصة الهرب، إذا لم يكن من جماعة حسقيل، خشية أن يبلغ جماعة القبيلة المضطرة بأي شيء، بعد ان رأى موكبنا.. ونحن قريبون منازلهم الآن..

انطلق الفارسان باتجاه الفارس الذي كان متوقفا وهو يمتطي جواده عند القنطرة، بينما توقف رتل الشيخ الرومي بانتظار ما سيكتشفانه عن ذاك الخيال..

وصل الفارسان، وتعرفا على الفارس.. انه حسقيل الذي جاء معهما (هذبا) خببا باتجاه رتل الروم.. وما ان وصل حتى قفز من على ظهر فرسه، واتجه ناحية شيخ الروم، فيما بقي شيخ الروم في بادئ الأمر على ظهر حصانه، مما اضطر حسقيل أن يمد يده لشيخ الروم ليصافحه وهو على ظهر حصانه.

سأله شيخ الروم قائلا:

ــ أراك وحدك، يا شيخ.. ترى، ألم يبق معك أحد؟..

عرف حسقيل أسباب التغيّر الذي طرأ على شيخ الروم (ذلك ان من يكون وحده، لا يحمل إلا وزن جسمه حتى في نظر اصدقائه).. هكذا قال حسقيل في نفسه.. وعلى أساس ما فهم اجاب حسقيل شيخ الروم:

ــ ان فرساني كثر، يا شيخنا، لكنني قدرت أننا لن نحتاجهم، ذلك لأننا سنواجه قوماً بلا سلاح، وخطتي مثلما شرحت لك تقوم على المخادعة، واستصحاب فرساني معي إلى هنا سيكشف خطتي، ويجعل القوم يتهيأون، لذلك فضلت استبقاءهم هناك، على أن يلحقوا بنا، عندما يروننا نهجم على تجمع سالم في قبيلته، وربما هاجموهم قبل ان نصل لو رأوا (عجاج) الخيل.. اما لو سألتني: هل تريد أن يهجموا معنا؟ لقلت: كلا، ومع ذلك عملت هذا التدبير خشية ان تلومني لو حرمتهم من المشاركة معنا ..وإلا كنت افضل ان لا يحظى بشرف إبادة سالم وجماعته إلا أنتم وأنا معكم.. وربما خادمي شميل الذي تركته معهم هناك..

ترجل شيخ الروم من على ظهر حصانه، بعد ان سلم رسنه إلى أقرب مرافق له.. وتكلم وهو منفرج الأسارير:

ــ ظننتك وحدك من غير تدبير، لذلك ظننت انهم ربما جردوك من الرجال فأصابني الغم.. لأن الشيخ من غير رجال لا يساوي وزن عقاله، حتى لو كان عقاله من ذهب.. قال ذلك وهو يشير إلى عقال حسقيل الذي كانت خيوطه من ذهب، كأنه ذاهب هو الآخر إلى حفلة..

قال حسقيل، بعد ان نفث حسرة من صدره:

ــ نعم، يا شيخ، كلامك ذهب.. سترى ان فرساني (يسدون عين الشمس) لو اصطفوا في مكان بعينه.. لكنني استبقيتهم هناك وفق ما أشرت ــ واسترسل في الكذب ــ حتى انني نسيت ان اقول لمبعثوي إليك اننا لا نحتاج إلى فرسانك كلهم، إنما لجزء صغير منهم، أو بالعدد الذي كنا نستصحبه معنا في (القنيص) القنص.. وطالما احضرتهم جميعاً، فعلى بركة الله، ولو ان حصصهم من الغنائم ستقل بسبب العدد الكبير.. لكن حصتي وحصتك لن تتأثرا.. حيث لنا النصف مما يغنمون..

قال ذلك وضحك هو وشيخ الروم.. ثم رفع شيخ الروم يده ليصافح حسقيل.. وضربا يدا بيد بقوة، وكانت يداهما مرتفعتين بصورة قائمة وليستا ممدودتين إلى بعضهما، كما الطريقة العربية.. فعلا ذلك جرياً على عادة الروم، تعبيرا عن مستوى علاقتهما وحبورهما..

***

جلس حسقيل وشيخ الروم القرفصاء، وأعاد حسقيل شرح خطته على الارض، بعد ان استخدم عصا بيده، يخط بها

على الأرض، وكان يستعين بشفرة حصى من حين لحين، ليحفر بها خطوطاً على الأرض بما يشبه الخريطة الإيضاحية..

طلب حسقيل وشيخ الروم احضار عدد اضافي يمثلون عينات من قوم الروم الذين يتولون القيادة..

نهضا واتجها كل إلى فرسه أو حصانه، وقبل ان يركبا، لاحظ حسقيل ان عددا من الصقور كان يطارد رف طيور من الحبر، فنبه شيخ الروم الى ذلك المنظر، وقال شيخ الروم:

ــ انه لأمر عجيب حقا ان نرى في شهر نيسان هذا العدد الكبير من طير الحبر، يطارده هذا العدد من الصقور.. بينما اعتدنا ان نرى هذا في الخريف فحسب، أو حتى في أوائل الشتاء..

أجابه الأعرابي الذي اتخذه شيخ الروم دليلاً في معرفة الأرض والقبائل والبطون:

ــ اننا في شهر نيسان، يا شيخنا، والعرب يتفاءلون بشهر نيسان، مثلما يتفاءلون بشهر أيلول، ونيسان مثل أيلول يحمل مفاجآت سارة، لذلك فإن منظر الصقور هذا، وهي تطارد رف طيور الحبر، علامة فأل خير قد ينصرنا الله به على عدونا..

ورغم ان أحد حكماء الروم نبّه شيخ الروم إلى التورية في كلام الأعرابي بقوله: (فأل خير قد ينصرنا الله به على عدونا)، بينما كان يفترض أن يقول تعبيراً عن الاحترام والتبجيل انه (فأل خير قد ينصرك الله بعده على عدوك ..(فقد أجاب شيخ الروم بنزق:

ــ بل سننتصر عليهم وعلى قومهم كلهم، من غير أن يذكر اسم الله، أو يتّكل عليه..

بقي شيخ الروم ممتطياً ظهر حصانه، يتوسط مقدمة الفرسان الذين كانوا يحيطون به من اليمين واليسار، وكان حسقيل اقربهم إليه من جهة اليمين، يتوزع حوله وجوه القوم وشيوخ القبيلة، وتتأخر خلفهم، على جانبي حصانه، كوكبة من الذين يتولون حمايته اثناء القتال، وغالبا ما كان دوره في القتال رمزيا، لأن مرافقيه ورجال حمايته ينوبون عنه في ذلك..

***

بعد ان أنجزت نخوة واجباتها مع نساء القبيلة، وقدرت ان سالماً وأباه أنجزا واجباتهما، عادت إلى بيت أبي سالم بعد المغرب بقليل.. فقدموا لها ولهم طعام العشاء المؤلف ذلك اليوم من خروف صغير، أعدته أم سالم، وجعلته هبيطاً ثردت خبزاً فيه..

قالت نخوة:

ــ هلاّ أعفيتموني من العشاء، فنفسي لا تشتهي الطعام..

أجابتها أم سالم:

ــ كيف يا عمة؟ أيصح هذا.. مضى زمن ونحن نأكل من خيرك.. ولا تريدين الآن أن (تمالحينا) في بيتنا؟ ما الذي تنوينه مما لا نعرف؟..!!

ضحكت أم سالم وضحك الجميع.. وأشارت أم سالم إلى أهمية الملح ودوره شبه المقدس عند العرب، ذلك لأن الملح يوضع في الطعام، ومنه الخبز، ورغم ان كثيره ضار للصحة، فإن شيئاً منه ضروري للإنسان، بل حتى للحيوان، إلى الحد الذي قد لا يعيش الإنسان ولا الحيوان من غير ان يتناولاه في أي مما يأكلان أو يشربان، ولأن الغذاء، مثل الماء، مقدس عند العرب، لتوقف الحياة عليه، فإنه يتخذ بما يشبه الرمز المقدس.. وتقديرا لهذا وما يرتبط بمعانيه، فلو ذاق أي عربي طعاماً في بيت أحد، فإنه لن يخونه أو يغشه أو يسرقه، وعلى ذلك قصص كثيرة في الموروث الشعبي بعضها يقول:

ان احد الأعراب حمل عصاه، وارتحل يبحث عمن يغزوهم، ليسرقهم خلسة، لا علنا.. وهذا النوع من السرقة يسمى (الحنشل) وقد سطا على بيت لا على التعيين في الليل.. وعندما كان يبحث عن ضالته في الظلام، وجد جرة فتحتها واسعة، وعندما تحسس شيئاً ما في يده، لم يستطع ان يتعرف عليه إلا بعد أن تذوقه، ووجده ملحا.. فترك كل شيء، ولم يسرق ذاك البيت أو تلك القبيلة، علما ان عياله كانوا بحاجة إلى ما ينقذهم من الجوع والهلاك.. وقد سار مسافة ثلاثة أيام عن نقطة انطلاقه، ومع ذلك أبى أن يسرقهم وعاد إلى دياره، ومن هناك حمل عصاه واتجه ناحية تلك القبيلة مرة اخرى.. كأنه بعودته الى حيث انطلق.. ثم معاودته الكرة كفّر عن استحقاق ما تذوقه من ملح.. لو أراد أن يسرق من بيت آخر في القبيلة..

قالت نخوة:

ــ كل ما أنويه وتنوونه خير، يا عمة، بعد الاتكال على الله..

تدخل سالم ليقول:

ــ أتعرفون لماذا نفس نخوة (مسدودة) عن الأكل هذا اليوم، يا أماه؟..

قالت أمه:

ــ لماذا؟ !قال، بعد أن لاحظ أن نخوة تتبسم كأنها حزرت أنه ينوي أن يمزح:

ــ ان نخوة تخاف أن يصيبني مكروه غدا..

قالت أم سالم:

ــ أبعد الله الشر، (سور سليمان من حولك) إن شاء الله..

قال سالم:

ــ اننا زرع الله، يا أماه.. وهو سبحانه خالقنا، وعليه نتوكل، وبه نستعين.. ان تعليقي هو انها طيلة هذه السنين لم تقلق عليّ قلقاً خاصاً، لكن عندما سميت باسمها، بعد أن خطبتها، صارت معدتها (تنسد) ولا تشتهي الطعام عندما تنتظر منازلة..

قالت نخوة مازحة وهي تتبسم:

ــ وانت ايضا، لم تقلق عليّ مثلما تقلق الآن.. ألم تعيّن بالاسم ثلاثة يقومون بحراستي؟ في حين انك، رغم معرفتك في السابق انني انشط بين النساء ضد حسقيل، وانني معرضة لاحتمال غدره، لم تكن تقلق عليّ كما الآن..

ضحكوا جميعاً..

قال أبو سالم:

ــ ما يريده الله يفعله، إن خيراً فخير، وإلا فنحن له مسلمون.. ولا راد لما يريده، سبحانه..

عادت أم سالم لتقول:

ــ خير، إن شاء الله.. تفاءلوا بالخير، يا جماعة..

قال الجميع:

ــ خير، إن شاء الله، يا رب العالمين..

قال أبو سالم:

ــ الزاد برد.. كلوا بعد ان تسموا، وامتدت أيديهم إلى الطعام، يسبقهم أبو سالم وقالوا جميعاً «بسم الله الرحمن الرحيم»، وعندما انتهوا من تناول الطعام، قال أبو سالم، بعد ان رفع يده من الصحن) الصينية): الحمد لله رب

العالمين..
وقال الجميع مثل ما قال..

1ــ القنيص، الصيد براً

(13)والأخير

قبل ان يصلوا إلى ديار أبي سالم، سأل حسقيل شيخ الروم:

ــ هل أبقيت حراسة كافية على البرجين؟..

ــ نعم، لكن ليس بنفس عدد من يقومون بالحراسة كل يوم، إنما أقل من ذلك..

قلق حسقيل على المال والذهب في برجه فقال:

ــ لو اعدنا عددا من فرساننا الذين لا تقدر اننا بحاجة إليهم، ليعودوا ويعززوا حراسة البرجين، خشية ان يدهمهما عدو أو طامع في غيابنا..

أعاد شيخ الروم ستة من الخيالة إلى البرجين، قبل أن يقتربوا من المثابة التي بعدها تبدأ الصولة.. وبعد مسافة ليست ببعيدة، وصلوا إلى تل يشرف من يكون فوقه على ديار أبي سالم هناك، بل لعل من يكون فوقه على ديار أبي سالم هناك، بل لعل من يكون فوقه بامكانه ان يرصد كل حركة، ويعرف الراجل من الخيّال..

تجمع وجوه القوم حول حسقيل وشيخ الروم.

قال شيخ الروم موجها كلامه اليهم:

ــ عليكم ان تنقسموا الى قسمين متساويين، كل قسم يخرج على العدو من جهة التل.. رتل من جهة الشرق، ورتل من جهة الغرب ــ قال ذلك وهو يشير بيديه الى حيث ينبغي ــ اما انا وحسقيل، فبعد ان تخرجوا عليهم، سنكون فوق التل، نرصد حركتكم وحركة العدو، ونتدخل في الوقت المناسب، ويبقى عدد من الخيالة حولنا خلف التل، ليقوموا بواجب الحماية، وكاحتياط بايدينا، نزج بهم في اللحظات الحاسمة.

لاحظ شيخ الروم، وهو يعطي أوامره، ان هناك بيتين صغيرين يقعان في اطراف منزل القبيلة، كل منهما يرفع راية على عمود عال كأنها اشارة ما.. فنبه حسقيل الى ذلك..

قال حسقيل:

ــ اخشى ان تكون اشارة متفقا عليها، وهذا معناه، ان العدو اكتشفنا قبل ان نظهر عليه من خلف التل..

****

في اليوم التالي مر سالم على كل العناصر القيادية من جماعته، وتأكد بنفسه من ان الاوامر التي اعطاها في اليوم السابق فهمت تماما، وان الاجراءات التي امر بها نفذت وفق ما اراد، وان التهيؤ جرى وفق روحية تلك الاوامر..

كان هناك واد عميق يحيط بمنزل القبيلة، حفرته مياه الامطار على مر السنوات الماضية، حتى صار وهو يستدير هنا، وينعطف هناك، على شكل حدوة حصان، أو شبه جزيرة، تاركا خلفه التل الذي كان حسقيل وشيخ الروم ينويان ان يبقياه خارج منازلهم، وما يليه باتجاه خط مجيء قبيلة الروم الى المكان، منبسطا تماما..

أمر سالم، وشدد حتى اللحظات الاخيرة على الخيالة المختبئين في الوادي ان ينطلقوا، مستخدمين الوادي، كل باتجاه، وان يظهروا خلف التل، أو قريبا من جهتيه، ليقطعوا على المهاجمين خط انسحابهم، وليوقعوا بالاسر اكبر عدد ممكن منهم..

اعطى شيخ الروم أوامره.. وانطلقت الخيول بفرسانها على ظهورها، وبدلا من ان يجدوا الناس بلا سلاح، وجدوهم مدججين بالسلاح، ووجدوا النساء متهيئات للقتال، ومتسلحات باعمدة بيوت الشعر في الاقل، بعد ان سحبن الاعمدة منها حال وصول الاشعار بهجوم العدو.. وما هي الا لحظات، حتى صار فرسان القبيلة كل على ظهر فرسه أو

راحلته، أو يمسك بسلاحه ليقاتل راجلا..

كان الصف الاول في القلب من حاملي القسي والسهام، يليهم الرماحة، فيما يحاول الفرسان الاغارة فوق جيادهم على الاجنحة.. وكان جماعة سالم، كلما حاول جماعة الروم اختراق القلب، امطرهم حاملو القسي بوابل من السهام، فيسقط الفرسان من على ظهور خيولهم، أو يسقط الجواد المصاب، فيتدحرج الفارس، ويضع الاقرب اليه السيف في رقبته، وقد اختلط الحابل بالنابل، في الوقت الذي اختلط صهيل الخيول بصيحات الفرسان، وهلاهل (زغاريد) النساء العربيات اللائي كن يمسكن بالاعمدة، ويحرسن الاطفال والبيوت، كلما جاء فارس رومي مهزوما على فرسه، أو منقضا على العرب، ضربت النساء قوائم فرسه بالاعمدة، أو يشددن قوائم فرسه بحبال ممسوكة من طرفها، وتكون ممدودة على الارض، وترفع فور اقتراب الفرس الغائرة منه فيتجندل الفارس، ويتناولنه بالعصي والعمد، فيهرب، أو يردينه قتيلا.. أو يسقط في الاسر..

وكانت نخوة تهجم، يسندها الرجال الثلاثة على خيولهم.. وكلما حاول احد فرسان الروم الاقتراب منها، برز اليه احدهم ليرديه قتيلا مضرجا بدمائه.. وكانت صيحات (الله أكبر) هي الأعلى..

وكان سالم يقاتل فرسان الروم، كأنه صقر ينقض على فريسته ..وكان يمتطي حصانه الابيض الذي سماه (نسر).. بعد ان خلع قميصه، حتى بان صدره وظهره، ولم يبق على رأسه غطاء.. وكان يطلق ضفيرتين طويلين تتدليان حتى اسفل كتفيه، مثلما كانت عادة شباب العرب آنذاك، والى وقت قريب من زمننا هذا، وهو ينتخي.. ويصيح:

ــ الله أكبر..

ــ الله أكبر..

ــ وليخسأ الخاسئون..

ــ ليخسأ حسقيل وكلب الروم..

ــ وعاش العرب..

ــ يحيا الايمان..

ــ وتبا للكفر والالحاد..

وكان لا يحمل الا سيفا فحسب.. وكلما انكسر سيفه، ناوله احد الفرسان سيفا آخر. وكان جمع الروم يتفرق عندما يغير عليهم، تماما كما تفر النعاج امام ذئب يطاردها، أو كما حمر فرت من قسورة..

وبعد ان يصيح:

ــ الله أكبر.. كان يقول (عين عيونك يا نخوة ..(حياك الله.. وحيا الحمى.. حياك الله.. وحيا أهلنا..

كانت نخوة غالبا ما تنسى القتال وتقف لتملأ عينيها بمنظر سالم وهو يقاتل، وكان حصانه (نسر) يجود بما لا يخذل فارسه..

بدأ جمع الروم يتقهقر، وعبر التل الذي كان حسقيل وكلب الروم يقفان فوقه.. وقفت نخوة هي والفرسان الثلاثة عمر، وحازم، وسمعان.. لترى اللوحة العظيمة التي خذل الله فيها الروم وحسقيل امام العرب.. وعرفت حسقيل وشيخ الروم من طبيعة الكوكبة التي كانت تحيط بهما ولا تغادرهما، وعرفت ايضا انهم صاروا في وضع كأنهم يهيئون انفسهم للهزيمة..

ولاحظت نخوة ان سالما، كلما قاتل وجيها كبيرا من وجوه الروم، أو جندل احدهم فرسه من تحته، أمر له بفرس، ولم يقاتله، ومنع الآخرين من قتاله الا بعد ان يصير فوق ظهر فرس أو حصان، واذا كسر احد سيفه أمر له بسيف جديد ..

حتى يقاتله، أو يقبل بأن يقاتله أحد الفرسان.. وهذه عادة اصيلة حفظها عن اجداده وبقي متمسكا بها..

****

عندما كانت نخوة فوق التل، ترقب منظر القتال، وتراجع فرسان العدو، لاحظت ان اثنين جآء مسرعين على جواديهما، وما ان توقفا قرب مجموعة شيخ الروم وحسقيل، حتى انطلقت خيولهم مسرعة للخلف باتجاه البرجين، في الوقت الذي بقي الآخرون يقاتلون، وفي ظنهم ان امكانية التراجع المنظم ممكنة.. ولكن الهجمات المستمرة للعرب جعلتهم لا يصمدون امام الموت، ففروا معقبين حسقيل وشيخهم، بعد ان سقط خلق كثير منهم بين صريع ميت وجريح، اضافة الى اسر خلق كثير ايضا.. وفقد العرب صناديد منهم، ولكنهم انتصروا، وبقيت راية الله أكبر ترفرف فوق هاماتهم.. وعرفوا، بعد ان جاءهم من تولى مطاردة الفارين، ان النيران شبت في البرجين، واتت عليهما وعلى كل شيء فيهما، مما لا يعرف مصدره الا الله، وان شيخ الروم وحسقيل، عندما اخبرهما الفارسان بالواقعة، وجدا في ما اخبرا به الغطاء الذي كانا يبحثان عنه للهزيمة..

****

عندما رأى حسقيل النار كأنها الجحيم، تعصف بالبرجين بلهيبها ودخانها، راح ينثر التراب على وجهه..ويصيح:

ــ (أويلي عليّ).. لقد ذهب كل شيء جمعته طيلة السنين الماضية.. يا لها من نكبة كبيرة لي ولشيخ الروم!! قال له أحدهم متشفيا من الروم:

ــ انصحك يا حسقيل ان تبني برجين آخرين، تبيع احدهما وتؤجر الآخر لشيخ الروم، وتذهب انت لتكون ضيفا على ابن عمك في النار.

*****

لقد فعلها العرب.. يا لهم من مغامرين عندما يستفزون!! ومع ان حسقيل، والى جانبه كلب الروم، كانا يحثان التراب ويذروانه على رأسيهما.. فقد تساءل كبير الروم مستفسرا من حسقيل:

ــ هل عملها العرب حقا، واحرقوا البرجين، في الوقت الذي كنا منشغلين بالقتال مع جماعة سالم، أم فعلها غيرهم، ليرمي نتائجها على العرب، مع ان اعداءنا من غير العرب كثر ايضا؟

ويجيبه حسقيل:

ــ لا، ان مثل هذا العمل الفدائي لا يقوم به الا عربي.. لانني وفق ما عرفته ممن جاءنا بالخبر ان الذين احرقوا البرجين، احترقوا جميعهم في نيران البرجين بعد ان احرقوهما..

ــ كيف ذلك؟، يستفهم كلب الروم.. اعتقد ان آخرين من غير العرب لو آمنوا بما يؤمن به العرب قد يقومون بهذا ايضا.

ويجيبه حسقيل:

ــ لقد باشروا باحراق البرجين بعد ان صعدوا الى حيث الحرس في البرجين، وقتلوهم.. باشروا باحراق البرجين من على الأعلى، أو منتصفهما ابتداء، وليس من الاسفل، وكانوا يعرفون، كما يبدو، ان مثل هذا العمل يجعل امكانية احتفاظهم بالحياة غير ممكنة، ولذلك قبلوا هذا المصير لأنفسهم.. وقال من اخبرنا بهذه التفاصيل انهم كانوا يرددون، مع قيامهم باحراق البرجين، بصوت جماعي مدو: الله أكبر.. الله أكبر.

وعندما سمع أحد حراس كلب الروم هذا، ويبدو ان جماعة سالم كسبوه الى طريقهم وموقفهم، قال:

ــ رحم الله الشهداء الابرار، شهداء الايمان، والعروبة المؤمنة، واخزى الله الكافرين. عندها جفل كبير الروم وحسقيل، وهما يقولان:

ــ يبدو ان لا مفر امامنا.. ان البرجين وخسائرنا وهزيمتنا في هذه المعركة ليست نهاية المطاف.
قالا ذلك، وركبا فرسيهما، ورحلا..
*****
رأى سالم منظر النار وهي تشب في البرجين.. وكان فوق التل، بعيدا عنهم، وقد ارخى الليل سدوله، ولما يزل يطارد بقايا قوم الروم المهزومين قريبا من ديارهم.. رأى منظر البرجين البائس، واستعاد بذاكرته ثروة حسقيل، وشيخ الروم، تلك الثروة التي جمعاها من المنطقة على حساب اهلها والمحتاجين اليها..
التحقت به نخوة، وفرسانها الثلاثة، وكوكبة من افضل رجال العرب، ووقفوا هناك، فوق ذاك التل، يتأملون في ما حصل..
ردد سالم عند ذاك بصوت متهدج، بعد ان فاضت الدموع من عينيه، ومن عيون الجميع، وبكت نخوة خشوعا وحبورا:
ــ (بسم الله الرحمن الرحيم.. الم يجعل كيدهم في تضليل، وارسل عليهم طيرا ابابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول) وردد ايضا: (قل اللهم مالك الملك، تأتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير) صدق الله العظيم.. كأنه استحضر ما يعطي التفسير لما رآه من هزيمة حسقيل والروم واحتراق برجيهما.. واستحضر هذه الآيات من هذا المنظر ومنظر الصقور، وهي تنقض على طيور الحبر، ذلك لأنها قد مرت من فوق رؤوسهم، وهم يتجمعون في بيت سالم، وحوله وامامه، مثلما مرت من فوق حسقيل وشيخ الروم.
والله أكبر!!

انتهت